حنا مينه



الثلج يأتي من النافذة

رواية

دار الآداب

حنا مينه

الثلج يأتي من النافذة

رواية

دار الآداب – بيروت

الطبعة الثانية
تشرين الاول ١٩٧٧

الإهداء

الى الدكتور نبيه رشيدات

ح . م

القسم الأوّل

- ١ -

حين رأته مقبلًا صاحت :

— ألم يوقفوك بعد ؟ ..

فقال في نفسه : « يالك من حمقاء ! » واكتفى بتحيتها من بعيد ، مشيحا عنها بوجهه ، متجاهلا سؤالها الأهوج . ثم داف الى البيت حيث تهاوى على مقعد قديم ، وأغمض عينيه ناشداً الراحة والدفء .

ولحقت به وطفلها على ذراعها ، تاركة جاراتها على مدخل الحديقة الصغيرة ، وقالت مرحبة :

— أهلًا وسهلًا .. أهلًا .. أمس كنا في سيرتك ، بل نحن منذ شهور في سيرتك .. كنا نتساءل : هل أفلت فياض ؟ وكان عمي يقول : مستحيل ،لو أفلت لجاء إلينا . ويقول خليل : ربما كان مختبأ حتى تسنح الفرصة .. أما إمرأة عمي فلا تزال تضرب على صدرها وتبكي كلما ذكروك . . لم ينسوك ليلة . شربوا كأسك..

انزلوا صورتـك وسقوها .. صاحت إمرأة عمي لأجلك ، ولم يخطر لأحد انك ستكون عندنا اليوم .. أهلًا وسهلًا .. أهلًا ... ماذا ؟ هل بك شيء ؟ ..

حدق فياض في وجه المرأة والطفل بصعوبة .. كان يرتجف من البرد والتعب ، والمقعد تحته تبلل .. وكان شعره مشعثاً ، وصفرة تكسو وجهه . صفرة عميقة الى درجـــة ان المرأة أجفلت حين تفرست فيه وصاحت :

- يارب ! هل أنت جريح ؟ أين كنت ؟ ماذا حدث ؟ هل أحضر الطبيب ؟

أشار إليها ألا تفعل . كان عاجزاً عن الإجابة على سيل أسئلتها . وقد فوجيء هو نفسه ان تكون سحنته فاضحة إلى هـذا الحد . شعر فوراً بخطيئته ، وحاول ان يتماسك ، ويبتسم ، ويخفي تبلل ثيابه التي خوض بها في النهر .. وعادت المرأة تقول: «ياإلهي!» فقال في نفسه : « أفضل شيء أن أنام » .

وفي هذه اللحظة تناهت إليه من الخارج أصوات أطفـــال يتراكضون وراء جدتهم وهي تصيح :

- أهلا .. ياأهلا .. ياحبيبي يافياض .. ياعيوني .. كيف صار ؟ كيف خلصت ؟. فقال في نفسه : « أفضل شيء أن أنام » . وبلا حماسة نهض لتحيتها ، فعانقته وقبلته ، وبكت لأنها إعتادت ان

تفعل ذلك ، وشمه من عنقـــه كأنها لاتصدق انه هو، وزادت في البكاء حتى دهش الأطفال ، ثم إبتسمت مظهرة الوجـــه الآخر لشعورها الطيب .. ولأنها كانت تحت وطـأة إندفاع الفرح ، لم تلاحظ صفرة فياض ولا إرتعاش عضلات فكيه ، فعادت هي ايضاً الى طرح أسئلة لاجامع بينها سوى الرغبـة في ان تعرف كل شيء بأسرع مايمكن .

كانت تتكلم بصوت مرتفع لايتناسب مع ثقل الجو وقرب المسافة بينهما ، وفجأة استدارت لمخاطبة جاراتها الواقفات عند باب الحديقة .. وطار الأولاد لايـدري إلى أين ، وإنقلب هدوء المنزل الى صخب غير متوقع .

كان يحسب ان وصوله سيظل سراً ، وهـــا هي العجوز تستقبله بزفـّة ، والصغـار يتطوعون لنشر الخبر ، والجارات يصحن من الخارج : « الحمد لله على سلامته » فتجيب ام خليل : « الله يحمد شأنكن » .. تفضلي ياأم أنيس .. وأنت ياأم عازار ، وأنت ياأم نسيب .. القهوة على النار » تقولها وتلتفت اليه لإكمال الترحيب .

وظهر ،في غمرة هذا الجيشان العاطفي،أبو خليل على الباب .. كان يطلق ، هو الآخر ، رصاصات التأهيل من باب الحديقـــة .. وللتعبير عن فرحته ، ظل يصيح حتى وصل اليه وأخذه بين أحضانه،

ثم راح يطرح الأسئلة التي سبقته اليها كنته وزوجه ، غير ملاحظ نظرات الشاب المتوسلة .

وأخيراً تطوعت الكنة لشرح الموقف فقالت :

ـ فياض مريض ، مجروح ، لاأدري مابه .. انظروا .. اغلقوا الباب !

قالتهـــا وخطت نحو الباب لتغلقه ، بينما مضى فياض الى الغرفة الداخلية ، فجلس على السرير قائلا لأبي خليل : « اشعل لي سيكارة ، أرجوك ، واعطني غيـــاراً من ثيابك ، وقل لأم خليل لاتصـــرخ ، لاتقولوا لأحد أنا هنا ، والذين عرفوا قولوا لهم اني مريض ، اسرع ياابو خليـل . ارجوك ، أريد الوصول الى الفراش ، وبعد ذلك أقول لـكم كل شيء .. »

ودخلت ام خليل الغرفة وهي تلطم خدّيها .. كانت مستعدة للقيام بمناحة هذه المرة .. وراحت تسأل زوجها ، بالهمس والإشارة ، وقد غاضت فرحتها ، ولم تعد تدري ماتفعل .. ثم وجدت من واجبها ان تنصح فياض فقالت :

ـ شف يافياض . غسل .. واشرب قدح عرق ، وكل ، وصلي ..

قاطعها ابو خليل :

ـ اخرجي من الغرفة .. اتركي فياض يبدل ثيابه .

ـ شف يافياض الصلاة ...

ـ قلت لك اخرجي من الغرفة .

ـ أنت لاتتدخل .. الصلاة ..

ـ ليس هذا وقت الصلاة ..

ـ الصلاة مفيدة في كل الأوقات .. عند أم أنيس طاسة للرعبة ..

فامسك بها أبو خليل بقسوة وصاح :

ـ دينك على دين أم أنيس !

ـ يارب !

ـ ولا كلمة .

قالها ودفعها نحو الباب الذي فتح في هذه اللحظة ، وظهرت على عتبته اختها ام بشير ضاحكة تقول :

ـ أهلا ، أهلا .. الغائب لكم ، والرمغان لنا [1] .

نهض فياض لتحيتها مضطراً ، قائــــلا في ذاته: « الأولاد أدوا الأمانة » .. وإنسلت في هذه اللحظة ، جارة شابة الى المطبخ تسأل كنة ام خليل :

ـ أهذا فياض الذي تقولون عنه ؟

ـ أي نعم ، هذا فياض .. هذا أستاذ !

---

(١) رمغان .. كلمة عامية تعني مايحضره المسافر مما يؤكل .

فقلبت الجارة الشابة شفتيها وقالت :

– بس طقمه [1] عتيق .

– هذا طقم السفر .

– وماذا أحضر معه ؟

– لاشيء ..

فانمط أبو خليل باتجاه المطبخ وقال :

– محضر تحقيق ؟ لك .. دين النسوان . صار الظهر وكل حرمة الى بيتها .

وقالت الجارة الشابة للكنة :

– ماالحمض نفس عمك اليوم .

وغادرت البيت . فبدل فياض ثيابه وقال :

– إتركوني الآن . لاأحد يدخل علي .. سأنام ..

ونام .

– ٢ –

عند العصر ، كان العرق ينعقد كثيفاً على جبينه .. وكانت وجوه شيطانية لرجال يعرفهم وآخرين لم يرهم قبلاً ، تكشر من حواليه.. وقال في نفسه : «يا للأسنان الكريهة !» كان الرجال

(١) أي بزته .

يحاولون القبض عليه وهو يهرب . دخل زقاقاً وتلفت : لا أحـد . حسناً .. ليسرع الآن .. هناك بيت يعرفه ، لكن البيت اختفى . وفي آخر الزقاق رجل يضحك . انه هو .. الرجل الذي يطارده .. رجع أدراجه ودخل منعطفاً لا يدري متى وجد ، وانقلب المنعطف الى شارع ، وامتد الشارع .. ووجـــد بيتاً ، وفي البيت درج ، وجرب الصعود عليه فلم يستطع .. كان الرجل هناك .. يقهقه على رأس الدرج .. وأراد الرجوع فاختفى الدرج . اضطر الى القفز ، فلما بلغ الأرض لم تكن أرض .. كان ماء عكر ، تحول فجأة الى نهر جامح ، دفعه تياره بعنف في مسيله الهادر ، وقذفه على صخر ، على طرف جبل ، فارتطم واستيقظ .

فتح عينيه وبقايا قشعريرة في جسده .. تفرس في الغرفـة خلل العتمة ليتحقق من وجوده ويقظته ، وشيئاً فشيئاً استعاد كامل وعيه .. تأكد أنه في بيروت ، في بيت أبي خليل ، وان الرحـلة الرهيبة ، الطويلة القصيرة ، قد صارت الى نهايتها أخيراً .

كان حلقه جافاً ، ونقف حنظل في فمه ، وصداع ، كذاك الذي يستشعره مخمور عقب نوم قليل ، يدق في صدغيه .. لم يكن أحد في البيت . النافذة الوحيدة مغلقة ، مسدلة الستارة ، وكذلك الباب ، وليس من حركة في الغرفة المجاورة .. ثمـــة أصوات في الحديقة ، لكنها لا تبلغ الضجة المعتادة ، فقال في نفسه : « هـذا

كله من تدبير أبو خليل .. فرض الصمت على البيت لكي أنام طويلاً». وتساءل : « لماذا استيقظت بهذه السرعة ؟ ».

أغمض عينيه باصرار .. وللتوكيد على ضرورة النوم غطى رأسه باللحاف وقال في نفسه : « النوم وحده يعيد الي نشاطي .. يجب أن أنام .. مرة أخرى يجب أن أنام » فتح عينيه وأغمضهما ، ورفع رأسه وطمره ، ولاذ بالظلمة والسكون ، وفرض على مخيلته الجمود للحظات ، وتقلب يميناً ويساراً دون جدوى . كان يستشعر عذاباً داخلياً مؤلماً ، ويصارع في ذاته ضد ذاته ، معانياً من فقدان السيطرة الناشئة عن تنبه الأعصاب .

بعد قليل ازدادت العتمة في الغرفة ، ومنها استدل أن المساء حل .. سيان لديه الوقت .. ليس من عمل ينتظره ، اضافة الى أن الاستلقاء على هـــذا النحو ، رغم امتناع النوم ، يجلب بعض الراحة .

المضيفون مازالوا خارج البيت .. في الحديقة بغير شك ، بدلالة أصوات الأطفال المتقطعة .. هذا صوت أم خليل ، ثم هذا صوت الكنة ، وربما كانت هناك جارات ايضاً ، لكن أبو خليل لايُسمع له صوت . ذهب الى المقهى كما اعتاد كل عصر ، ذهب بعد أن أوصى الجميـع بعدم الضجيـج ودخول البيت . وقال في نفسه : « انهم ينتظرون استيقاظي.. وسيأتي خليل بعد قليل ويستوضحني..

هذا العامل له روح عجيبة في الدأب وعدم اللجاجة .. لكنه يبدو ، أحياناً ، مثيراً للأعصاب لكثرة ما يراوده الشك ، من الأفضل تأجيل الحديث معه الى الغد ، والبقاء في الفراش هذه الليلة » .

اشعل سيكارة : التبغ طيب . أطيب من الطعام والشراب .. دخانه الذي تمتصه الخلايا بنهم ، يخدر الأعصاب ، يساعد على تصور الأشياء بهدوء أكثر ، ويحادث ، شأن الكأس ، جليسه الصامت .

– ٣ –

ها هو في بيروت الآن .. الطريق الطويل ليس طويلا ، وجدار المصاعب ليس عصياً . كل شيء مضى ، مر سريعاً برغم بطء الثواني « أمس – قال فياض في نفسه – كنت على نار .. عشرات الأسئلة كانت تحفر دماغي ، ولم يكن الجواب عليها ممكناً ، أما الآن فكل شيء في الضوء ، وفي وسعي أن أنظر الى الأشياء بهدوء » . وكان أول ما أحسه العتب والندم على مابدر منه من قلق واضطراب .. صار الآن يرى من بعيد ، يتأمل مجرى الأحداث دون أن يرهقه دوران طاحونتها ، فهو خارج حجر الطاحون .

وقـــال في نفسه : « من حقي أن أبتهج ، فالسلامة التي نشدتها توفرت ، ومهما يكن الخطر هنـا ، فهو أخف ، والشعور بالحرية جميل » . كان يتوقع أن يملأه ذلك بالرضى ويسلمه الى نوم عميق . وقد عجب لأنه لا ينام !. شيء ما يحترق في صدره ، يذوب كشمعة موقدة في معبد مغلق ، وظلمة المساء لاتنسكب في الغرفة وحدها ، بل في رئتيه أيضاً ، والأطياف البعيدة تقترب كأن دنياه القديمة تحيط به ويعيش فيها .

سبق له ان زار لبنان ، وزار بلدانا ابعد ، لكنه لم يحس بالغربة بهذا الشكل . أيكون ذلك لأنه خرج من وطنه مرغماً متوارياً ؟ فكر في نفسه : « انا منفي على نحو مـــا » وتنهد : « اللعنة ! » راح يتصور آدم خارج الجنة وقال : « قد كان اساي مفهوماً لو انني طردت من الجنة لخطيئة ارتكبتها ، أما وانني غادرتها غير آثم ، فمن عجب ان تنتابني الكآبة على هذا النحو . ثم ماخطيئة آدم ؟ جدنا الأعلى ظلم مرتين .. طرد لأنه مارس حقه ، وصور على انه مارسه بتحريض من غيره . . ممارسة الحق ممنوعة من زمان ، من عهد آدم وحواء !

كان يستلقي وعيناه مطبقتان .. وخياله يزدحم بالرؤى . . هو هو وليس هو . . انه النقيضان : الوطن والغربة ، القرب والبعد ، الرجاء واليأس .. وقال في نفسه : « علي ان احمل صليبي .. على

الجدول ان يصب في النهر العظيم . هذه العبارة تلخص قضيتي . .
قرأتها لا ادري اين ،عت كتب انا.أبي لم يكن يعيش في الكتب.
لحق امرأة الى مصر لأنها غمزته . يضع رأسه على قمة الجبل وينام..
«وماذا فيها يانزهة ؟ وحوش ؟ ابن آدم تخافه حتى الوحوش . .هذا
الولد هش . كان علي ان أبصق في فمه يوم ولد .. بهذه الطريقة فقط
يطلع الولد على ابيه . مؤسف! الولدطالع علىامه وليس على ابيه!»

استبعد فكرة النوم في شبه احتجاج على الالحاح في طلبه .
ليأت النوم حين يريد ان يأتي ، ذلك ادعى الى الراحة . فكر :
« ليس من شبه بين النوم والمرأة بسوى الدلال . . كلاهما تطلبه
فينأى وتتركه فيقبل ، فلأترك النوم حتى يأتي » . فتح عينيهوحدق
في السقف ، في المجلد الواسع : سطور ، صور ، امه جوكانده .
صورة بتول ينقصها اطار . وابوه فاسق « جنس وخمر ومااحـــلى
مايدبر الله . لايموت الانسان الا في حينه . رأيت حبل المشنقةبعيني
يانزهة ، « وكدت تيتم فياض بسبب امرأة مدير السكة ياسالم ! »
قلت لك كل شيء مقدر . الموت والحب والسفر . المدير هو الذي
قال لي اذهب واشتغل عندنا في البيت . » ولكنه لم يقل لك اعشق
زوجتي » هي قالت . كل شيء مقدر . كانت جميلة . المانية وجميلة،
والدنيا « سفربر » وبرد .. وهي كانت في السرير .. كانت عارية
وكانت في السرير .راح الذي راح ولكنها كانت في السرير.والمدفأة

حمراء ، والفل احمر ، والقطن الملفف بثيابها أحمر . « أنا لا أطلب منك تفاصيل .. الف مرة اعدت القصة » اعدتها لكي تصدقي ، لاغسل ذمتي . « اغسلها وانت صاح ! » عدنا الى الاتهام ؟ قلت لك امرأة المدير .. « كفى ! » امرأة المدير هي .. « فهمت .. كفى ! » ملعون ياعمري .. اقول لك امرأة المدير .. « صدقت ! » واقول لك الولد لا يشبهني « الحمد لله انه لا يشبهك » ولكن دمه من دمي « انت مجنون » وهذا الولد سيجن .. انتظري .. سيجن بشيء ما .. « بأي شيء الا الخمر والنساء » لماذا تزوجت قديسة ياناس ؟ قطعت البحور السبعة وعدت الى دير البلماند .. هذا الولد خاسر . لا يهتم بغير الكتب « يكفي انه عاقل » ومانفع العقل ؟ أتريدينه بنتاً ؟ « اريده ان يبقى بقربي » لن يبقى بقربك .. انتظري وستري ..

هبطت الظلمة في الخارج ، فأذن أبو خليل لأهله بدخول البيت ، وانصب الضوء في الحجرة المجاورة ومعه جلبة الاولاد ، واتاه صوت أم خليل وهي تخاطب زوجها :

ـ شف الملعون .. مئة مرة قلت له ياخليل لا تتأخر .. آخ ، ذنب ثور !

قال ابو خليل بلا مبالاة :

ـ لا ، ذنب كلب !

ـ ذنب شيطان .

وضحكت العجوز للنكتة فنسيت قصة خليل . . اتجهت الى غرفة فياض ، وعندئذ صاح بها زوجها وهو يسحبها من يدها :

ـ تعالي . . المطبخ هناك . . اذهبي الى كنتك واتركي فياض يستريح . . ماذا اوصيتك ؟

لكنها افلتت منه ودخلت الغرفة بهدوء فلما اضاءت النور صاحت دهشة :

ـ افائق انت ، ونحن ننتظر؟

هز فياض رأسه وابتسم ، وقال ابو خليل الذي دخل وراءها :

ـ اقسم انه لم ينم . . انظري عينيه . . انظري حالته . . قلت لكم اذهبوا من البيت . . اذهبوا من الحديقة كلها ، اذهبوا . .

وسكت كيلا يقول سوءاً ، او لعله لم يجد مايقول ، فاجابه فياض مستغربا :

ـ ولماذا يذهبون ؟ دعهم يأخذون راحتهم . . انا بخـــير (وهو ينهض) سأغسل وجهي .

غادر فراشه كمن يغادر فراش المرض . كان يود لو ترك وشأنه ، ولكنها الليلة الاولى ، وهم بانتظار حديثه منذ وصل ، وهذا اثقل شيء عليه .

بعد الاغتسال ، انتعش لوقع الماء البارد على رأسه ووجهه ، فذهب الى طرف الحديقة يستنشق هواء المساء ، ثم دخل فسرح شعره وارتدى ثيابه .

اقترح ابو خليل كأساً ، فتدخلت ام خليل وقالت متوجهة الى فياض :

ـ لازم تأكل اولا . .العرق مضر قبل الاكل .

قال ابو خليل :

ـ العرق يفتح الشهية للاكل . . سنشرب كأساً بانتظار خليل .

ـ لاتنتظروه . . عنده « مجمع » لايرجع قبل سهرة .

والتفتت الى كنتها وقالت :

ـ لازوجك زوج ، ولاانت امرأة . . لولم أكن في هذا البيت .

فقاطعها ابو خليل :

ـ لانهدم ووصلت أحجاره الى البحر .

ـ نعم الى البحر (وملتفتة الى فياض) اسمع يافياض ، خليل صار صاحب بيت وأولاد ، ومع ذلك لايترك الجامع . . والانكى انه يرسل امرأته اليها . . يرسل امرأته الى « مجامـــع » النسوان . . ماشاء الله . وماذا يقولون بالله عليك ؟ بر . . بر . . بر . . قال ياسيدي هو سيأخذ حقوق العمال ، وامرأته ستأخـــذ حقوق المرأة . . وامس رآني ابو انيس فقال : اوصي ابنك يام خليل . . اضراب عمال الهاتف خطر ، وابنك يلعب بالنار . .

ـ هه (صاح ابو خليل) اذكري الديب وحضّري القضيب ، جاء خليل فقولي هذا الكلام في وجهه .

ـ اقوله ولا اخاف . .

وهتف خليل منذ ان صار في الداخل :

ـ فياض .. ياهلا .. كيف صار ؟

وتعانقا . . قبّل احدهما الآخر ، وزاد خليل في تقبيل صديقه . راح يضمه غير مصدق انه بين احضانه ، وهم ان يسأله : متى وصلت ؟ وكيف ؟ فاندفعت امه قائلة :

ـ لو عينك شافته حين وصل ياخليل .. وجهه اصفر ، وشعره ملبد ، وفمه يابس .. انا كنت مع ام انيس ، ولما سمعت اسمه طار عقلي .. رأيته يدخل البيت ولم اصدق . . ركضت ، قلت في نفسي : هذا فياض ؟ مستحيل ، واقتربت .. فياض بعينه ، وأردت الزغردة ، لكنه دخل البيت ولم يلتفت الينا .. لم يسلم على ام انيس . تصور .. أي ام انيس غريبة ؟ هذه واحدة من البيت ، انا والله خجلت . لم ادر ما أقول تركتها ودخلت ، فوجدته يرتجف من البرد . صاحت زوجتك : فياض مريض ! ودخل ابوك في هذه اللحظة ، ولحقناه الى الغرفة الداخلية .. طلب سيكارة ، وبدل ثيابه ونام . . لم يأكل ولم يشرب ، ولم يقل لنا كلمة .. وام انيس ..

زجر ابو خليل :

ـ دين ام انيس .. لاتفلقينا بأم انيس هه .. كأسك فياض! بيعينا سكوتك ياحرمة !

ـ ٤ ـ

عقب الطعام انفرد خليل بفياض . طلب اليه ان يحدثه بتفصيل عن كل ماجرى معه فقال فياض :

ـ وكيف الحال هنا ، في لبنان ؟

ـ من ناحية اللاجئين امثالك ؟ صعبة .

ـ يلاحقونهم ؟

ـ بشدة .

ـ ولماذا ؟

ـ هكذا .. لايريدونهم .. احسب ان هناك ضغطاً بشأنهم .

ـ والحرية التي يقولون عنها ؟

ـ الحرية .؟ ليست لنا على كل حال ، لاصحابها ..

ثم استدرك :

ـ ولكن لبنان يظل لبنان .. وفي وسع الجميع ان يجدوا مخرجاً فيه .

ـ وهذا ماأريد . .

ـ ولكن عليك ، في هذه الفترة على الاقل ، ان تظل مختبئاً . . إبق مختبئاً حتى ابحث أمرك وأجد وسيلة لمساعدتك . . لا تغادر البيت .

وقال فياض في نفسه : « اذا كنت ساختبيء فلماذا جئت اذن ؟ » . وقال خليل :

ـ سندبر الامر . . لا تقلق . . حدثني اولا عنك .

حدثه بكل شيء . . قال له ان الرجعية الحاكمة في سورية قد فتحت المعركة ضد الشعب تمهيدا « للدفاع المشترك » وهي تطارد التقدميين لتمرير هذا الحلف ولكنها لن تنجح . . وقد لوحق هو لانه يساري وكاتب معارض . فاضطر الى الانقطاع عن التدريس واختبأ فترة ، فلما اشتدت الملاحقة نصح بمغادرة البلاد لمواصلة المعركة وقد التجأ الى لبنان وفي ظنه انه سيتمتع بالحرية . . ثم حدثه عن الذين في السجن ، والذين يعيشون مختبئين او مشردين . وعن جو الارهاب . . . قال له كل ما يمكن ان يقال . . وظل خليل مطرقا يفكر . كان جم الاهتمام بما يسمع . . سادرا على غير عادته ، ومن حين لآخر يبدي ملاحظة عابرة ، او يستعيد مقطعاً من الحديث ، او يطرح سؤالا مفاجئا ، فاذا كان الجواب غير مقنع ، كرر السؤال بشكل آخر ، وهز برأسه شاكا ، اوارسل عبارته التي تتخذ سمة حسم مزعج :

ـ كان يجب الا تفعل هذا .

او قال حازما :

ـ كان عليك ان تصمد اكثر .

وعندئذ كان فياض ينكس رأسه ، او ينظر اليه باحثا عن الرقة التي كانت له قبل لحظات ، دون ان يعترض او يبرر سلوكه. انه يعرفه ، خليل غزالة هذا .. يعرف قلبه ونفسه ومـا يدور في رأسه ، فاذا توقف عند نقطة ، او تشبث برأي ، غدا من الصعب زحزحته قبل ان يقتنع . وغالبا ما كان اقتناعه متأنيا ، لا يتأتى الا على اساس خبرته ... وكل الاعتـــذارات او التبريرات تصطدم باغضائه الشائك .. انه عملي ، تجريبي الى درجة مثيرة .

* * *

طال انفراد خليل وفياض حتى ظهر الضيق على وجه العجوز... كان كلامهما همسا لم تتمكن من التقاط شيء منـه ، فنهضت لتدخل عليهما ، لكن زوجها انتهرها قائلًا :

ـ مكانك !

ولما خرجا بادرت الى التنفيس عـن كبتها فقالت موجهة كلامها الى فياض وهي تلوح بيدها العجفاء :

ـ ماذا قلت له ؟ يا حرام على شبابك . قلت لك لا تلحق هذا الرأس اليابس ... حذرتك فما سمعت .. ضيع نفسه وراح

يضيعك .. من ثلاثين سنة وهو مشغول بهـذه « المجامع » ونحن لا نشبع الخبز .. لم يتوظف مع ان قلمه ينقط سم .

قال ابو خليل :

– لا ، عسل !

– بلوط ! هكذا قالوا .. يقرأ ويكتب ولم يتوظف .. الذي كان يتهجأ في زمانه صار « باش كاتب » .

– وابنك صار باش سانديكا ![1]

– تشرفنا ! تشرفنا ! وماذا تفيدهم السنديكا ؟ قلت لهم ما دمتم بلا سند فالمسألة فالصو .. لو كان وراءهم رأس .. وزير ، نائب ، قلنا فيها وما فيها ، لكن الجماعة بدون سند ، بدون رأس ، يركضون على الفاضي .. يعملون بدون فـــائدة ، والمصيبة انهم يدفعون من جيوبهم .. اسمع يا فياض ...

قال ابو خليل :

– لا تسمع .. سد اذنيك بقطنة ..

– كلامي لا يخش اذن احد .. اكذب ؟ الا يدفع كل شهر ؟ وفوق الدفـع مصروف الكهرباء ... يظل يقرأ الجريدة حتى نصف الليل ، ويوم الاحـد .. الناس يستريحون وهو يكتب العرائض ، او يأتي عـــمال الهاتف الى منزلنا ، يغلقون الباب ويتحدثون .. ماذا يقولون بالله عليك ؟ بر .. بر .. بر .. قال يطالبون

---

(١) نقابة .

بحقوق العمال قال . شف ... جماعة بدون رأس .. لو كان فيهم رأس، لو كان لهم وزير ، لو عندهم شخص له كلمة في الحكومة، يقول كلمتين وتنتهي الحكاية .. آخ .. كيف افعل؟ هذا الشيطان ذوب عافيتي ..

قال خليل :

ـ انا لم اذوب عافيتك .

وقال فياض في نفسه « كان المفروض ان تذوّب هي عافيتك » .

وقالت ام خليل :

ـ اسمع يا فياض! زوّجته وقلت: ينفض يده من «الجامع» ويقعد في بيته .. صار له اولاد فقلت : « يـــترك السياسة ! ». اصبحنا انا ووالده عاجزين ،فقلت : يشفق علينا ويخزي الشيطان . الخلاصة (وضربت على صـــدرها) رأس من حطب ، لا يصلح الا للكسر .

قال ابو خليل :

ـ كسروه وانجبر ..

ـ لم يكسروه بعـد .. ضربوه ولم يكسروه .. واذا كسروه غدا فماذا يبقى ؟

ـ قال ابو خليل :

- يبقى غيره .

- وما الفائدة اذا كسروا رأس ابنك وبقي غيره ؟

- ابني مااحسن من غيره .

صاحت ام خليل :

- عال . عال . صرت مع ابنك .. اي اب انت ؟

- انا مع الحق .. اسألي فياض .

ضحك ، ص لتلطيف الجو ، فقالت ام خليل :

- تضحك . ؟ آخ .. رأسك مثل رأسه .. الله يساعد امك .. الله يساعدك يانزهة ، أين أنت الآن يانزهة ؟

(نزهة هناك .. في بلد بعيد . نصحته الايخاطر بنفسه ، ولما خاطر تركته وسافرت الى ابنتها . لا العين ترى ولا القلب يوجع » .. هربت من وجع القلب فلحقها .. وهي تبكي الآن « فياض اختفى ياسالم ، انقطعت اخباره ! » لاتخافي عليه يانزهة ، ياما انقطعت أخباري وعدت « ولكنك كنت تلحق هواك » كله واحد .. الهوى هوى دائماً .. لااحد يموت قبل يومه « وتذكرني بالموت ؟ » وماذا فيها ؟ سنخلد ؟ الموت حق .. مقدر .. « انت بدون قلب » وهذا أحسن .. كنا صرنا امرأتين في بيت واحد .. ثم فياض ابني ايضاً .. وحيدي ، بعد ثلاث بنات جاء .. ويوم ولد اقمت الحي واقعدته .. كنا في البحر نفرغ باخرة . وجاءتني البُشارة . فقلت

المشغيلة : اسمعوا ياشباب ، من الباخرة الى الخمارة . وهناك افرغت زناري . كنت ادخر نقودي في زناري ، ادخرتها منذ قالت لي الغجرية ستفرح بصبي .. وشربنا .. انفقت كل مالي واستدنت . وفي البيت قبلتك من جبينك يانزهة ، وقبلت البنات ايضاً . نعم ، قبلت البنات ، ووزعت الحلوى ، ثلاث صواني من الحلوى ، وجئت بطبل وزمر .. انه وحيدي ، فياض وحيدي ، وكنت انظر اليه ولااصدق عيوني ، لم اصدق ان عرق النعناع هذا سيصير رجلًا . كان هزيلًا ، خجولاً مثل البنات ، ومثل البنات يظل في البيت وقلت في نفسي : « فعلتها نزهة مع غيري ! ؟ » لعن الله الشيطان.. هذا ابني،اخلاقه ليست أخلاقي ولكنه يشبهني بسمرته.. الالمانية قالت لي انت أسمر ، وهذا فياض أسمر ، وهو عصبي .. هذا الضعف سببه العصبية ، وهكذا انا .. الكتب وحدها لم تعجبني ، وقلت لك يانزهة ابعدي الولد عن الكتب « ولمـــاذا ؟ تريده مثلك لايفـــك الحرف ؟ » وما نفع الحرف ؟ نحن لم نخلق للحرف .. الذي ولد في البحر يموت فيه .. البحارة يعشقون النساء، يشربون الخمر ، يصارعون الموج ، وابني ، ابني انا ، وحيدي يدفن نفسه في الكتب ! مصيبة ! « المصيبة الايتعلم .. دعه . يقرأ .. يقولون أنه فلتة .. المعلمة قبلته وقالت « لااعرف ماذا سيكون ، ولكنك سيكون .. » المعلمة بنت كلب يانزهة .. ستنزع لنا هذا

الولد .. اسمعي مني .. ابعديه عن الكتب » ولكن المعلمة .. « المعلمة قحبة ! «ياويلاه .. استغفر الله » استغفريه ، ولكن ابعدي الولد عن الكتب ، ابعديه عن الكتب يانزهة !)

وعادت ام خليل تقول: مسكينة يانزهة. .ماذا تقول الآن ؟

ـ لاشيء ، قال ابو خليل ، نزهة لاتلت وتعجن مثلك. .تحترم نفسها .

ـ وانا ؟

ـ انت فونوغراف .

فضحك فياض برغمه ، وقالت ام خليل :

ـ انظروا .. يضحك أيضاً .

فقال ابو خليل :

ـ لاتضحك يافياض .. ابك .

وقال فياض في نفسه : « متى يتكلم خليل ؟ » واكتفى هذا بالابتسام ، ونهض قائلا :

ـ سأغيب قليلا واعود ..

وفتح الباب وتوارى .

ـ ٥ ـ

ظهر اليوم التالي ، حملت ام انيس خبرا اثار القلق في البيت .. قالت انها كانت في الحانوت الذي على الناصية ، حين جاء

شخص غريب ، نزل من سيارة وقفت بعيدا ، وسأل في الشارع عن بيت خليل غزالة .. فدله الفران ، وارادت هي ايصاله اليهم ، لكن الشخص عبر الطريق الى سيارته ومضى .. وقياما بحق الجيرة ، عادت من الدكان الى بيت ابي خليل رأسا ، ونادت من الخارج :

ـ ياخليل !

ردت الام ، ودعتها الى الدخول ، والحت عليها رغم تحذير ابي خليل ، فاعتذرت ام انيس بسبب اشغالها ، واكتفت بابلاغ النبأ ، دون ان تعطي اي تعليق من عندها . وقد اقلق الخبر جميع من في البيت ، ماعدا اثنين ، هما فياض الذي كتموه عنه ، والكنة التي غاب عنها سبب القلق في خبر كهذا .

وانتظر الجميع حتى المساء فلم يأت الزائر . عندئذ قال ابو خليل :

ـ المسألة مشبوهة .. يجب تدبير مخبأ آخر لفياض .

ولطمت ام خليل خديها وسألت :

ـ عرفوا بوصول فياض الى بيروت ؟

فرد عليها خليل :

ـ لاتستعجلي ..

وقال الاب :

ـ اذا كانوا قد عرفوا ، فالسبب هو لسانك .

وقالت ام خليل :

- لساني ؟ انا لم اخرج من البيت .

ولكي يتأكدوا من الخبر ، ذهب ابو خليل الى الفران ، ثم لحق به خليل ، وقامت الام في اثرهما ، وبدأ الثلاثة تحرياتهم .. فأفاد الفران ان شخصا يركب سيارة ويضع على عينيه نظارات سود ، (وهذه الملاحظة رد على استيضاح الاب) سأل فعلا عن خليل . واقسمت ام انيس انها رأته بعينيها الاثنتين ، واعطت اوصافه جازمة انه غريب لم تره قبل الآن .

وقال خليل وهم في طريق العودة :

- ربما سأل عني لتصليح الهاتف .

واضاف موصيا امه :

- اذا سألتك ام انيس عن فياض ، قولي لها جاء المعالجة .

فقال ابو خليل :

- بل قولي لها سافر .

- وكيف اقول لها سافر وهو في البيت ، وستراه كل يوم؟

- لن تراه بعد اليوم .. سيظل فياض في الغرفة الداخلية ، ولن نفتح مجالس عندنا .. اغلقنا المقهى ، ... فهمت ؟

- كما تريد .

ولاحظ خليل :

- ليس الى هذا الحد .. المهم ألا يعرف الغرباء .

- لا بد أن يعرفوا مع الايام .

- فياض لن يبقى عندنا .. اتركوا هذا الحديث الآن .

دخلوا البيت في وجوم . لم تقل أم خليل شيئاً على المائدة . كان واضحاً لفياض انهم ينصتون لكل حركة في الخارج ، ولكنه لم يسأل عن شيء ، بل عاد الى غرفته الداخلية ، حيث وافاه خليل ، وابلغه انه ذاهب في شغل ، وغادره وهو في حيرة من أمره.

ظل فياض واقفاً وسط الغرفة ، لا يدري ماذا يفعل .. فهم من تلميح صديقه خطورة وضعه ، واذا كان خليل لم يتكلم كثيراً في الموضوع، فلأن المسألة واضحة، ومن المفروض ان يعرف انه في مخبأ ، وان يقدر الظروف .

«بليتك يافياض انك من جماعة الكتب. ليس للقلم خطر في مجتمع لا يقرأ الا قليلا ، ولكن للقلم ضجة ، انك في بيروت ، وأنت كاتب ، وستعزى كتابات كثيرة اليك ، وهذه الكتابات ستضايق الذين في بلدك ، وسيحتجون، وفي لبنان يقبلون الاحتجاجات على امثالك . أنت في « كرم الزيتون » وليس في شارع الحمرا ، وغمامة الحرية ، لا تفيء على الحيين بنفس المقدار . مفهوم الحرية لا يشملك ، بل حق اللجوء لا يشملك . أنت مطارد ، هنا وهناك

وفي كل مكان مطـــارد . « ستكونون ملعونين من جميـع الأمم لأجلي » الترجمة خطأ ؟ حسناً ، من جميـع .. مفهوم .. ولكن هذا لا يبدل من وضعك شيئاً . انت مطارد . . اسمك في اللائحة وأنت مطارد . . قل ما شئت ، يبقى الامر واحداً : أنت مطارد .. اللوائح ، لا تتبدل بالنسبة لأمثالك ، يضاف اليهـــا ولا يشطب منهـا ، اسمك لن يشطب ، وحتى لو كنت تنام وتنظر في السقف لن يشطب ، واللوائح تنام ، ولكنها تستيقظ احياناً . . تستخرج من الأدراج ، للتهوئة ، للتلميع . وحظك – إلعن حظك – جاء بك في وقت تلميع اللوائح ، وعلى اسمك أشير بالقلم الأحمر ، وأنت لا تبالي ، ربمـا لا تبالي ، ولكن اصدقاءك يبـالون ، لا يريدونك صيداً لسنارة الضجة فيما لو بلعت طعم المظاهر .. انتظر .. لو كنت في شارع الحمرا لضعت ، في والغرف تضيـع ، في المصاعد تضيـع ، وبين الطوابق تخرج وتتنزه ، لكنك في كرم الزيتون ، وفي بيت أبي خليل ، في غرفة مكشوفة للزوار ، وللعجائز الحي ، وللمارين في الشارع » .

خلع ثيابه واندس في الفراش .. عليه أن يستلقي وينام ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيعه الآن ، ولكن النوم لا يأتي .. هو يعرف انه لا يأتي ، فأعصابه متنبهة ، ولن ينفعه اغماض العينين ما دام عقله متيقظاً .

ومن حوله آوى الجميع الى مضاجعهم . نامت الكنة وصغارها

في الغرفة الخارجية ، وابو خليل وأم خليـــل وبعض الاولاد في الغرفة الداخلية ، وصلّت العجوز قبل النوم،فتظاهر هو بأنه اغفى، وغطى وجهه باللحاف .. لكن العجوز ، وكان فراشها الى جواره، لم تنم قبل القيام بآخر تفقد، وحين جاء دوره اقتربت منه ،ورفعت الغطاء عن وجهه وسألته :

- بماذا تفكر ؟

- لا أفكر بشيء .

- ولماذا لم تنم ؟

- سأنام ..

- نم بسرعة .. لا تفكر بشيء ..

وبعد أن رسمت الصليب لآخر مرة عادت اليه وقالت :

- لا فائدة من التفكير .. الذي يضع يده في الماء الساخن يحرقها .. المثل لا يكذب ، و ..

فصاح ابو خليل الذي رفع رأسه من تحت الغطاء :

- يا قديسة بربارة .. يا سيدة حريصا .. كفى مواعظ !

- مواعظ ؟

- اي نعم مواعـظ !.. ألا تتركين الولد ينـام ؟. أمـا قلة حياء !

- انزعجت .؟ نم أنت .. لو كنت أماً ..

ـ الحمد لله انني أب .. لو كنت أمـــاً مثلك قتلت نفسي

(وجلس في فراشه وأضاف) :

ـ افهميني ياحرمة.. ألا يوجد في الدنيا امهات غـيرك ؟ قولي .. كيف سيقضي فياض ايامه بيننا ؟ لماذا لا تحلين عنه ؟ هل تضطرينه الى تسليم نفسه ؟ مصيبة!

قالها وعاد الى النوم ، فتراجعت هي عن فياض ، ورسمت الصليب مرة اضافيـة ، واطفأت النور فساد الظــلام والصمت البيت كله .

ـ ٦ ـ

اضطر فياض الى قضاء اسبوعين في هذا الجو المشبع بالقلق ونقيق العجوز .

كان البيت يتألف من غرفتين ، او غرفة واحدة مستطيلة جعلهاقسمين جدار فيه فتحة كبيرة سدتهاخزانة ، اضافة الى مطبخ صغير ومرحاض يستعمل كحمام ، وحديقة على امتداد الغرفتـين تليها الطريق مباشرة ، وكان على فياض ، لـكي لا يراه احد من الخارج ، ان يغلق النافذة الوحيدة في غرفته ، او يسدل الستارة نهارا ، ويظل الباب الفاصل بـين الغرفتين مغلقا بصورة دائمة ، لا يسمح لغريب بولوجه .

وقد عرف فياض ، منذ وعى الضرورة لاختبائه ، مـاذا يعني العيش في ظروف الحياة السرية بالنسبة لانسان مثله .. كان يتألم بصمت وعجز وشعور بالخيبة . يذكر اخوانه الذين في السجن والذين يعملون في الخفاء ، ويستعيد كلمات خليل « كان عليك ان تصمد اكثر » فيستشعر الندم والانكسار ،ويغضب لخروجه من وطنه ونزوله ضيفا على هـذه العائلة الفقيرة . واذ تمر الايام ، دون خبر جديد ولا امل جديـد ، يبهظه طول الانتظار ، فيصف نفسه بالضيف الذي لايعرف متى يرحـــل ، ويقول : « اتعس انسان ، الضيف الذي لا يعرف متي يرحل »فيبتسم خليل ويقول له: «اصبر، انت لا تستطيع الظهور في الوقت الحاضر .. يجب ان تعيش في مخبأ ، او تباشر عملا يبعد عنك الشبهة . »

وذات مساء،وكان الضيق بفياض قدبلغ ذروته ، قال لخليل:

ـ انا مستعد لمباشرة اي عمل لا اظهر فيه على حقيقتي ولا يعرفني احد .. لو كنت اعرف انني ساعيش متواريا ، متطفلا على موائد الآخرين ، لما خرجت .

فقال خليل في نفسه : « انت لم تفكر بهذا لانك لم تجد الوقت للتفكير .. كنت مستعجلا للخروج والنجاة بنفسك .. وانا الذي كنت اقرأك واعجب .. كم تساءلت هل يكتب ما

هو مستعد للتضحية في سبيله ، ام ان الكتابـــة لا تكلفه شيئا في الوقت الحاضر ؟ »

وقال له :

ـ انت لست متطفلاً على مائدتي .. انت صديقي .. ولنفرض انك متطفل ، وان الظروف وضعتك في هذا المأزق ، فهل تبحث عن المخرج في مأزق آخر؟ أتريد أن تسلم نفسك؟ قل لي بصراحة .. تستطيع عندئذ ان تعود الى بلدك دون أن يزعجك احد .. ولكنك تتخلى عن قضيتك ، تخونها ..

فاحمر فياض وقال في نفسه : « لماذا يطرح المسألة بهـــذا الشكل ؟ لماذا هـذه الافتراضات ؟ وكيف يبني عليها هـذه الاستنتاجات ؟ »

ـ لو كنت انوي تسليم نفسي والتفريط بقضيتي لما تركت عملي واختبأت وتشردت .

قال خليل :

ـ تريد الصراحة ؟ أنت فعلت ذلك خوفاً من السجن .

فصاح فياض :

ـ لا تتهمني بالجبن .. لا تتسرع .. من يترك عمله ، ويتشرد في سبيل افكاره لا يفرط بقضيته .

فركز خليل انظاره عليه وقال صارماً :

- كل شيء يتوقف على الصمود .. بعد البطالة والتشرد ، وحتى بعد السجن نفسه ، يبقى الصمود اساس الموقف .. اصمد.. أتفهم ؟

وأخرج الباكيت وقدم له سيكارة فاعتذر. « أواه يافياض! حتى شكاتك لا تفهم . خروجك من وطنك يفسره صديقك بالجبن، ورغبتك في العمل بالضعف ، وكل تصرفاتك بالطيش .. أكان خليل يقف هذا الموقف في غير هذا الوضع ؟ »

واضاف خليل دون ميل الى التلطف :

- لاتزعل مني .. تتعذب ؟ واضح .. كثيرون يتعذبون.. كثيرون يتركون اعمالهم ويتشردون ، يدخلون السجن ويخرجون، وقد يدخلونه مرات ويخرجون .. ثم يفرطون بقضيتهم فما السبب؟ فكر .. انهم يفتقرون الى روح المثابرة ، ينقصهم الصمود امـــام المصاعب الصغيرة احياناً .. التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع الناس مناضلون ، وربما ابطال !

لاذ فياض بالصمت منزعجاً من عموميات خليل وبدهياته التي يعرفها ، وقال في نفسه « لايريد ان يفهم دوافعي من الرحيل عن هذا البيت ولايثق بي .. انه لايثق بالمثقفين » .

- انا لااستطيع البقاء حبيساً ، كسيحاً اكثر مما فعلت .. علي ان اعمل .. ان ادخل تجربة المصاعب التي تحدثت عنها ،وسترى

بعدها .. ساعدني فقط في الحصول على عمل، وليكن عملاً جسمانياً ، بعيداً عن الصحافة وجوها .. وسأكتب بعدئذ، سأكتب مجاناً وباسم مستعار .. سأحقق هدفي من خروجي من الوطن ، وأشعر بالراحة والعافية . سأكون في هذه الحال ، مع اخواني ، وسأعيش افكاري . اما هنا فانا بعيد عنهم ، معزول عن قضيتهم ، غريب عن مشاعرهم .. ثم لا بد ، اليوم او غدا ، من الخروج .. فكر انت ايضا ، فكر يا خليل ، لا تذبحني بمواعظك ! »

قال خليل :

- فكرت كثيرا ، ولكنك لا تقبل الاشياء الا من وجهة نظرك .

- وسأقبلها من وجهة نظرك أيضا

- فاذا قلت لك ابق هنا في الوقت الحاضر ؟

اللعنة ! كان يحسب ان صديقه سيقترح عليه عملا ، سينصحه بالعودة الى وطنه والصمود كالآخرين ، ولو اقترح ذلك لنفذه . السجن لا يخيفه الان .. الغربة اقسى من السجن ، واقسى منها البقاء في بيت مكشوف كهذا ، لا يستطيع فيه حتى الذهاب الى المرحاض نهارا ، ولا يستطيع ان يكتب ، وليس معه من المال ما يضمن نفقاته البسيطة .. وهاهو خليل يدعوه الى الاستمرار في هـــذا الوضع ، مع علمه انه لا يحتمل .

وقال في نفسه وهو يتظاهر بالموافقة : « سأبقى بين هذه الجدران ، ادور فيها كحيوان في قفص .. لماذا خلقت حساسا الى هذا الحد ؟ يا نعمة البلادة اهبطي علي ، ويا صبر خليل ، يا صبر معلمي الذي فتح عيني على الحقيقة والشقاء ، واتني انا ايضا . »

لاحظ خليل :

– اراك غاضباً ؟

– وهل تريدني راضيا وانا اهدر وقتي بما لا يفيد ؟

– كل شيء مفيد .

– ليس كل شيء .

– بالطبع ولكن الذي نفعله مفيد .

– انا اتعذب دون فائدة .. دون طائل .

– انت تدفع الثمن !

– وما هو الثمن الذي ادفعه ؟ انا لا أدفع شيئا .. انا طفيلي .

قال خليلي :

– دع عنك هذا .. لو كنت طفيليا ماشعرت انك طفيلي .

واضاف دون انجراف في تيار الملاطفات :

– انت تدفع ايضا .. تدفع من صبرك . تمرن على الصبر ، هذا هو الألف باء .. كن سعيداً ، اكتب .

– جربت فلم انجح .

– جرب مرة اخرى .. العمل هو الدواء ،

– وددت لو كنت اعمل .

– ستعمل .. لا تستعجل .

رنا اليه وقال :

– وطن نفسك على ما انت فيه .. انس الماضي قليلا .. لا تقل كنت و كنت .. الذكريات الحائرة تزيدك سوءا .

صاح فياض :

– لا تقس علي .. لا استطيع .

وقال خليل :

– اعرف ، ومن اجل هذا تجنبت الحديث عن واقعك قبل الآن .

– لكنك لا تقدر كم هو واقع مؤلم .. فكر بحالي يا خليل .

قال خليل متأثرا :

– اتحسب اني لا أفعل ؟ اقدر وضعك تماما ، ولكني لا أجد عنه بديلا ..

واقترب منه واضاف :

ـ لا تزعل .. انس كل ما قلته لك .. ولكن لا تنس ان تتقبل واقعك وتتغلب عليه .. اذكر ان واقعك هذا جيد بالنسبة لواقع امثالك .

ورق صوته وهو يضع يده على كتف صديقه قائلاً :

ـ يا فياض ، يا عزيزي ، هذا البيت ، على ضيقه ، واسع جدا بالنسبة للبيوت التي عاش فيها أمثالك سنوات .. تذكر هذا .. تذكره فقد يفيدك .

وخيم صمت ثقيل ، قطعه فياض قائلا :

ـ اعرف ذلك ، اعرفه ، فانا ، على الاقل ، ارى الشمس ، اما انت ..

ـ انا ماذا ؟

ـ أنت من ذلك الجيل .

وقال خليل وهو ينهض :

ـ كفى ، كفى ، قلت لك لا تذكر الماضي كثيراً .

قالها وغادر الغرفة مسرعا ، ليلحق باجتماع عمال الهاتف الذي يبحث قضية الاضراب .. بينما ظـــل فياض يلاحقه حتى غاب ، وعندئذ تمثله كيف كان قبل خمسة وعشرين عاما .

كان خليل فتى جميلا في ذلك الحين .. كانت له دراجة .. كانت عتيقة ، ولكن ماذا يهم ؟ لم يكن في الحي سواها ، ولم يكن في الحي من يقرأ ويكتب سواه ، وكانت بنات الحي ترغب فيه ، ولكنه لم يفكر بالزواج : امه قالت انه لايفكر بالزواج ، فاسفت لذلك البنات . وكانت ام خليل على بقية من ملاحة ، وابوه كهلا وصاحب عربة يجرها حصان عجوز ، متهدم ، مثل العربة ناقلة الحبوب والحجارة وكل ماتيسر . وكان فياض واترابه من اولاد الحي ينتظرون في الاصباح ، خروج ابي خليل بعربته ، ليتعلقوا بها ، او ليركبوا في صندوقها الخشبي ، وكانوا سعداء بذلك ، رغم ارتجاج العربة ذات الدواليب الحديدية على الطرق الحجرية ، وارتجاج اجسامهم الصغيرة كأنها مربوطة الى اسلاك كهربائية . وكانوا يقولون في المدرسة :

ـ جئنا اليوم في عربة !

ولأن ابو خليل صاحب عربة ، وخليل وحيد والديه ، استغرب اهل الحي ، ذات صباح ، ان خليل اعتقل وارسل مع بعض العمال الى حلب ، لانه ـ حسب تعبير أمه ـ « وضع يده في النار » . ولما سأل فياض والده عن سبب اعتقال خليل قال :

ـ لانه سنديكاتو ![1] .

ورسمت امه شارة الصليب ، و كفا عن الحديث .

ولم يفهم فياض شيئا ، ولكن اخته الكبيرة ، بكت بدموع غزيرة ذاك المساء ، لان فستانها الاحمر ، فستان العيد ، اخذه البوليس من بيت « فدوكيا » الخياطة ، كدليل جرمي على ان عفيف ـ شقيق الخياطة ـ اشترك في تعليق الاعلام الحمر على اعمدة الهاتف في اول ايار .

وقال الناس ان البوليس سيكبس الحي كله ، بحثـاً عن الفساتين الحمر ، وعندئذ حدثت ضجة عامة ، واحتار الجميع في أمر ثيابهم ذات اللون الاحمر ، ودون ان يتوقع احد ، نبقت ام بشير وقالت :

ـ انا اخفيها عندي .

فصاحت بها اختها أم خليل :

ـ انقبري .

لكن ام بشير ، العاملة في ورشة توضيب عروق السوس ، والارملة التي تعيل خمسة يتامى، كانت جادة في قولها ، وهذاما احنق اختها عليها فوصفتها بالمجنونة ، وانتهرتها ، ولم تأبه هي لذلك ، بل زادت من تحديها ، فلبست فستانا احمر ـ وقيل انها فعلت ذلك نكاية

(١) اي له نشاط نقابي ، والسنديكاهي النقابة .

باختها ـ وتطوعت لايصال الطعام الى السجناء قبل نقلهم الى حلب ، واختلفت النساء ، وربما بعض الرجال ، في أمر شجاعتها او جنونها.

اما فياض فقد اهتم باخفاء الكراريس التي اخذها من خليل قبل مدة .. كان يعود من المدرسة ، فاعترضه خليل ، وسأله عن معنى «اللامبالاة» وكان يلفظها موصولة ، ساكنة الميم ، مشبعة اللام الف ، فارتبك فياض وخجل ، وسقط في أول امتحان له خارج المدرسة ، فقال خليل « لاتهتم ، هذه كلمة صعبة . هذه فلسفة ! » وود فياض ان يعرف مامعنى الفلسفة ، لكن خليل لم يشرحها ، لأنه كان يفهم الفلسفة على انها فلسفة والسلام . ثم جاءه بكراس ، فقرأه فياض بسهولة ، دون ان يفهم اكثره ، فتطوع خليل لايضاح مااستطاع ، واخبره انه هو والعمال يقرأون هذه الكراريس الممنوعة ، في مغارة بعيدة في الجبل .

وقال فياض مدفوعاً بسحر اللوحة :

ـ في الجبل ؟ خذني معك لأقرأ لكم .

قال خليل :

ـ ليس الآن .. حتى تكبر .

واضاف :

ـ نحن نذهب الى هناك في الليل .

ـ و كيف تقرأون في الظلام ؟

فاخرج خليل ، باعتداد وسرية ، شمعة من جيب سترته وقال :

ـ نقرأ على ضوء هذه . .

ومنذ ذلك اليوم ، غدت « المغارة والشمعة والعمال الذين يقرأون الكراريس في الجبل » لوحة منقوشة في ذهن فياض ، لوحة غريبة ومثيرة الى درجة انه كان يراها مرسومة على كتبه وجدران المدرسة والبيت .. فلما اعتقل خليل ، وشاع ان الفرنسيين عذبوا المعتقلين باقتلاع اظافرهم واجلاسهم على « الساج » المحمى ، خاف الناس على انفسهم ، وخشوا كبسة البوليس لمنازلهم ، فحمل فياض الكراريس ودفنها في الحديقة ، وجاء المطر فبللها ، وكان له ، من ثم ، شغل شاغل ، هو ان يصالح هذه الكراريس في الخفاء ويحفظها حتى يعود خليل فيسلمه اياها .

وعاد خليل بعد عام ونصف من حلب .. عاد اسطورة اين منها اسطورة الفساتين الحمر « والمغارة والشمعة » و « السنديكاتو » التي لايفهمها احد .. صار له شاربان ، وعلى يده وشم ، وفي نظراته رجولة ، وعلى لسانه كلمة جديدة :

ـ الاشتراكية !

فقال الناس بعضهم لبعض :

ـ وايش هي الاشتراكية ؟

ـ من يدري !

وتذكر فياض كلمة خليل ، وقال بصفته ابن مدرسة:

ـ هذه فلسفة !

ـ وايش هي الفلسفة ! ؟

فلم ينبس بحرف .

ولما استعصى الجواب ، وكانوا يجلسون تحت التوتة ، قال رجل يعطي لحديثه صفة الحكمة :

ـ سبحان الذي يفتح قلوب الناس .. خليل كان مثلنا ، وبعد سنة ونصف في حبس حلب صار فيلسوف . .

فقال رجل آخر ، بنبرة تعظيم :

ـ .. وتعلم القراءة والكتابة !.

على ان الاعجاب بخليل ، لم يمنع الناس من تحاشيه ، لأنه مشموس ، وبسبب حاجتهم اليه ، لكتابة الرسائل أو قيد الحسابات والديون، عادوا يختلطون به ، ثم انكسر ، شيئاً فشيئاً ، جو الرهبة. زال الحذر والتردد ، وازداد ، في المقابل ، انتشار الكلمات الصعبة ، وكان اصعبها، على الاطلاق – حتى في نظر فياض – كلمة البروليتاريا، فقال خليل محاولا ايضاحها :

ـ تعني الحكام في بلاد المسكوب .

ـ ولماذا في بلاد المسكوب ياخليل ؟

ـ لأن العمال والفلاحين يحكمون هناك .. المعامل لهم ، والأرض لهم .

ـ يارب !.

ـ صدقوني .

ـ ومتى يصير عندنا مثلهم ؟

ـ حتى ينكسر فرانكو .

ـ ومن هو فرنكو ؟

ـ رئيس الفاشيست في اسبانيا .

ـ ومن هم الفاشيست ؟

ففكر خليل وقال :

ـ الفاشيست جماعة فرانكو .

فقال رجل للحاضرين :

ـ هل فهمتم شيئاً ؟

واجابوا بصوت واحد :

ـ لا والله ..

وامتعض خليل لهذا الجواب ، ومال الى شتمهم ، لكنه لاذ بالصمت ، وأرسل هذه الأمنية في ذات نفسه : « لو بقيت مدة اطول في حبس حلب ؟. »

كان يحسب ان سجنه هذا ، هو الأول والأخير ، وانه لن

يدخل السجن حتى تتحقق الاشتراكية بعد انكسار فرانكو ، ثم جاءت الأيام تصحح هذا الخطأ .

اصبح يدخـل السجن في كل وقت ، وصار الاشتراك في المظاهرات والاضرابات جزءاً من حياته، وقد جرح في مظاهرة ضد تتريك اللواء، وفي النهاية دخلت تركيا اسكندرون فهاجر مع عائلته الى بيروت ، وهناك تزوج، وصار له اولاد ، وصارت أمه عجوزاً، وأبوه شيخاً ، وصار هو كهلا ، وظلت صورته منطبعـــة في ذهن فيـاض على نحو ما كانت عليه في لوحـة « المغارة والشمعة والعمال الذين يقرؤون الكراريس الممنوعة في الجبل » . وقد هتف ، وهو يتذكر كل ذلك: « ايه خليل ، يامعلمي ، ألم تتعب بعد ؟.»

— ٨ —

رجـع خليل باكراً الليلة ، وقد حزر فياض ان وراء عودته المبكرة خبراً ، وبعد العشاء سأله عن نتيجة اجتماع عمـال الهاتف ، فقـال :

ـ لم يتقرر شيء . .

ـ وما رأيك أنت ؟

ـ الموقف دقيق . . ولكن العمال يئسوا . .

وأضاف في نبرة شكاة واحتجاج :

ـ أربع ليرات في اليوم ، وعطلة الأحد والأعياد محسومة، ولا مأذونية او طبابة .. ومنذ عام وهم يماطلون.. يرفضون تثبيتنا.. يخدعوننا .. يقولون : غداً ، وبعد غد ، وبعد شهر .. والنتيجة !؟

ـ الاضراب ؟

ـ احسب انهذا سيكون،ولكن ليس الآن..ليس الآن.. لم نستنفد وسائلنا بعد .

وأضاف وهو يمهد لخبره :

ـ على كل ستقرأ ما يجد في الصحف .

ـ ولماذا في الصحف ؟

ـ لأنك ستغادرنا غداً .

قالها وحدق فيه ليرى وقع المفاجأة ، ثم اضاف :

ـ ابلغت الاصدقاء انـــك في وضع صعب ، وان البيت مراقب ، فاهتموا للأمر ، وأرادوا تـأمين مكان آخر لك ، فقلت انه يفضل أن يعمل ..

بان الارتياح في وجه فياض وسأل :

ـ وماذا قالوا ؟

ـ دهشوا ، ولكني أكدت لهم رغبتك وتصميمك وضرورة التجربـة .

ـ وما هو العمل ؟

ـ ما رأيك بكاتب في أحد المطاعم ؟

ـ ولماذا كاتب ؟ أفضل أن أكون مستخدماً عادياً .. هذا افضل في التمويه .

ـ كاتب من قبيل التغطية .. أما في الواقع فانك ستعيش في المطعم .. تأكل وتنام أيضاً .

ـ أفضل أن أكون مستخدماً ، ذلك اضمن للسلامة .

ـ تستطيع أن تتفق مع المسؤول هناك .. وهو صديق كما قيل لي .. قم الى النوم ، وغدا صباحاً أرافقك .

* * *

في الصباح رافقه الى ساحة الدباس ، وقال له :

ـ قف هنا يا فياض . لا تتحرك من مكانك ، وسيأتي شخص ويسألك « انت من عند خليل ؟ » فقل : نعم ، واسمي ميشيل ، وهو يعرف كل شيء .

تركه ومضى دون أن يصافحه أو يلتفت الى وراء .. بدا كأنه مارس مثل هذه المواعيد كثيراً ، فقال فياض في نفسه « لكم تبدو الاشياء طبيعية بالنسبة اليه ! » . وتابعه وهو يدور بين السيارات المنثالة الى ساحة البرج في خطوط طويلة ملونة وغير

مستقيمة . حتى اذا غاب تذكر انـه لم يسأله عن شكل الشخص ، وما اذا كان يعرفه ، واستنتج: « لو كان ذلك ضروريا لقاله بنفسه ».

جعل ينتظر متلهيا بالتفرج على انماط الناس المتقاطرين على الساحة من كل المنافذ المؤدية اليها . كانوا يأتون مشيا ويقفزون من الباصات والتاكسي والترام ، ويتراكضون في اتجاهات شتى ، بعضهم الى اعمـالهم ، وبعضهم الى وسائط نقل غـــير التي جاؤوا بها .

وكانت الساحة كقرية نمل بشري ، والضجيـج من حوله على اشده ، والازياء تتكاثر وتتباين .. الطربوش والقبعة والملاية اللف والديكولتي . فقال في نفسه : « باريس لاتسبق بيروت في الموضة » وتساءل : « أيكون الشخص القادم الي بطربوش ام قبعة ام حاسر الرأس ؟ وكيف سيعرفني وسط هذا الخليط من الواقفين والدارجـين على الرصيف ؟ »

ود لو كان في غير هذا الموقف ليستمتع بهذا المعرض ، وتمنى لو كان حرا لينحدر الى ساحة البرج، ويتوقف امام الواجهات.. وعجب لماذا كان في الماضي يسير مسرعا ولايتوقف امام الواجهات، ولمـاذا لم يكن يسير على الاوصفة متمهلا ، مدققا ، متأملا كل شيء بمثل الفضول الذي هو عليه الآن .

ابصر شخصـا سوريا فادار وجهه ، خيل اليه انه من دمشق

وانه يعرفه ، ثم رأى شخصاً لبنانياً من اصحابه فتظاهر بانه يقرأ الاعلان الملون الملصوق امامـــه على عمود الكهرباء ، حتى اذا مر الرجل عاد الى وقفته السابقة ، وفكر : « متى يأتي الشخص الموعود ولماذا لم اسأل خليل عن الموعد بالضبط ؟ »

قام في ذهنه ان هذا الشخص سيأتي فوراً ، وحسب أولا انه سيكون في انتظاره ، ولم يسأل خليل خجـلا ، وها قد مضت عشرون دقيقة ولم يصل ، فماذا لو نسي الموعد ، قال في نفسه : « المكلفون بمواعيد من هذا النوع لا ينسونها » لكنه عاد فقـال : « الانسان عرضة للنسيان » واردف : « الغائب عـذره معه .. وارجو الا يكون قد وقع له ما اخره » .

وكراكب الطائرة لاول مرة ، اخذ مرور الوقت يبعث في نفسه الطمأنينة ، لكنه لم يستطع ، برغم يقظته ، ان يمنع ذهنه من الشرود في أثر هذه أو تلك .. تمثل يديه على خصر ، واحس بالظمأ ورفع رأسه الى فوق .. كانت غيوم بينها فجوات زرق .. واشتهى ان تمطر ، ان يعصف شيء ما بهذا الكون ، ان يكون في غابة ، يسير ويسير ويقتات من الثمار البرية ، ورنا الى البحر ، كم يكون جميلا لو سار حافيـــاً ، كمتشرد حقيقي ، فوق الرمال ، وماذا لو ركض والقى نفسه في الماء وبقي في احضانـه طويلا ؟ آه لو ينسى كل شيء ، ليوم واحد على الأقل ... تمتم حاقداً « الدنيـا واسعة

فلماذا تضيق في وجوه امثالي ؟ » ثم صر باسنانه متوعـــداً شيئاً غير منظور .

توقف اتوبيس على مقربة منه ونزل جميـع من فيه . كانت تلك هي المحطة الاخيرة ، فقدر ان الشخص سيأتي من هذا الاتجاه ، وراح يرصد الاتوبيسات .. كان يبحث عنهـا من بعيد ، وتتعلق عيناه بها وهي تتقدم ، وما ان يقف اتوبيس حتى يقول هذا ، وينزل الركاب ولا احد يتقدم منه ، فتحز اعصابه وتتكهرب ، ويلاحظ ذلك فيعمد الى الضغط الداخلي ، ويبتسم في سـره ويقول : « هل هذه هي المصاعب الصغيرة التي حدثني عنها خليل ؟»

تتابعت الاوتوبيسات .. تـأتي ، وتقف ، وتمضي ، ونظر في ساعته : « ساعة كاملة ولم يأت احد ، فمـاذا افعل ؟ ابقى ام أعود الى البيت ؟ خليل قال لا تتحرك .. وانا لم اتحرك .. منـذ ساعة وانا مصلوب على خشبة الانتظار ، فماذا يعني هذا ؟ وهل يقيس خليل الناس كلهم بنفسه هو الذي يستطيـع ان يقف وقفتي هذه على رجل واحدة من الصباح الى المساء ؟ »

في السماء ضاقت الرقع الزرقاء ، وامامه نبت فجأة رجل ، فهتف في سره : هذا هو ! وقال الرجل : « معك ولاعة ؟ » ورأى السيكارة في فمه فهز رأسه نفياً ، واشاح بوجهه ليصرفه ، بيد ان الرجل صعد الى الرصيف ووقف قربه ، فتزحزح فياض عن مكانه

قليلا ، ليراقب الرجـــل ، وقال في نفسه مهتاجاً « ماذا يريد ابن الكلب ؟ » وسرعان ما جاء شخص آخر ، وذهب الاثنان ، فارتاح فياض وقال : « هذه هي المواعيد المضبوطة » ونظر في ساعته للمرة الخامسة ونفخ ، واستند على عمود الكهرباء .

وقع اصطدام في الطرف المقابل للساحة فهرع الناس وتوقف السير وتعرقل ، وجاءت على الاثر سيارة الشرطة وهي ترسل زعيقاً حاداً .. وراحت حبال السيارات تتشربك وتتعقـــد ، وأصبح المرور متعذراً ، فطفق المارة يدورون حول السيارات ، ويتخطونها ، وتوقف الأوتوبيس على مرمى النظر منه فتعلقت انظاره به ، وانطلقت جوقة زمامير السيارات ، والشتائم ، وتعليقات الناس ، وتحرك كل من حوله ، وزحمه المارة فنزل عن الرصيف ، وصعد اليه ، والتحمت الغيوم تماماً في السماء ، ولكن المطر لم ينزل ، والغابة بعيدة والبحر بعيد ، وهو في قلب المدينة ، وعلى موعـد مع مجهول ، وامواج السيارات تتدافع حتى اصبحت تلامس حافة الرصيف .

انحلت عقدة السير بعد قليل ، وشرعت الخطوط تستقيم ، والساحة تفرغ ، ووصل ثلاثة اوتوبيسات ، وبدأ الركاب يقذفون بأنفسهم ، وهو يراقبهم ، ومشى رجل باتجاهه ، ونظر اليه ، واقترب حتى داناه ، ثم تجاوزه ومضى ، فتركه وراح ينظر الى بقيـــة الركاب ، لكن صوتا نسائياً جاءه من الجهة الأخرى :

ـ صباح الخير استاذ !

التفت الى مصدر الصوت ، فرأى فتـاة سمراء ، نحيلة ، تقف الى يمينه وبيدها حزمة ، فتمتم بالتحية دون وعي ، وتفرس فيها متسـائلا : « من تكون » ؟ فقالت الفتاة :

ـ انت من عند خليل ؟

ـ نعم واسمي ميشيل .

فابتسمت له وقالت :

ـ المعذرة .. بيتي بعيـــد ، والمواصلات صعبة .. تأخرت قليلا .

سار الى جانبها وهو يقول :

ـ لا يهم ..

ـ تضايقت ؟

ـ ابداً (واحس بالخجل)

ـ الحق علي . وابتسمت ، فعاد يقول :

ـ لا يهم .. شكراً على كل حال .

وقادته باتجاه البرج ثم باب ادريس ، وانقشع الغيم قليلا في السماء ، ونظر الى الفتاة وقال في نفسه : « تعلم الصبر يا فياض... كن هادئاً مثل هذه الحسناء ! » .

* * *

في « مطعم الجبل » عرفته على الميتر وانصرفت .

– انت ميشيل ؟

– نعم ..

فابتسم الميتر مشجعاً ، ودعاه الى مكتبه الأنيق وأغلق الباب :

– انا صديق ، وقد كلفوني بمساعدتك ، فماذا بوسعي ان أعمل لك ؟ ما العمل الذي تستطيعه ، وما هي اللغات الأجنبية التي تعرفها ؟

شرد فياض عن الجواب مشغولاً بخاطر ملحاح سيطر عليه : كيف يكون امثال هذا الميتر من الأصدقاء ؟ وامام البسمة الودية المشجعة ، والانتظار المتأني ، افلت فياض من إلحاح الخاطر الوافد، ورد بلهجة يمتزج فيها الرجاء بالرغبة في الاقناع :

– لا أعرف أية لغة .. اريد عملا عادياً ، في المطبخ مثلا .

فتل « الميتر »، خريج معهد الفنادق والمطاعم في باريس ، شاربه الاشقر الصغير ، وقد فطن فوراً الى ما يريد فياض فقال :

– العمل في المطبخ صعب .

– دعني أجرب ..

– ولا يوجد فيه الا عمل مارماتون .

– يوافقني .

– ولكن اتعرف ماذا يعني ؟

– أعرف .

ازدادت البسمة الودية انتشاراً ، وتحولت الى تهكم خفيف في النظرات . واخيراً قال الميتر :

– ما أظنك تعرف .

– بلى ، سبق لي ان عملت في المطبخ ..

قالها خائفاً ان يسأله أين و كيف ، وتحاشى النظر اليه ايغلق باب الاستيضاحات ، فقال الميتر بحسم :

– كما تريد .

– ٩ –

منـــذ وصوله الى مصلحة الهاتف قال خليل للعمال الذين اجتمعوا بــه :

– رأيتهم حول البناية ... لسوف يراقبوننا ، وهذا طبيعي ..

– قد يعتقلون اعضاء اللجنة .

– لن يعرفوهم .. وأنا استبعـــد الاعتقال الآن .. الامر لا يتعدى المراقبة والازعاج .

– و كيف نجتمع ؟

- كما كنا نجتمع .

فقال رئيس اللجنة :

- بيتي مراقب .

- تعالوا الى بيتي .. نستطيع الاجتماع في بيتي (وبعد وقفة) لا .. الأفضل أن نلتقي خلال العمل ، وفي حالات الضرورة نجتمع في اتحاد النقابات .. نحن نقابيون وليس لدينا أشياء سرية .

وقال في نفسه : « بلى . لدينا اعمالنا التنظيمية ، وهذه يجب أن تظل سرية » والتفت الى الداخل وأسر : « انت يا صاحب العين الحولاء ، يا زميلي في العمل ، يحسن ألا تطلع عليها » .

تفرق اصحابه كل الى عمله .. ورفع هو جريدة الصباح الى مستوى عينيه وراح يقرأ دون أن تستغرقه الاخبار المثيرة ، ثم لم يلبث ان نهض ومضى الى النافذة في الطابق الرابع ، ووقف بشكل موارب وعينه على باب البناية . وعبر الطريق كان ظل يرتسم على الاسفلت ، وفي الزاوية ، عند رأس المنعطف ، كان ظـــل آخر لرجل الامن ، والتقى الظلان ، وغابا في المنعطف ، ثم افترقا وعاد الظل الاول يعبر الطريق عائداً الى مبنى الهاتف ، فعاد خليل الى مجلسه ، ورفع الجريدة الى عينيه وقال في نفسه : « يتسقطون اخبارنا .. فهل كانت العين الحولاء هذه تراقبني من الصباح ؟ »

ودخل الرجل الأحول وقال لخليل :

- اشتريت قهوة طازة .

« وبعث « قهوة طازة » لابأس .. سنعطيك مقادير منها للتضليـــل .. ستظل عينا لهم وستارة لنا .. مؤسف . عامل وعدو . كم من الناس أعداء ؟ فقراء ضد الفقراء ، وعمـــال ضد العمال .. مضللون ؟ نعم ، ولكن بعضهم يعمل عن عمد .. يهوذا لايزال حيا بيننا . »

- احسنت « القهوة الطازة » لذيذة .

وأعاد رفع الجريدة الى عينيه وراح يراقبه « ينبغي تحذير أعضاء اللجنة منه » قلب الصفحة فطالعته المحليات . قرأ ما هو مكتوب بخط كبير : « تحريض خارجي لاحداث البلبلة والتخريب » وتحته مباشرة .. « اعتقال بعض السوريين وتسليمهم الى حكومتهم والبحث جار عن آخرين . وقرأ في المتن : « عمال الهاتف يهددون بالاضراب ، الدوائر الرسمية تراقب محرضين من الخارج اندسوا بين العمال » .

قذارة ! طوى الصحيفة وفرك عينيه : « أرجو ان يكون فياض قد وصل الى مكان عمله بسلام » . وأضاف وهو يتابع حركات زميله صاحب العين الحولاء : « لو أوقفوه لكان حدثا مهما بالنسبة اليهم .. يستغلونه للدعاية : « الكاتب الفلاني يعتقل في لبنان ! » ولا يهم ماذا كان يقوم بنشاط أم لا ، المهم اعتقال تقدمي لاثبات النشاط الخارجي ، أما الرجعي فيسرح ويمرح على هواه .. القطة ، برغم ما هو شائع ، لاتأكل صغارها ، انها ذكية بما فيه الكفاية » .

نهض الى عمله وهو يقول : « ونحن اذكياء أيضاً ، وفياض افلت من الفخ ، لقد ذهب ليعمل . » وتابع بنوع من التأكيد الصارم على الضرورة :

- نعم ذهب ليعمل .. ليدخل التجربة كما أوصيته .

— ١٠ —

وهل تعرف التجربة التي أوصيته بها ياخليـــل ؟ انظر : المدرس ، الكاتب ، الابن المدلل لعجوز طيبة وبجار عتيق ، يعمل مارماتونا الآن .. انه في المطبخ ، حيث اسلمـــه الميتر لرئيس الطباخين . ولم يسأله احد عن هويته وآرائه ، لانهم يحتاجون هنا الى العمل لا الى الآراء .

ولقد قبل فياض عمل« المارماتون » دون أن يعرف أي بلاء هو ، وحين توالت عليه ، ظهرا ومساء ، اكداس الاطباق وركام الملاعق والشوكات والسكاكين ، وغرقت يداه ، حتى الكوعين ، بالدهن والزيت ، وخرشت انفه رائحة المحلول الخاص بغسل هذه الأدوات ، ايقن أن غسل الأطباق في مطعم كهذا ، عملية مختلفة تماماً عن البيت .. هنا العملية شبه اوتوماتيكية ، والانسان هو الآلة العصرية المستخدمة ... الساعدان ينقلبان الى زنديين آليين رشيقين ، والانامل الى ملاقط سريعة ودقيقة ، والظهر يتقوس في وقفة صنمية .

كان عليه ان يتعلم مهنة الجلي بجد وانتباه ، حتى يتقن الخفة

البهلوانية في اليدين والمطاوعة اللازمة في الاصابع ، فصار مع الأيام يتناول حزمة من الملاعق والسكاكين ، ويضع منشفة على ركبته ، وتبدأ هذه الادوات بالتساقط في الطست الذي تحت الركبة وكأنها طلقات متتابعة ...

ومع هذا كانت الأدوات واطباق الطعام تتراكم على المجلى. كانت اكوامها كجبال صغيرة ، مشوهة ومقرفة ، لا طاقة له على رفعها ، ولا قدرة ولا قابلية على غسلها ، فاذا تقدم الليل حاول بشيء من التأوه ان ينصب ظهره . ومهما بذل من حركة او جهد ، يظل عموده الفقري يابسا، ونخرز الالم يحفر في فقراته ، حتى ليتمنى أن يجد من يدوس عليها بقدم ثقيلة . وبعد ان يضرب صلبه بقبضته ضربات مريحة ، ويتنفس بعمق ، يعاود حني ظهره ، ويروح ينقل جبل الصحون ، بهمة العجوز الذي راهن جيرانه على نقل جبل الحجارة .. واذ يتمثل ذاك العجوز كان يبتسم ، ويقول في نفسه: « جبل الحجارة ينقص ولا يزيد ، أما هذا ، جبل الصحون !؟ » غير انه في الساعات الأولى من الصباح ، حين تتوقف روافد النبع ، وينقطع توارد الاطباق ، كان يتلمظ شعور الراحة المقبلة ، ويخرج منتصراً من معركة جبله الخاص ، ويغـــدو عناق النوم لديه حلوا كعناق الجميلة التي يحلم بها في ليالي الحرمان .

ولم يتوصل برغم هـــذا الكد الى ارضاء صاحبة المطعم ،

فاصدرت اوامرها باخراجه من المطبخ ليستقبل الزبائن على الباب . أُلبس البدلة الخاصة بالمطاعم الراقية ، ووضعت القبعة المقصبة على رأسه ، وصار ينحني للزبائن ، مطمئنا الى ان احدا لايعرفه بهذا الزي ، وواثقاً أن احداً لن يطاله كذلك .. ثم لم يلبث الميتر ان نقله الى الداخل ، فصار يقدم الطلبات الخصوصية ، ويتعرف اكثر فاكثر على اقسام المطعم وخفاياه .

بدأ يكتشف الوجه الآخر للحياة والحقيقة في هذا العالم الصغير والرهيب معاً .. عرف ان صاحب المطعم وجيه كبير من جبل لبنان ، وان امرأته هي المالكة الفعلية ، وهي التي تدير المطعم وفروعه ، وتعقد الصفقات وتصدر الاوامر .. وكانت اوامرها صارمة ، ولديها رجال مخصوصون للضرب والقتل ، ولهؤلاء مكان خاص في المطعم ، ولهم طاولة محجوزة ، ومسدسات وسكاكين وسيارات أيضاً .

كذلك كان لفياض وزملائه مهجعهم الخاص ، فورشة المطعم الكبيرة مجهزة ، في أقبيتها وملاحقها ، بكل مايلزم «لمؤسسة» متعددة الخدمات . وفي مهجع المستخدمين ، قبيل النوم أو في الصباح ، يتحدث كل مستخدم عن قسمه حديثا يثير فياض ويبهره . وكان حديث الجنس والقمار الاكثر اثارة ، وحين يروح احدهم يروي ماشاهده وما سمعه من حركات البنات وأصواتهن وأوضاعهن ،

يتشنج زملاؤه ويهمهمون كحيوانات مستثارة ، ويتظاهر فياض بالنوم وهو مرهف الاذنين كآلة تسجيل شديدة الحساسية .

ومع الأيام ، وضعته طبيعة العمل امام اللوحات الحية التي كان يتصورها عن طريق السمع . وقد شهد ، ذات مساء ، اول معركة بين الزبائن .. كانوا عشرة او يزيدون ، وفي شجار نشب دون توقع ، حطم المتشاجرون الأطباق والاقداح وزجاجات المشروب وأتلفوا أشياء ثمينة ، دهش فياض لرؤيتها محطمة على هذا النحو الاخرق. وازدادت دهشته حين ظلت سيدة المطعم لا مبالية ، وظل رجالها الذين تعلفهم لهذه المناسبات بمعزل عن المعركة التي كانوا بحاجة اليها لترييض أجسامهم . وكان الميتر من جهته يراقبهم بلا مبالاة معلمته ذاتها ، مستنداً الى الجدار كأنه يشهد عراكاً في فيلم . وقد قال له فيما بعد ان هذه المعارك تتكرر هنا دائماً ، ونصحه بعدم التدخل فيها .

— والخسارة ؟

— لا توجد خسارة .. لا شيء يخسر عندنا .. دعهم يحطمون ما يريدون ، وفي اليوم التالي نقدم فاتورة الى الزعيم الذين هم رجاله ، فاذا لم يدفع حصّلنا بطريقتنا المضمونة .

واكمل الميتر ابتسامته قائلا بلهجة وثوق وتأكيد :

— ولكن الزعماء يدفعون .. عن طيب خاطر يدفعون ، لهم مصالح مثلنا ، ولذلك يدفعون .

وقال له ، في مناسبة أخرى :

– نحن لانهتم هنا بالزبائن الذين يتناولون وجباتهم على طريقة السياح العجائز .. زبوننا المفضل هو الذي ينزل الى تحت او يطلع الى فوق .

تحت .. وفوق ؟ إذن المطعم لاقيمة له .. المطعم ليس إلا واجهة جميلة ومثيرة للشهية ، وهي من النظافة بحيث لاتعطي العابر أية شكوك عن أدرانها الداخلية ، وكان على فياض ان يقضي زمناً حتى يتعرف بنفسه الى مايجري تحت وما يجري فوق ..

كانت المقمرة في الطابق السفلي والبنات في الطابق العلوي ، وكان الأغنياء من أصحاب الإقطاع ورأس المال ومالكي البترول ينزلون الى تحت ويطلعون الى فوق .. و كثيراً ما كان أحدهم يدخل وجيوبه ملأى ، وبعد بضعة أيام يقدمون له بعض الوجبات مجاناً ، بانتظار المال الذي سيسحبه او يطلبه تلغرافياً .. فاذا لم يصل ، أو إذا عربد واحتج ، صدرت الأوامر الى الرجال فألقوه خارجاً ، بنفس السهولة التي يلقي بها المطعم نفاياته آخر الليل .

وكان يخيل الى فياض ، كلما أبصر زبوناً يفتح فمه ، انه يرى زبوناً آخر يفرغ جيوبه ، وزبوناً ثالثاً يخلع بنطاله ، طالما ان آلة العمل في الأقسام الثلاثة ، تدور في وقت واحد ، وبنظام واحد .

وكان قسم المطعم ، الذي يعمل فيه فياض ، لايثير اهتمام أحد ،

باعتباره الوجه العلني ، الميت . فاذا طلب اليه أن يصعد الى فوق ، او يهبط الى تحت ، أخذته رعشة خفيفة تنتظم جسمه كله ، فلا يدري أهي فواق اشمئزاز أم يقظة استثارة .

كان يسرع في قضاء ذلك العمل دون ان يأبه للموائد الخضراء والأجسام العارية . وتصرفه على هذا النحو لم يكن ناجحاً كل مرة . كانت قدماه ، أحياناً ، تنغرزان في الأرض ، بفعل جذب من مشهد عنيف لمقامر ، أو منظر عري لفتاة .. عندئذ كانت مشاعره الساكنة نتيجة خداع متبادل ، تتنبه ، وتعطي ردود فعل تظهر في حركاته خلال اليوم كله .

وذات يوم رأى على طاولة « البكرة » مقامراً أغلق الطاولة وتحدى هيبة المقمرة وحرمة السيدة صاحبة المطعم . كان رجلاً ربعاً ، صموتاً ، ناتىء عظام الوجنتين ، قاسي الملامح كأنه أضاع هدوءه الانساني منذ زمن بعيد ... كان يلعب واقفاً ولا يدري فياض لماذا .. وقد بدأ اللعب بألف ليرة ، فلما سحب ورقته الثانية جعلها ، على قفا الأولى ، ورفعهما حتى مستوى عينيه ، وراح يفرزهما ببطء وعصبية .. وفي اللحظة التي بلغ فيها توتره أقصاه ، ضرب وجه الطاولة بورقتي اللعب وصاح بانفعال :

ـ ثمانية !

فقال البانكير : تربح .

وقال المقامر بهدوء يشف عن حمى داخلية .

ـ بالألفين إذن !

وربح ، فقال البانكير : عوافي !

وعاد هو الى هدوئه المنفعل ، فقال بنفس كلماته القاسية والحاسمة :

ـ بالأربعة آلاف !.

وربح كذلك .. وتوقف البانكير عن التعليق ، وسمعت وسط الصمت نبرات المقامر ذاتها :

ـ بالثمانية آلاف !!.

وربح أيضاً ..

كان يكرر سحب الورق، وفرزه ، وقذفه على المائدة، بنفس الطريقة العنيفة ، وبنفس الطريقة يضرب بحاصل الجمع كله .. فلما ارتفع المبلغ الى اثنين وثلاثين ألفاً ، بدا ان المائدة الخضراء تعطي وميضاً أحمر عاكسة الشرارات الحمر المتساقطة عليها من أعين اللاعبين والمتفرجين على السواء .. أما هو فقد توترت عضلات وجهه ، وشحب لونه تماماً ، واتقدت عيناه فصاح وهو يضع يده على كومة الأوراق النقدية :

ـ بالكل !!!

علا اللغط فوق همهمة اللاعبين العاجزة، وتحولت نظراتهم من

التوقد الحاقد الى الالتماع المتقطع بومضات كابية خائبة وحاسدة ، بينما صاح مقامر عتيق خسر كل مامعه وخرج لتوه من اللعبة :

ـ عظيم ! هذا هو اللعب !

وعاد المقـــامر يقول وكأنه مقاتل استبد به التعطش الى الانتقام :

ـ بالكل !

لزم اللاعبون الصمت .. كان المبلغ كبيراً ، لايملكون جميعهم مايماثله .. فقال واحد منهم :

ـ إذا ضربت بالنصف رأيتك .

فأجابه :

ـ بالكل او لاشيء .

قال آخر :

ـ هذه خمسة آلاف مني .

فرد بجسمه المعهود :

ـ قلت لـكم بالكل ..

وتململ اللاعبون .. وتمدد الصمت والتوتر ، وقال لاعب :

ـ وهذه ثلاثة آلاف مني .

ـ ومني ألف ..

فند عن المقامر صوت أصم :

ـ قلت لـكم بالاثنين وثلاثين ألفاً !

فقال البانكير :

- لاأحد يراك بهذا المبلغ .

- وأنا لاأضرب إلا به .

فقال البانكير بلهجة فهمها الجميع :

- إذن نسكر الطاولة .

وفيما كان المقامر يدير في الجالسين والواقفين عيوناً تفصح عن سادية ذاتية ، وقد هم ان يجمع بيديه الصفراوين المرتعشتين ماعلى الطاولة من مال ، نزلت سيدة المطعم وصاحت من بعيد :

- قف ، لاتجمع المال ..

قالتها بنبرة آمرة لاتدع مجالاً للتراجع ، وقذفت وجه الطاولة بحزمة كبيرة من الأوراق النقدية .

غدا الموقف درامياً من الدرجة الأولى .. كان المقامر ، الذي أوشك ان ينصرف غانماً ، قاهراً السفلة الذين طالما قهروه ، قد أصبح مستطيلاً من قش على شكل إنسان ..

وكانت النار الكامنة في ذات القش قد بلغت الدرجة التي تحقق فيها وجودها او تختفي .. والكلمة التي ستخرج من فمه هي الحد بين الحالين ، وقد زاد التوتر والصمت من قابلية الاشتعال ، وتركزت النظرات الفضولية على وجه المستطيل القشي .

وبذكاء السيدة المدربة على ترويض الوحوش المنفلتة ، غرزت نظراتها في عينيه ، وقالت مستدرجة ومستفزة :

ـ آخـــذ ورقاً ؟

جـاءه صوتها من بعيداً رغم القرب .. كان بمثابـة الشحذة الحادة لصوانتين ناريتين ، وقـد شكل الصمت العميق ، الخانق ، القابلية المطلوبة للقش ، فازداد شحوب الرجل حتى غدا امتقاعاً ، وهاجت أعصابه وأطماعه ، ولاحت عليه ارتعادة حاول إخفاءهـا بالاستناد الى الكرسي أمامه .

كان السؤال لا يزال معلقاً ، يتلوى كأفعى مربوطـة من ذنبها في السقف . وكانت السيدة تنتظر ، والمقـامرون ينتظرون ، والقاعة كلها تنتظر .. لم يعد المال موضوع المقامرة . بل السمعـة الشخصية لمقامر عريق، وسيدة تدير مقمرة بأعصاب رجل .. يربح الأربعة والستين الفاً ، أو يخرج صفر اليدين .. يربح المـــال والسمعـة ، أو يخرج بنصف المال وبدون سمعة .. خسر وجاء ليسترد خسارته ..وها قد استردها .. هاهي على المائدة ..فريسته بين فكيه، وهاهو حيوان آخر ، جميـــل ولكنه مفترس ، يقول له : خذني مع الفريسة او اتركها لي .. ضع ذنبك بين رجليك، ككلب خائف مهزوم ، واهرب بغنيمتك ،او ضاعفها واذهب مشرع الذنب، فخوراً بصيدك ، تياها كما يذهب الذكر المنتصر الى أنثاه .

تلفت المقامر حوله .. يا لكثرة العيون وقسوتها ونفاد الصبر البادي فيها !. لو لم تكن هذه العيون، لوسعـــه ان يفكر على نحو

أحداً .. ولو لم تكن التي أمامه امرأة لهان الانسحاب. وقد يكون الطمع ، او عدم القدرة على التوقف بعد الاندفاع ، هو الذي حدد كلمته النهائية .

نظر اليها للمرة الاخيرة بمقت ، بحقد يدفع الى الإجرام ، وصر بأسنانه ، وبحركة حاسمة من يده وصوت محموم قال :

– خذي !

وأخذت السيدة ورقة ، وأخذ أخرى ، وقبل أن يفتح ورقته الثانية كانت هي قد القت ورقتها على الطاولة وصاحت :

– تسعة !

وقف الجميع باستثناء « البانكير » .. وجمدت الورقتان بيد المقامر .. كان ابطأ منها في معرفة ورقته الثانية ، ولم يعد من أمل الا في تسعة مقابلة ، فراح يفرز ورقتيه ببطء أشد ، برعدة ظاهرة في يديه ، ثم تراخت عضلاته ، وتراجع الى وراء كمن تلقى طعنة قاتلة .. مد يده الى جيبه يريد أن ينهي حياته .. لكن رجال السيدة المدربين كانوا فطنين وسريعين بما فيه الكفاية ، فأمسكوا يده ، وانتزعوا المسدس منها ، وقال رئيسهم مزمجراً ، ليسمعه الجميع :

– عندنا يلعب الناس ولاينتحرون. .أمامك«الروشة» !(١)

وتقدمت السيدة منه ، مغضبة ومنهوكة ، كأنها تخرج من معركة ، ودوت فجأة صفعة شديدة ، وسمع صوتها الآمر يقول :

(١) صخرة الانتحار في بيروت .

– جروه الى الخارج .. لن أسمح لأحد بتسكير طاولة عنـــدي .

أصدرت هـذا الأمر ، وصعدت الى مكتبها حتى دون أن تجمع المال الذي على المائدة ، تاركة هذه المهمة لسواها .

أما الحادث الآخر ، الذي فوق ، فقد بعث في فياض شعوراً أقل عنفاً ولكن أكثر إثارة . وقع في الطابق العلوي . هنـا العطور والخمور والأجساد هي العناصر الأساسية ، ليس في صنع الجو المثير فقط ، بل أيضاً في تشكيل الوجبة الشهية لمخلوق محروم مثله . كان شاب يجالس فتاة جميلة ، اتقنت ، بالاستعداد والتمرين ، كيف تجعل الرجال يعودون الى طعامها ما ان يـذوقوا الوجبة الاولى . ولئن كان المطعم يتساهل في تقديم اطباق مجانية في المرحلة الأخيرة ، عند الافلاس ، فهنا يجري العكس ، يقدم الطبق المجاني في البدء ، ليكون طعماً للسمكة المطلوبـة . وكان الرجـل ، برغم مظهره الخارجي الوسيم ، قد توقف منذ فترة عن ان يكون الصيد المرغوب .

صار هيكلا حسكياً يضايق السنارة في عملها ، بتقديمه التحذير الحي للاسماك الاخرى . وكانت الفتاة التي علموها كيف ترسم خطاً فاصلا بين عواطفها ومصالح المطعم ، مكلفة بحـذف اسم الرجل من قائمة المعجبين . ستحذفه عن طريق اقناعه ، ولو بالأسلوب الأكثر فظاظة ، انه لم يعد صالحاً او مقبولا . ولا شك ان الرجل لا حظ ذلك ،

وربما اقتنع به ، لكنه كان يأمل أن يوقظ في أعماق المرأة ذكريات الساعات الحلوة ، والكرم الذي سلف، والمودات التي سبقت . وقد تكون الفتاة ذاكرة شيئاً من ذلك ، فهي ، بعـــد ، انسانة ، ولكن المطعم نسي ، واذن فالمطلوب منها أن تنسى ، وان تصرفه عنها بالرضى او بالغضب .

شربت الكأس الاولى ، وتمنعت قليلا في الثانية ، ولكنها، تحت نظرة المسؤول عن الطـــابق ، رفضت الكأس الثالثـة .. ونهضت وهي تتثنى وتتثاءب ، مظهرة الملل والرغبة في الانصراف.

قبض الرجل على معصمها وقال لها برفق :

– اجلسي !

فقالت وهي تتثاءب مظهرة ابطيها عن عمد :

– لا أستطيـع ، دعني .

– لا أدعك حتى تأخذي كأساً اخرى .

– ولا قطرة .. دعني (وسحبت يدها جادة)

– لدي معك حديث .

– قله على الواقف .

– ألم اعد استحق خمس دقائق من وقتك ؟

– بلى (وهي ضاحكة) ولكني اسمعك على الواقف .

– أريد أن تجلسي .

قالها بنبرة أخذت تتسم بالتهديد ، فأجابته بنفس لهجته :

– قلت لك لا استطيع (وسحبت يدها بحركة مقاومة) .

فوقف وقد انعقد مابين حاجبيه ، وقال لها مكفهراً :

– اجلسي .. اريد الحديث معك .

– في وقت آخر .. دعني الآن .

– وماذا لديك الآن ؟

فنظرت اليه وقد عاودتها طبيعة المرأة التي لها ثأر في عنق آدم منذ خطيئة حواء الاولى ، وقالت وقد تلبستها سحنة الملاكم الذي يسدد الضربة القاضية :

– لدي شغل ! (وغمزت بعينها ضاحكة) .

قال في نفسه : « شغل !؟ وأنا إذن ؟ ألم يعد لي مكان في دنيا شغلك يا عاهرة ؟ »

وقال لها :

– لن أتركك ..

ففكرت : « ألا يفهم ؟ » الليمونة التي عصرت لم يبق الا أن تلقى في صندوق القمامة ، والمسألة الوحيدة الباقيـة هي كيف تلقى ، أفلا يفهم ؟

وكان يفهم .. مثلها يفهم ، والفارق الوحيد بينها انه لا يستطيع ان ينسى العالم الصغير المعطر ، المخمور ، والجسد الفتي المورد تحت المصباح الاحمر ، والضحكة الشهاء ، والهمسة المبحوحة ، وكل الحركات الباعثة على طلب المزيد او المجازفة بكل مابقي . كان

يفهم مثلها ، ولكنه لا يريد أن يصدق ان زيته ، دمه، الذي سكبه في هذا القنديل ، قد جف .

تأملها ملياً ، وتذكر كلماتها ، وتساءل كمن يفيق من اثر التخدير ليذكر الحركات التي سبقت غيبوبة الجراحة : « أكان باطلا كل ذلك ؟ عيناها ، شفتاها ، دموعها ، أكان كل ذلك خداعاً ؟ أنت ! يا أنت ! يا صورة في ايقونة ، اين تلك الوداعة ، وأين ذلك الهيام !؟ »

صحا على صوتها الذي ترافق مع نترة يدها .

– اتركني ..

وابتعدت عنه وهي تفرقع بضحكة عابثة تخيلها أظافر تكشط عن أيقونة الماضي كل تهاويلها ، فلحق بها وسألها بدافع من قوة غرائزه النائحة :

– الى أين ؟

فعادت الى ضحكتها العابثة حتى غابت عيناها ، ثم انثنت اليه فاوسعت من فتحة جفنيها ، وسمحت للأفعى الأولى ، المتهيبة ظلماً ، ان تثأر لنفسها ، وتطلق فحيحها السام ، الهادم المهدوم ، فقالت :

– الا تعرف ؟ لا يليق بالرجل أن يسأل المرأة تفصيلات من هذا النوع .. اذهب الى زوجتك . . وإن شئت تعال وانظر من ثقب الباب !

ومضت تتثنى ، رافضة أن تلتفت الى وراء .. فصاح بها مزمجراً ، مجروح العاطفة :

– لاتذهبي ..

لكنها ذهبت وهي تشير الى غرفتها كأنها تمسك خرقةحمراء لإهاجة ثور ذي قرنين طويلين .. وعندئذ اخرج مسدسه ، وسمع في المطعم كله صوت اطلاق النار .

وقال المستخدمون لفياض قبيل النوم :

– انس ماشفت ..

وقال له زميل قديم ، وهو يشرح مزايا البضاعة التي فوق.

– البنات عندنا صغيرات وجميلات .. والموردون يتقيدون بهذا الشرط .. وحين تدخل البنت يعاملونها كالزهرة . . توضع في أفضل إناء .. ولكن حين تذبل ..؟ هنا لا يبقون زهوراً ذابلة . . تأكل البنت وتنام وتقامر وتشتري الثياب والحلي بقدر ما تكسب ، وتستطيع ان تكون ذات عشيق من غير فئة الزبائن ، أما أن تترك المحل دون أن تطرد منه فهذا مستحيل . . اذا كانت مرغوبة فهي بضاعة جيدة ، وهنا سوقها ، أما اذا عتقت فالمحل لايتساهل بالمستوى المطلوب ، يترك لها الخيار في التصرف ، وتصبح حرة في أن تنتحر أو تذهب الى المبغى .

هذان الحادثان أثرا جداً في نفس فياض ، ثم لم يلبث حادث آخر صغير ان وقع : فتح رجل مطعماً قريباً ، فاصدرت السيدة

تعليماتها باغلاقه . أصبح رجالها من زبائنه الدائمين ، يسهرون ويخلقون المشاكل من كل لون .. ورغم جهود صاحب المطعم لارضائهم كانوا يجدون أسباباً كثيرة للشغب والعراك . . يأتيهم ببطحة العرق النظيفة المختومة فتستبدل ببطحة من نفس الماركة فيها ذبابة ، أو يأتيهم بطبق الطعام فيضعون فيه شعرة . ومهما كان دفاعه فلابد من تحطيم المائدة .. ولما تشكى نصحوه بالتفاهم مع السيدة ... فدفعت هذه تعويضاً مناسباً ، وصار المطعم لها ، وصاحبه مديراً من قبلها .

وراح فياض المدهوش والناقم ، ينطوي في ذاته على شعور بالسخط والخيبة امام هذا الفساد الداب في كل ما حوله : منظر المقامر والفتاة ، وصاحب المطعم المجاور ، وكل المشاهد المماثلة ، جعلته يشعر بالقرف والغضب . إزداد اقتناعاً أن الفساد الذي يعبر عن نفسه بهذه الظاهرات غدا عميق الجذور حتى صار هو الطبيعة ، وخلافه الشذوذ . كان يتألم اذ يرى اصحاب هـــذا الفساد وضحاياه على السواء لايجدون غرابة فيه ، كأنما تواضعوا على أن الحال لابد ان تكون كذلك ، وكل ما بقي هو تطويرها من خلال التسابق ليكون لكل منهم الدور الاكبر والمنفعة الاكثر في هذا التطوير ... وكان فياض وهو يتصور ذلك ، يتساءل : « الى متى ؟ »

انه الان على يقين من شيء واحد : كل رذيلة ممكنة اذا دفع ثمنها .. وفي وسع الانسان ، لا ان يبدل مهنته فقط ، بل هويته وشخصيته وبيئته وماضيه كله اذا دفع . أما البنايات الكبيرة ذات الواجهات

الضخمة ، فان اعمالها تتواصل على مدى الاربع والعشرين ساعة ، وتتنوع الى درجة ان المرء لو أراد وضع دليل لها لاضاف جديداً كل يوم ... وأما اللوحات المثبتة على الأبواب فهي لا تشير الى كل صنوف العمل ، وليس من أحد يهتم بلوحات الأبواب ، بل بمايجري وراء الأبواب .

ويبدو ان فياض اهتم بما يجرى وراءها اكثر مما هو مسموح به . لم يكن في مقدوره ان يتزين بالافكار والخواتم الذهبية الثمينة في وقت واحد كما يفعل الميتر ،ومهما بالغ في الاحتياط ،فان ملاحظاته كانت تكشف منتاه . وقد وجد سعـــادة يوم اكتشف ان بين المستخدمين من يمت اليه بصلات فكرية ، وان (الميتر) يعرف كل شيء ، ولكنه ينصح بالتروي ، ويقرض حبل السوء بصبر جرذي . وكان المستخدمون يميلون الى وضع افكارهم موضع التطبيق من حين لآخر . وهكذا رفضوا ، خلال عمل فياض ، طعاماً رديئاًأقدم اليهم ، ولم يقبلوا وساطة « الميتر » ولا هو اصر عليها ، فاضطرت السيدة ، وكان الموسم في أوجه، الى تحسين الطعام، وبدأت شكوكهابفياض تزداد وتتركز .

ربما كان هذا هو السبب ، وربما بمجرد مصادفة ، إن جاء المطعم ظهر أحـد الأيام رجـل قيل ان له نفوذاً وسيطرة على كل « قبضايات » المطاعم والملاهى في العاصمة والجبل .

افردوا له طاولة ، وقدموا الويسكي والدجـــاج المحمر ،

وجاءت السيدة بنفسها فشربت كأساً معه ، وأوصت بتقديم افخر المشروبات والاطعمة اليه ، وانتهت فياض لخدمته . وقبيل انصراف الرجل طلب من فياض ملو، فلما جاءه به ، استوقفه وسأله :

– أنت لبناني ؟

– لا .

– ما أسمك ؟

– ميشيل .

– من أي بلد ؟

فاسمى له أول بلد جاء على لسانه .

– من أي عائلة ؟

– من بيت الخوري .

– ومن هو مطرانكم ؟

بهت فياض . هو ليس ميشيل ولا من بيت الخوري ، ولا من البلد الذي ذكر ، ولم تسعفه مخيلته في تذكر اسم المطران ، فوجم تاركا للرجل أن يقول عنه ما شاء ، فصاح هذا به :

– من بيت الخوري ولا تعرف اسم المطران ؟ حمار !

قالها وقذف ليرة فضية ارضاً ، وامر فياض :

– خذها . !

كانت الاهانة بالغة ، لم يلق فياض مثلها .. « لماذا الحياة بعد يا فياض ؟ الموت ، الآن ، هو الحياة ، فافعلها ومت » ، التقت

عيناه بعيني الميتر في نظرة خاطفة . كان لونه قد اصفر وعرق بارد يتندى به جبينه ، وكانت عينا الميتر تقول له : « احذر ! لن تكون وحدك الضحية .. فكر بامثالك من المستخدمين » . وتذكر ما اوصوه به من ضبط أعصابه مهما حدث .. تذكر انه صاحب قضية وعليه ان يتحمل ، وان الحديد ، لكي يصبح فولاذاً ، لابد ان يتحمل ، فاغضى على الاهانة ، والتقط الليرة ككرسون حقيقي ومضى خارج المطعم .

مضى بعيداً ، كي لا يرى مسرح اهانته ، وقال في نفسه : « لابد ان اجد مخرجا .. بيروت واسعة » .

— ١١ —

بيروت واسعة وبيروت ضيقة . فاين تذهب يافياض ؟ حذار من المجازفة ، وحذار ان تركب موجة اليأس فترطمك على صخور التهلكة . نملة انت بين هذا النمل . شعورك الآن كشعورك ذلك الصباح في ساحة الدباس . كانت قرية النمل تفور ، وكنت نملة غريبة ومحتارة ، فجاءت تلك الفتاة وانقذتك من حيرتك . مشت الى جانبك ، وابتسمت لك ، ووضعتك على درب الامان .. فاين تلك الفتاة ؟ ربما كانت هذه او تلك ، وربما كان هذا الرجل صديقاً مثل ذلك الميتر ، وهذا العامل رفيقاً كخليل ، ففي البحر اسماك كثيرة تتشابه ، وفي البحر أسماك كثيرة ضعيفة ، ولكنها

حين تسير في اتجاه واحد ، يتقوى بعضها ببعض ، وتبلغ غاية رحلتها . تمهل ، تفرس في الوجوه عساك تعرف احدا منها ، فكر وانت تسير وابتعد عن كراج جلول الذي ينادي « الى الشام ، الى الشام » خليل نصحك ان تبقى .. قال لك « التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع الناس مناضلون ، وربما ابطال ، جميعهم يمكن ان يقولوا ويكتبوا اشياء حسنة ، ثم ماذا ؟ المثابرة ، الصمود ، والا فالضياع » وانت لاتريد ان تضيع .. انت لاتسعى الى البطولة ، ولكن الخيانة لاتخطر لك على بال . وما دمت على المفترق فثبت قدميك لئلا تنزلق .. فكر .. باناة فكر ، بعزم على تقبل التجربة فكر ، وابتعد عن كراج الشام ، قم بجولة على البرج » .

« في الماضي كان البرج ساحة غير هذه . تغيرت المعالم وبقي الاسم . والدك تجول هنا في الماضي البعيد ، راكباً على فرس بدون سرج ، كان ذاك زمن الخيل وعربات الحنطور ، كان سائس خيل عند بيت سرسق ، ولا يذكر كيف وصل الى بيت سرسق . انه لايتكلم الا عندما يسكر ، وانت لاتصغي اليه حين يسكر . انصت الى غناه ، انه حنون ، فقد عاش في كل مكان ، وفي بيروت ايضاً . «ذهبت اليها لأجل العمل يانزهة » ومن يدري .. ربما احب امرأة ولحقها . ترك امك ولحقها .. وامك تعذبت يافياض « آه يابني .. كم بقيت وحيدة وكم بكيت .. كان السفر

في دمه ، مثل الخمر والنســـاء في دمه .. ولما جئت أنت تعزيت ، قلت يعوضني ، يؤنسني ، سهرت عليك ، وربيتك كل شبر بنذر ، ولما كبرت اخذتك الى المدرسة ، وفي المدرسة احبوك . كانوا يثنون على ذكائك ، ويمدحون سلوكك ، ويخافون على صحتك . كانوا يقولون عقله اكبر من عمره ، وانك حساس بشكل مقلق ، وانك بكيت في الصف لان المدرسة نظمت رحلة ، وطلبت من التلاميذ ان يشتركوا فيها لقاء بضعة قروش ، وكنت تعلم ان ليس معي هذه القروش فلم تطلبها . ولم تقل ذلك للمعلمة ، واعلنت انك لن تذهب في الرحلة ، ورفضت ان تقول لماذا . ولما اصرت المعلمة على معرفة السبب امتنعت عن الكلام ، واصرت هي فبكيت أنت .. وارادت ان تدفع عنك فرفضت « ياالهي ، قالت ابنك غريب » ووضعت يدها على شعرك وقبلتك « سيكون ناجحاً اذا أكمل الدراسة » ولم تكملها . كنا فقراء ، وقالت المعلمة « حرام .. لاتقطعيه عن المدرسة » وانقطعت . كنت صغيراً حين بدأت العمل ، وكنت تحمل الي اجرك ، وكل مصروفك تنفقه على الكتب ، وصحتك تنوس ، وقلبي ينوس ، كنت أملي وهمي ، ولكنك كنت الى جانبي .. ثم كبرت وطرت .. لماذا كبرت ؟ لماذا يكبر الصغار ؟ لماذا لايبقون صغاراً ؟ هل الكتب هي السبب ؟ ابوك حذرني « الكتب ستقتل الولد يانزهة »وهاهي .. رباه .. لااريد ان اصدق .. لا اتصور انك بعيد ، وانك ستظل

بعيداً ، مشرداً . انت لست مثل أبيك ، لن تكون مثله . انت لاتشبهه . لاخمر ولا نساء ، ولكن الكتب .. لماذا ارسلتك الى المدرسة ؟ ياليتك كنت راعياً ، ياليتك كنت بحاراً . لولا الكتب لبقيت بجانبي .. انت لم تخلق للغربة .. عشت مدللاً . صحتك شمعة ،ورياح الغربة شديدة عليك ، ولقد قضيت عمري في الخوف عليك . صلّيت في الليالي : يارب احفظ صغيري ! ، وقدحفظك، شكراً له ، لكن الكتب ... صرت تذهب في الليالي ، وتذهب في الفجر ، وتغيب عن البيت ، وتواجه المصاعب . عاتبتك فقلت لي « الحياة ظالمة يا امي » وقلت لك نعم ، واسألني انا .. اسأل اهلنا وحينا ومدينتنا ، ولكن ماذا نفعل ؟ هل نستطيع ان نزيل الظلم ؟ وقلت : « نعم ، اذا حارب الناس الظلم ازالوه » ولماذا لاتحاربه بقلبك ؟ وضحكت .. وجاء الشرطة يوماً . ففتشوا البيت ، قلبوا الاثاث ، بعثروا الكتب .. وفي المحكمة رأيتك واقفاً ، وحين وضعوا القيدفي يديـك ادرت وجهي .. اخذوك ، ولكنك عدت سالمـــاً،ثم جاءوا مرةاخرى ، ومرة اخرى دخلت السجن.. سنوات طويلة،وكل سنة اقول يستريح،وانت لاتستريح، وانا كذلك ، ووالدك يقول : « هذه نتيجة الكتب » ويقول : « كان يجب ان نبعده عن خليل » ويقول : تنبأت انه سيجن بشيء ما .. دمه من دمي يانزهة ، مستحيل ، انت لاتسكر ولا تزني .. وليتك كنت تفعل .. لمـــاذا لاتفعل ؟ أليس لك

حبيبة يابني ؟ اين أنت ؟ ماذا تأكل ! كيف تنام ؟ أين تعمل ؟ »

الزحام شديد على البرج . والوقفة على الرصيف صعبة ، وقد حاول ان يتشبث بمكانه فجرفه المارة . ترك نفسه للتيار ، وراح يحملق في الواجهات التجارية . رأى لوحات زجاجية سوداء ، معلقة في صدور المحلات ، مكتوب عليها بمختلف اللغات « السعر محدود »،ولكن المساومة كانت ناشطة على البسطات المنشورة فوق الارصفة . وكان الناس ينسون انفسهم امام حوانيت المجوهرات ، وقد بهرته الكنوز السليمانية التي تعرضها وضايقت نظره .. وفي الطرف الآخر للساحة كانت تلال من الاقمشة التي تباع بالقطعة ، واكوام من الاحذية وارتال من عربات اليد المحملة بالمانيفاتورة ، ومخازن متنوعة للسجاد العجمي . ومن سوق النورية كان صياح المتشاجرين قد جمع الناس ، وكان الشاري يصيح :

— هذه ليست لفتي .

فصاح به البائع :

— سد بوزك .

وبدأ الضرب ..

فقال فياض وهو يبتعد : « الغش في كل مكان .. مطعم الجبل ليس وحده . مطعم الجبل ليس وحده » وسار باتجاه ساحة الدباس ، ماراً بشارع بشارة الخوري ، وقد اعتزم ان يذهب الى

خليل ويستشيره في الامر .. انما عليه ان ينتظر الليل ، كي لاتتكرر الزفة السابقة . عليه ان ينتظر الليل . وكان الليل بعيداً . وعليه ان يدور ، وان ينأى عن الساحة ، ويأكل شيئاً يتبلغ به.

* * *

غمرته ام خليل كابن كان ضالاً فوجد .. وعانقه ابو خليل وسأله عن الاحوال ، واين كان ، وما هي اخبار والدته ، واجاب على اسئلتهم بما استطاع اختراعه من الأقوال . ود لوكانوا جميعا مثل الكنة التي سلمت على استحياء ، ولم تقل شيئاً سوى التأهيل ، ظناً منها انه يعود لتوه من الشام .

وفوراً انشطت ام خليل لاعادة توزيع الاجسام في الغرفتين اللتين يجب أن تتسعا الآن ، كما في السابق ، لخمس بنات ، وصبي ، ووالدين ، وجدين ، وضيف هو فياض ، الذي اعترف بعبقرية العجوز في هندسة كل هذه الابدان ، اضافة الى ما يطرأ من ضيوف ، وحشرها جميعاً في الفرش ، وتوزيعها على الاسرة والحوانات والارض ، وتدبير الاغطية لها ، بغير ملل ولا انزعاج .

ولأن فياض ضيف ممتاز ، فقد احاطته ام خليل برعاية خاصة كعادتها . ورغم رجائه بانتظار خليل ، والحاحه على عدم

ايقاظ الأطفال النائمين على سريره ، فقد تصرفت بـما تعتبره من صلاحياتها المطلقة. انزلت الصغار عن السرير، واعطته لحافا عدد رقعاته أقل من رقعات جميع اللحف ، وقالت له :

ــ استرح حتى عودة خليل .

كان قد تناول القهوة ، وبدا راغباً عن الكلام مع العجوزين. ها هو في بيت أبي خليل بالرغم عنه. . بعض الضرورات كالاحكام غير القابلة للنقض . وقد تقبل وضعه على مضض ، محتسباً الصبر مرحلة جديدة في التجربة . وقال في نفسه « في مطعم الجبل عملت للفكرة بقدر ما استطعت . مشروع المطالبة بتحسين الطعام وشروط العمل كان من تدبيري ، ومن المؤكد ان بعض المستخدمين قد وعوا ما قلته لهم ، وسيكونون نقابيين جيدين . لقد جمعت منهم التبرعات ودفعت قسما من دخلي « للذين هناك » . أنا لم أستطع ان اكتب . التمويه فرض علي ألا أكتب ، وسأفعل ذلك الآن . سأبعث بمقالات للصحف بتوقيع مستعار . . فيا اخواني هناك . . أنا معكم ، بفكري معكم ، بقلبي وروحي معكم ، وإني لامنحكم حبي ، وهو كل ما أملك في الوقت الحاضر » .

قالها وقد استعاد ، بعد يوم من التشتت والعذاب، وجوده وطمأنينته . كان يبحث عن عزاء ، عن اقتناع بأنه نافع ، وان ما يفعله يسهم في القضية، ففي هذا تبرير لحياته ، وفيه طاقة جديدة على مواجهة الصعاب .

وجاء خليل .. أتعرف من ينتظرك يا خليل ؟. تعانقا .. اكثر من أخ وأخ تعانقا .. السائران في درب واحدة تعانقا . وأصغى خليل لفياض ، وقال هذا ، في الختام ، معتذرا عما فعل : لم استطع الاحتمال ياصديقي ، لم استطع الاحتمال .

وكعادته أطرق خليل .. معنى هذا « يمكن الاحتمال » ولكنه لايريد أن يقوله .. لايريد أن يكون فظاً مع صديقه في أول لقاء .. وقد فهم فياض ذلك ، واعتكرت نفسه ، فسأل :

– بماذا تنصحني يا خليل ؟

وقال خليل بأكثر ما يستطيع من الحب والعطف :

– ابق لدينا .. احسب أن الضجة قد خفت الآن .

وتوجه الى أهله قائلا :

– فياض رجع بصورة موقتة .. هذه المرة لم يره احد ، فحذار أن يعلم الجيران .. سيظل في الغرفة الداخلية حتى يرحل . ثم قال له مؤاسيا ومشجعا :

– لاتهتم بما حدث .. صار الذي صار .. اصبر قليلا .. هذه الحال لاتدوم .

القسم الثاني :

- ١ -

لاتدوم !؟

ولكنها دامت .. بل ازدادت ، في دوامها ، سوءاً .

في « مطعم الجبل » ابلغ الميتر ان رجال الامن سألوا عن الذين يشتغلون فيه من غير اللبنانيين . اطلعوا على الاسماء ،وراقبوا المطعم بحثاً عن فياض،وقالت السيدة للميتر ،وهي تأسف لانضربتها تأخرت « نفد ميشيل بريشه » ثم استدركت : « أتحسب كنت اسلمه ؟ لا .. أنا أذك مشنوقاً » فقال الميتر في نفسه : « على شرط ... « وتساءل عن شرطها : « ترى راودته عن نفسه فرفض ؟. انه جاهل اذن ، فالسيدة طيبة ومعذورة . الذي يجني العسل يلحس اصابعه ، وهي تشهد جريان العسل في الطابق الأعلى وتتلمظ » .

اهتم الأصدقاء بأن يكون فياض في مأمن ، فاخبرهم خليل انه في مأمن عنده ، فأوصوه به ، واعدين بتأمين مخبأ آخر له عند الضرورة .

وهكذا أقام في الغرفة الداخلية من بيت أبي خليل، حيث ينعم بالرعاية الأبوية للعجوزين: أبو خليل وقد تولى الذود عن البيت من الخارج، وشعاره التخفيف بالنسبة لجميع الزوار، وام خليل وقد تولت التموين، ثم اطعام فياض ولو بالقوة، والتحرش بالجارات من مجلسها على الخوان أمام النافذة، وسماع شكاوى شقيقاتها الثلاث من كناتهن الثلاث.

وعاد سعال أبي خليل المصاب بالروماتيزم يوقظ فياض ليلا، وضجة الصغار في الصباح تجعل البيت كحمام قطع ماؤه، وزعيق الراديو وخشخشته يفتنان أعصابه، حتى اذا ارتفع الضحى، وفرغ البيت، انتشر السكون، وتمـــددت الوحشة ساعات أنفقها في الاستلقاء أو الجلوس أو السير في غرفته الضيقة والمعتمة.

كان يحلو له أن يراقب الصغير يلهو، يتمسك باذيال امه، يدور حولها. وعندئذ كانت الظلال تستطيل، تنبت غيمة في فضاء الغرفة، وفي قلب الغيمة تضيء شمعة .. يصير لها يدان، رجلان تمشي .. تكبر .. محفظة قماشيـة تتدلى من العنق والكتف. ها هي ذي المدرسة .. الصف الأول .. الصف الثاني .. الصف الثالث .. المدرسة تضج .. حادث فوق العادة. استدعى المدير فتى من الصف الخامس. الفتيان كبار في الصف الخامس .. صفعه. وانقطعت فتاة عن المدرسة، وقالت المديرة: «يالطيف!» والمعلمات

توشوشن . سأل فياض: «ماذافعل الفتى للفتاة ؟ ضربها؟»فضحكت المعلمات،وقالت معلمته: «لا يافياض..اذهب والعب ، لاتسأل هذه الأسئلة . » وصمت فياض . أحس انه ارتكب ذنباً ، لكن تطلعه كان اكبر من احساسه ، فظـــل التساؤل مرتسماً واكتأب . « لاتزعل – قالت له المعلمة – ستعرف فيمابعد ، حين تكبر » ولماذا حين اكبر ؟ « لان هناك أشياء ليست للصغار » .. تحركت في دمه جرثومة كانت هامدة ، ورأى ، لاول مرة ، بريقاً في عيني المعلمة . صار جسمها اكثر من مستطيل يمشي على فرعين . اخذت التفاصيل تتمايز : الردفان ، النهدان ، الذراعان العاريان في الصيف . والجرثومة التي كانت هامدة انتقلت الى الدم ، ومع الدورة الدموية انتشرت في الجسم كله ، وقبلة المعلمة صار لها معنى آخر ، غامض ، مبهم ولذيذ . صار يتوقعها ، ويتمناها ، وارتسمت للفتى والفتاة صورة اخرى ، غريبة ، مثيرة ، وتطلـــع في البيت الى رسم آدم وحواء والتفاحة والأفعى ، وفي الصف سأل المعلمة : « هل يختلف تفاح الجنة عن تفاح الأرض يا آنسة ؟ »ودهش التلاميذ وضحكوا ، واقتربت المعلمة منه . كانت مغضبة ، ومدت يدها لتشده من اذنه، لكنها رفعتها الى اعلى ، وداعبت شعره ، وتراجعت ولم تقل شيئاً . وفي الباحة رآها تتهامس مع المعلمات ، وتشير اليه وتضحك، وفهم انه سأل عن شيء لايسأل عنه الصغار . ولكن ما هو هذا الشيء الذي لايسأل عنه الصغار ؟ « انت يا فياض شقي ، صغير وشقي ،

تقول أشياء خارجة عن الدرس، لو قالها غيرك لقاصصته ،ارادت ان تضع حداً لفضوله ، وفكرت حتى أن تحدث المديرة ،ولكن فياض حمل اليها في اليوم التالي باقة ورد. من حديقتهم حمل إليها باقة ورد. كان جلب الأزهار الى المدرسة عادة يصطنعها التلاميذ وأهلهم تكرمة المعلمات والمدرسة انها تعبير عن عاطفة لاسبيل الى التعبير عنها بهدايا أخرى ، غير أن ورود فياض كانت هدية خاصة . لم يقدمها مباشرة بل اكتفى بوضعها على الطاولة في الحصة الثانية ، حصة المعلمة . ولقد فوجئت بها ، وسألت عن صاحبها ، وأطرق فياض وسكت . هدية صغيرة من القلب الصغير . . قدحة صوان في العينين . شرارة لا تحرق بل تضيء . والمعلمة انثى ، وهذا الارنب الصغير . وقالت المعلمة : لا اريد زهوراً من احد . اصطنعت الجد ، وعبست . ومر نهار تعيس ، وفي المساء ، عند الانصراف ، استبقته في الصف « امك أرسلت هذه الورود يافياض؟ » « لا ، أنا احضرتها » ولماذا لم تعطها الى المعلمة في الحصة الأولى؟ » فنظر اليها مستغرباً . انه لا يعرف ! وادركت المعلمة ان سؤالها اربكه ، فابتسمت ، وبهرته الابتسامة . . كانا وحيدين ، والابتسامة له وحده الآن ، ولسوف يذكرها طويلاً . احتوته بين ذراعيها ، فشم رائحة جسم . . ولسوف يذكر طويلا ، الارتعاشة الاولى التي ولدتها رائحة جسم .

عام ، عامان ثلاثة . . اليقظة المبكرة لفتى مراهق ، ابن

بحار في دمه الخمر والنساء ، وذكرى المعلمة..وأغمض عينيه... أين صارت تلك المعلمة ؟ »

ابن خليل يلعب ، وهو يراقبه ، هو يراقب طفلا آخر ، بعيداً ، من الماضي .. كان حلواً ذلك الماضي ، كان فيه طفلا ، وكانت الدنيا لهذا الطفل ، أواه .. لماذا يكبر الانسان بسرعة ؟ أمك قالت هذا أيضاً .. وأمك لاتراك الآن ، لاتعرف كيف تعيش .. لاتعرف انك تتعذب بالصمت ، وتتعذب بالضجيج ، وانك مللت الصمت ، ومللت الضجيج .

وبمضي الأيام هونت عليه العادة وطأة العذاب والملل . لم تعد الأشياء غريبة ، ولا الاخبار السيئة أو « اسئلة المجهولين » مثيرة للقلق . كل شيء غدا متوقعا ومحتملا الا شيء واحد : أن يظل قعيدا هو الذي جاء لينشط . لقد هرب في سبيل فكرة ، وله رفاقه في السجن ، وعائلته مجهولة المصير ، وامه قد تكون ماتت كمداً عليه ، وهو مجمد في هذا البيت ، مشلول ، عرضة للصدأ .

ويوماً بعد يوم عاوده الشعور بانه يستهلك نفسه بغير فائدة ، وان خليل يعامله كقاصر ، ويعارضه في كل شيء . وندم على ترك « مطعم الجبل » وقال لخليل :

ـ اخطأت في ترك المطعم .

ـ لم تخطىء ولكنك تسرعت .

ـ وما الفرق ؟

- رجال الأمن سألوا عنك في المطعم .

- لم اعد ابالي .

- لاتستعجل .

- يجب ان أبحث عن عمل جديد .

- لاتستعجل .

فرنا اليه وسكت . « مانفع الكلام حين تكون مضطراً الى ابتلاعه ، او حين لاتكون واثقاً من صحته ؟ انت لاتبالي ؟ حسناً ، ولكن لاتستعجل . قال لاتستعجل لانه يعرف انك لن تفعل ، غير انك تعرف ان النصائح لاتكلف شيئاً . لو تبادلتما المواقع لكنت انت الناصح . كنت تنفق من هذه العملة ايضاً . كنت تلعب دورك كما يلعب خليل دوره ، انت لاتعرف ان تقسو مثله ، لأنك لاتعرف ان تحسم . حسم خليل ، لا كلامه ، هو الذي يزعجك ، وقد كان عليه ان يلاحظ ذلك ، ان يتكلم بلطف ، كمعلمتك ، كأمك ، كالكتب التي كنت تقرأ » .

بعد أيام جاءه بصحيفة نشرت له مقالاً بتوقيع مستعار ، فانكب على المقال يقرأه وهو مقطب . تململ لأن بعض عباراته قد حذفت ، وعبثاً حاول خليل اقناعه ان العبارات المحذوفة لم تنقص من قيمة المقال ، لأنها كانت حماسية لا أكثر .

– وماذا في ذلك ؟ حماسية ؟ انا اريدها كذلك ، ابحث عن كلمات من نار .

فقال خليل :

– الحماسة شيء والسياسة شيء .

تلق .. بدأت الدروس .

– والذين يتعذبون هناك ؟ نسيت انهم رفاقي ؟

يحسبني اقل منه تحسساً بآلامهم .

– ورفاقنا نحن أيضاً اتريد ان تساعدهم ؟ اكتب بموضوعية . اذكر وقائع .. هذا ادعى الى الاقتناع ، في الجريدة هكذا يطلبون .

– يطلبون ؟ ولكني لا اكتب بناء على الطلب ، ليكن هذا معلوماً لديهم .

– وليكن معلوماً لديك انهم لاينشرون الا مايرونه مناسباً . انت حر في ان تكتب ماتريد ، وهم مضطرون الى نشر ماهو مفيد ، ومايسمح به .

حجج واهية .

– لن اكتب بعد اليوم .

– لاتكتب . استرح . انت بحاجة الى الراحة .

ساد الصمت ، فافترقا على خلاف . ذهب خليل الى عمله ، ورجع فياض الى سريره. جلس على حافته وبكى . قال في نفسه : « اهانني . هنا ايضا اهان .. وممن ؟ انت ايضا ياخليل ؟ سافر يافياض سافر .. البرج ، و كراج جلول « الى الشام ، الى الشام » وقل لهم « خذوني الى السجن .. لماذا لم ابق فادخل السجن ؟ »

ظل ينتحب ولادموع ، و كيانه يهتز لفرط تأثره . اصبح على درجة من رهافة الاعصاب تهدد بالانفجار في كل لحظة ، ولانه لاينفجر ، فهو يحس بتعاسة آكالة . صار خليل ، معلمه وصديقه ، شخصا آخر في نظره . لم يعد قريبا ولا حبيبا . وغدا حديثه اليه كسكين تحفر في ثقب لتوسعه . هو الذي يجره الى الحديث ، وهو الذي يعارضه ويتألم منه ، يريد ان يقول له : « انت ياخليل لاتفهم اكثر مني ، وانما الظروف وضعتك ، انت ومنطقك ، في موضع التفوق » . وقد قال ذلك فابتسم خليل واجاب : « ربما » فشعر فياض ان هذه « الربما » تحمل كل معاني الاشفاق و الازدراء . هتف في ذاته : « آه لو كان لي مكان آخر .. يادنيا ! يادنيا ! لماذا ضقت في وجهي؟ »

تصاعد احساسه بان الدنيا تضيق ، وتصاعد ، بمقدار مماثل ، جزعه ورغبته في ان تتغير الاحوال بسرعة « كل شيء يجب ان يتحرك ، يدور ، يثور » وشد قبضتيه وصاح : « سحقا للصبر ! الى الشيطان العقل والمنطق ! » واضاف وهو يلتهب : « انني اكتب لاجل الذين هناك .. الذين يذوون ، يذوبون ، ويقولون لي :

انت تكتب بحماسة . اجل !بحماسة !اريدها كلمات من نار، تكوي، تحرق ، ومع ذلك فهي لاتكوي ولاتحرق، ولاتؤدي الى نتيجة . »

وكيف تؤدي الكلمات الى نتيجة ؟ قل انت يا فياض . فكر بما تستطيعه بهذا التشنج . اصرخ ، احرق نفسك ، ثم ماذا؟ يمكن ان تقع معجزة ، ان تحدث اشياء غير متوقعة ، ان ينزل المطر في الصيف ، ولكن الشتاء يظل فصل الامطار . وعدا عن ان زمن المعجزات فات ، وان الاشياء غير المتوقعة رصيد وهمي في حساب المفاجآت ، فان ترقب هذه الامور ضرب من الانتظار العقيم ، والقضية تظل الى جانب العمل الذكي ، الجريء، المتواصل.

« ولكني اتعذب يا خليل . في كل ليلة اجر الى التحقيق ، وفي كل ليلة اجلد بالسياط ، وحين يغمى علي يسكب الماء البارد على جسدي . ينقعونه جيدا ، كالجلد قبل وضعه على السندان ينقعونه ، ويضربونه حتى يتمزق ، ويخرج اللحم مع السياط ، ويتناثر على الجدران ، فيحملوني في بطانية ويلقوني في الزنزانة .. يدي ليست يدي ، ورجلي ليست رجلي . اصبح كتلة من لحم مقرح ، مدمى ، ازرق ، مشوه ، لا احد يعرفني ، ولا اكاد اعرف نفسي، فوهة مكان الفم ، وثقبان مكان العينين ، ووجه مبعج ، واثلام متقيحة على الصدر والظهر ، ورضوض وكدمات في كل ناحية . ومن جديد ، بعد يوم او يومين ، بعد اسبوع ، اجر الى التحقيق ، وتتجدد عملية التعذيب ، ويتجدد الالم والتشويه ، ثم يغمى

علي ، ويسكب الماء على جسدي ، واحمل في بطانية الى الزنزانة انا صديقك يا خليل ، انا فياض ، احس بهذا لاني اعرفه ، لاني اعيشه ، ولاني اتحرق الى وقفه ، وانقاذ الذين هناك منه . . »

هبط الليل فقال فياض : سيان أن يهبط الليل أو يطلع الصبح. أنت والجدران الاربعة ، وغداً تسافر الليلة هي الأخيرة ، فلا تخرج من غرفتك ، ولا تمد يدك الى زاده ، وفي الصباح قل له : شكراً ، ثم البرج « ياشام ! ياشام ! » لسوف أقبل ترابك يوماً ، ويا أمي البعيدة ، سأضع رأسي على صدرك ، ويا اخواني الذين هناك . سأكون بينكم ، ومعكم ، وذلك أجدى . السجن أفضل من الغربة . السجن أفضل من الغربة » .

ووقف خليل على العتبة بعد قليل .. التقت العيون فسال عتاب صامت . اقترب منه وعانقه « ياصديقي ، يارفيقي ، لماذا تعذب نفسك في غير طائل ؟ تعال ، ولنشربن كأساً ، ولنغن ... غن ، يارفيقي ، غن ، لأجل الذين هناك ، وفي كل سجن ، ومن أجل الناس ، والمستقبل والحياة ، ومن أجل انفسنا ، ولكي نبقى اقوياء ، ونواصل السير ، غن ، ولنغن » .

* * *

لم يسافر فياض في الصباح . عكف على كتابة قصة . ونشرت القصة فنالت الاعجاب . وقال خليل «أتدري ماصنعت ؟ »،

وقبله . تتالت القصص ، وكذلك الأيام ، وطال الاختباء ، وتفنن فياض في اختراع التسليات لانفاق الوقت . قرأ كل ماطالته يده من جرائد وكتب ومجلات . كان يقرأها ويعيد قراءتها .. جرب حل الاحاجي في الكلمات المتقاطعة ، بل قرأ الكتب المدرسية الابتدائية الموجودة في البيت ، وطالع كل ما في بيوت أقرباء العائلة من روايات الجيب ، والف ليلة وليلة ، وقصص الزير ، وعنترة ، وتغريبة بني هلال .. كان الكتاب أعظم مسراته ، فاذا فكر فيه تمتم بخشوع : في البدء كانت الكلمة ! .

كان يقرأ حتى تتعب عيناه ، ويجلس أو يضطجع ، واحياناً يخلع نعليه ويسير حافياً ، مرهفاً السمع الى كل حركة تصدر عن الغرفة الأخرى ، حتى اذا انتهى اليه وقع خطى باتجاه الباب ، انسحب الى ما وراء السرير كي لا يراه من يدخل الغرفة بصورة مباغتة .

ولأن الفصل شتاء ، كانت الزيارات تطول ، والحديث يتواصل في الغرفة الثانية ، وأبو خليل يرد على الزوار بكلمات قليلة : نعم ، اي ، لا ، صحيح . ويدرك فياض ماتنطوي عليه هذه الاجابات من عصبية ونفاد صبر ، فيستشعر الحرج لمضايقة العائلة على هذا النحو الموصول . أما خليل فكان يسترسل .. كان على عكس أبيه ، له اذن صغواء ، يعرف كيف يأخذ ويعطي مع الضيف ، وكيف يمد له حبل الكلام ، حتى يجعله يفتح قلبه ويقول كل ما يريد . وكان بعض الضيوف يبقى لقضاء السهرة ، ومعنى هذا بقاء فياض حبيساً في الليل ايضاً ، وفي هذه الحال تبلغ العصبية ذروتها بابي

خليل ، فيدخل على فياض متفقداً ، ويبتسم له مؤاسياً ، او ينفخ معبراً عن مشاركته له في هذا الضيق ، سائلًا بالاشارة عما يريد ، ويشعل له سيكارة ، ويجلس الى جانبه ، او يخرج الى الحديقة ، وقد يذهب من البيت كله . فاذا عاد انصب باللوم والتقريع على خليل وأمه اللذين أطالا الحديث . وعبثاً كانا يقنعانه ان مافعلاه لياقة ، فهو يجيب ساخطاً « هذا البيت لا تنقطع عنه الرجل .. الضيوف على رأسي ، ولكن فياض طقّت مرارته في الغرفة الثانية .. فكروا انه انسان ، وانه يحتاج الى التنفس وقضاء حاجة .. العمى .. لايوجد في رؤوسكم عقل ! ؟ » .

ويسمع فياض فيبتسم .. لقد اعتاد هذه المناوشات التي لاتعني شيئاً في هذا البيت ، وارتضى نصيحة صديقه المجرب بالصبر حتى الفرج .. ولكي يترجم صبره الى واقع ، راح يبدي سروره ورضاه ، حابساً كل شكوى في صدره .. لقد أدرك ان الاختفاء مضايقة في ذاته ، واظهار الألم يزيد حدة المضايقة ، وكثرة الاعتذار تبعث على الملل ، وترداد الشكر ينقلب الى زلفى . حتى العبوس ، بفعل الهموم الخاصة ، يزيد الجو ثقلًا .. ولكي يجتنب كل ذلك عليه ان يضحك ، كالابله عليه أن يضحك ، وكان يفعل ، ويحس ان كل تصرفاته غدت ثقيلة ، معقدة ، وحتى قضاء الحاجة غدا معقداً .. فاذا كان غرباء في البيت ، ظل في غرفته ، وقد تطول الزيارات ، وعندئذ تنقلب العقدة الى مشكلة .. وهكذا اضطر

أن يطلب من أبي خليل كيساً مطاطياً للماء الساخن ، زاعماً انه يبرد ، وأخذ يستعمله كمبولة ، ويحمله سراً الى المرحاض في الليل .

واخيراً قرر أن يستعين بأم بشير ، ويبعث معها برسالة الى أحد الاصدقاء ، فارسل يستدعيها سراً مع الكنة .

- ٢ -

بعد ظهر أحد الأيام جاءت أم بشير مسرعة ومرحة كعادتها . كانت قد بلغت الخامسة والخمسين الآن ؛ ولكنها تقسم انها في الخامسة والأربعين . تذكر فياض قصة « الفساتين الحمر » وتأملها في محاولة للمقارنة ؛ لكنه لم يتذكر صورتها السابقة . بدت الآن نمشاء؛حمراء الشعر ؛ ذات عينين شهلاوين ، ورموش متآكلة ، وأنف دقيق ، منشمر الى أعلى .

وما كادت تسلم وتجلس حتى مدت يدها الى سيكارات أبي خليل فانتهرها :

- اتركي هذه اللعنة أو احملي باكيت .

- وأين أضع الباكيت ؟ ألا تراني بدون حقيبة ولا جيب . ؟

- ضعيها في صدرك .

- ياحبيبي !. وماذا يقول الناس ؟ « بز » ثالث ؟

ضحكت ام خليل وقالت : أنت أصلا بلا « بزاز » ، تسكرين مثل الرجال ، وتدخنين مثلهم أيضاً .

– أنا لاأسكر أبداً .. أدخن ، وأشرب قليلا . وماذا في ذلك ؟ مات زوجي من ثلاثين سنة ، وخلف لي أربع بنات وفوقهم صبي ابن أشهر ، فمن قام بهذه العائلة ؟ زوجت بناتي الأربع .. زوجت الأربع دون مساعدة من أحد .

قال أبو خليل :

– هذا صحيح .. شهادة لله .. ام بشير لها طريقة عجيبة في التزويج .

قالت أم بشير :

– أنا امرأة لاأحب كثرة المماحكة .. أضرب إلزق .. اللزق .. هذه هي طريقتي .. كنت أرصد الباب ، فإذا مد شاب رأسه لزقته بواحدة .. ماشغلك ؟ ماسنك ؟ ماأصلك ؟ مافصلك ؟ هذا العلاك لاأفهمه .. اللزق .. أضرب أقتل .. هذه أحسن طريقة ، طريقتي أنا .

قالت أم خليل :

– ولكن ابنك لم تزوجيه بهذه الطريقة .. إنقلبت عيّارة .. خطبت له مرتين وفسخت الخطوبة ، ولولا تدخلنا لفسخت خطوبته الثالثة .. لسانك لايهدأ ..

– لساني هو لساني .. وأنا أعرف كيف أستخدمه ..

إسألي خليل عن « الفساتين الحمر » وغيرها ..

قال خليل :

– عدنا الى هذه القصة ! ؟

– وقصة عمال الريجي ؟ . أنا لا أتفاخر ، ولكن أذكر الحقائق .. قبل عشرين سنة .. نعم قبل عشرين سنة .. مشيت على رأس النساء في مظاهرة عمال الريجي .. كنت أحمل العلم .. وهاجمنا الدرك .. فماذا فعلت ؟ تراجعت ؟ خفت ؟ لا والله .. مشيت لقدام .. ولما بدأ الضرب ضربت .. وجرحت ، فحملني العمال على الأكتاف .. ولا حقني البوليس فاختبأت مثل فياض الآن .

قالت أم خليل :

– الله لا يعطيك العافية .

– العافية موجودة .. أعطاني العافية ولم يعطني الزوج.

هتف أبو خليل وكأنه تذكر أمراً :

– هه .. وجدت لك إبن حلال ، ما حلواني ؟

– الذي تريد .. ما اسمه ؟

– رجل على الكيف .

– آمنّا .. ما اسمه ؟

– ابو سمعان ..

– وماذا أفعل بهذا العجوز ؟ أنا امرأة قوية ، من ثلاثين سنة لم يضع إنسان يده علي .. صنت نفسي بانتظار إبن الحلال ، فماذا أصنع بهذا الفاني ؟

– ترسلينه الى السوق .

– وفي الليل ؟

فداری أبو خليل إبتسامة ونهض . مضى عبر الحديقة الى المقهى ، ولحقه خليل . وقامت الأم لتتفقد كنتها في المطبخ ، وللحال مدت أم بشير يدها الى فياض وقالت :

– هات المكتوب .

ولما ناولها إياه ، أوصاها قائلاً :

– إنتبهي .. لاتضيعيه .

فنترته وقالت :

– هات .. إذا كانت بيروت الدست فأنا المغرفة .

وأغلقت الباب وراءها ومضت .

– ٣ –

تسلم جوزيف بو عبده الرسالة من أم بشير وقال لها : مع السلامة . كان عليه أن يوصلها بدوره الى الشخص المرسلة اليه ، ولهذا قال في نفسه : علي أن اسرع في العمل كي اوصل الرسالة مساءً قبل العودة الى البيت .

لو كان في غير هذا العمل ، وغير هـذه الظروف ، لأصلح ربطة عنقـه ومضى دون تمهل . هو ميال الى عـدم التقيد بشكليات الدوام ، ويكره جو المكتب كما يكره لقب الخواجة ، ولكن ستة اشهر من البطالة والمراجعات ارغمته على تقبل مايكره .. جعلته يتحمل رفيق دراسته القديم في اليسوعية ، رفيق دراسته البليد الذي كان هزأة الصف فصار بعد الحرب من ارباب الملايين وصاحب وكالة سيارات .. لقد اوكل الى جوزيف جرد قطع التبديل جردة رأس السنة ، واعطاه معاوناً كسولا ، ساعات عمـله الثماني لا تزيـد عن اربع ، وكان المعاون يحلم دائما في أن يعطيه الله كما اعطى المعلم ، وجوزيف يقول له : « الله لم يعط المعلم » فيسأل «ومن الذي أعطاه» فيقول جوزيف « الشيطان » وعندئذ يضحك المعـــاون ويقول : « إذن سوف يعطيني الشيطان أنا ايضا » .

وكان في القسم خمسة آلاف صنف من القطـع ، وفي كل صنف من القطعة الواحـدة الى العشرة ، وعلى جوزيف أن يقضي نهاره في تجميـع هـذه القطع ، وتدقيق ارقامها ، ملوثا يديه وثيابه بالغبار والشحم والزيت ، لاعنـاً زميل دراسته السابق الذي ارغمـه على هذا العمل القذر .

وكانت الفوضى تعم القسم بكل موجوداتـه ، وقـد سمع جوزيف من سائقي السيارات والميكانيكيين كميـــة من الشتائم لم

يسمع مثلها قط ، وكان يشترك ، هو نفسه ،في هذه الشتائم ، فاذا احتاج الأمر ابرز تفوقه فيها ككسرواني أصيل .

وكان عدد موظفي وعمال الوكالة يزيد على المئة ، وعلى رأسهم قريب لصاحب الوكالة يصلح لأن يكون ضابطاً في الجيش الفرنسي، وهو يعتقد نفسه جنرالا ، ويمارس ، بالفعل ، سلطة الجنرال. وقد أخذ على عاتقه ، منذ اللقاء الاول ، أن يروض جوزيف ، ويجعله قطعة تبديل في ماكينة الوكالة ، وهـذا ما ادى الى صدام طلب جوزيف بعده الاجتماع بصاحب الوكالة .. والموعد لم يحدد بعد .

وقال جوزيف وهو ماض بالرسالة : « للقرد ! علي أن اسرع الآن . » . كان وقته ضيقاً الى درجة لا تسمح له بأية متعة فكرية أو ثقافية ، وهو لذلك لا يلتفت الى الكتب والافلام وسائر الاعلانات الفنية من حواليه . عليه أن يعود بسرعة الى البيت ، حيث ينعش نفسه بشيء من الخمر ، ثم يرتمي على الفراش دون وعي ، ليستيقظ في الخامسة والنصف صباحاً ، فيحلق ذقنه ، ويشرب قهوته، وينطلق حاملا بعض السندويشات ليلحق بالاتوبيس ، وفي ساحة البرج ينزل منه ليتعلق بالترام ، ثم يقفز من الـترام ملقياً بنفسه بين صفوف السيارات في باب ادريس ، ويسير الى الوكالة شبه راكض ، فيلقي نظرة على الدفاتر .. ويستعد للجرد !

فاذا كان الظهر انتقل جوزيف الى مطعم قريب ، حيث

يطلب طعامه وينتظر ، وقد يغتنم الفرصة ليطالع صحيفته ، وبعد الطعام يعود الى الوكالة ليتمدد على كرسي في الطابق الارضي ، ثم يستأنف جرد قطع التبديل حتى المساء

وفي آخر الشهر يبدأ التفكير الكيماوي في توزيع المعاش.. وهو يرهب آخر الشهر لهذا السبب بالذات .. ففي بيروت لا يعرف المرء كيف تتسرب النقود ... وقد كان في كسروان يحتاج الى نصف ما يحتاجه في بيروت، وفي مرجعيون كان مرتب المعلم يكفيه ويزيد ، ولكن زوجته ظلت تنق حتى حملته على السكنى في العاصمة :

– يا يسوع ياجوزيف ! لماذا نبقى في مرجعيون واخواتك مثل الاميرات في بيروت ؟

وكلفه اللحاق باخواته « الاميرات » كثيراً من النـــدم والجهد ، ولكنه من النوع الذي يخترع مشاريع لاتنتهي .. وكان يقول في نفسه : « خلقت لأكون مخططا » . وخلال الأشهر الستة التي قضاها عاطلا ، كان يفكر على هذا النحو : « ساعتي لم تأت بعد » وكان يعتقد أن ساعته ستأتي يوماً .. وهاهو اليوم على شيء من أمل ، بل على يقين أن هذه الساعة اقتربت .

وقال في نفسه وهو يتلمس الرسالة « لن يحكمني زميـــل الدراسة القذر .. ففي بحر اسبوعين عرض علي العمل في مؤسستين، مؤسسة تجارية أكون فيها المسؤول عن المراسلات ، ومؤسسة

صناعية للحدادة الفرنجية أكون فيها المسؤول عن المكتب برمته .. أما الأجر فمساو تقريباً في المؤسسات الثلاث ، ولسوف تتاح لي فرصة الاختيار هذه المرة .. سأكون سيد مصيري .. أقول كلمتي في غير خوف من فقدان العمل ... أقولها لصالح وقتي وثقافتي .

وتوقف فجأة ليتقي سيارة مسرعـــة ، ثم استأنف سيره وتفكيره « على أن انتقي العمل الذي لا يستهلك كامل وقتي ، فانا صاحب مهمات ! (وهنا تلمس الرسالة من جديد) ولدي مشاريعي الأدبيـــة : اليوميات ، والقصة ، وترجمـة « كتاب صديقي» لأناتول فرانس ... »

وظل يسير ،وكذلك يفكر ، ويخترع مشاريـع عجيبـة كعادته ، فيما الليل يهبط رويدا رويدا على بيروت .

- ٤ -

لفتت فياض حركة مفاجئة في النافذة المقابلة .. بدا وجه انثوي يرنو اليه ، فيما كان يتابـع المارة من وراء ستارته بفضول من ينظر من كوة سجن . تساءل : هل كانت ثمة نافـــذة ؟ ، وقال في نفسه : لابد انها كانت .. فهذه الدار ذات الطابقين موجودة منذ وجد الحي ، وهذه النافذة قائمة منذ قام البناء ، ولكني ابدا لم انظر الى البناء والنافذة نظرة خاصة .. لم ألق نظرة خاصة على ايما شيء ،

فكيف حدث ان استغرقتني افكاري حتى صارت نظراتي تنزلق على صفحة الاشياء دون أن تميزها ؟ »

بلى ! كان يرى في النوافـــذ والشرفات بعض الوجوه ، لكنها وجوه كالتي يعبر بها الانسان في طريق ، أو يراها في اجتماع عام ، فلا يستوقفه منها وجه بعينه . وحين كانت تلتقي نظراته بنظرات جيرانه ، كان يتراجع ، يرخي الستارة ويعود الى جدرانه ليلوب بينها .

اليوم فقط وقع شيء مباغت .. ومضة برق انارت واختفت . حركة موقظة كالصوت في البرية .. وهو لا يذكر بعد ذلك سوى أن جداراً كان بينه وبين تلك النافذة فرفع دفعة واحدة . وقال في نفسه : «هل كان ما رأيت مهيئا ام لعبت المصادفة دورها فيه ؟»

اعتصر مخيلته لاستحضار كل تفاصيل الوجـه الذي رآه ، وتوصل ، دونما رغبة في المناقشة ، الى ان النظرة كانت متعمدة . وبنى على هذا التعمد فرضيات ، من بينها انه مرصود ، وان ثمة من يراقبه ، ويعرف أن ستارته تنزاح ووجهه يبدو ، فتساءل : « من يكون ذلك الوجه ؟»

ذهب في الغرفة وجاء .. طرح أسئلة واجاب عليها ، وطرحها من جديد وأجاب عليها من جديد .. ومع يقينه أن اليوم كالامس ، وان الجدران هي ذاتها ، والعتمة هي بعينها ، والفرش المرقوعة ،

والاسرة المركومة ، والكوة الواسعة هي هي ، مع كل ذلك كان يحس انه يسكن الغرفة للمرة الأولى .

استلقى على سريره وراح يحملق في بياض السقف ، وينقل طرفه بين الأشياء ، ويراقب انعكاسات النور الخارجي ، وظلال شجرة المشمش ، والشعلة الصغيرة المتقدة . كانت الافكار السريعة البهيجة ، تأتي وتذهب ، تحوم كالسنونو ، ومثلها لاتستقر على حال .

فتح كتابه وطواه . نظر الى الستارة المسدلة واولاها ظهره ، ولمـــا لم يكن لديه ما يعمل ، فقد ترك نفسه على هواها ، مضى الى الطاولة فاشعل سيكارة، ونقر باصابعه على خشبها في عصبية يوقع لحنا ، واتى بعشرات الحركات التي لالزوم لها .. كانت صورة الوجه الانثوي تزحزح الصور الاخرى وتحتل مكانها .. وحتى الافكار اليومية المعتادة تراجعت واحدة بعد اخرى ، وافسحت المجـــال للفكرة الوافدة الطاغية : « من هي هذه المرأة التي نظرت بهذا التعمد من النافذة ؟ »

راوده الشك : « هل كان ذلك تعمداً ؟ وما يدريني انها لاتنظر الى وجه آخر باتجاهي يطل عليها من الطابق الاعلى ؟» واحتياطاً للمستقبل ، قال في نفسه « وماذا يهمني من أمرها ؟ لتنظر حيث تريـــد ، فلست طالب حب ، ولا مطمح لي في غزل .. انا اشبه بالسجين ، والسجين لا أمل له في عابرة طريق » . وصاحت غرائزه :

« عابرة طريق ؟ » وقال هو : «لا . . انا لا أستطيع تضليل نفسي بهذه السهولة .. ليست عابرة طريق .. انها موجودة ، قبالتي موجودة ، ويكفي ان ازيح الستارة .. لقد نظرت الي ، ولم تكن نظراتها جافة ، ولا منكرة .. لم يكن فيها احتجاج على استراق النظر .. ثم انني لا أسترق النظر .. هي تعرف انني لا أسترق النظر ، ولا خطر لي أن أفعل ذلك .. بالعكس ، هي التي فعلته ، وأنا لا أنكر عليها ذلك . الرجل لا ينكر على المرأة ان تسترق النظر اليه ، يعد ذلك سعادة ، كرماً منها ، بل أحلى كرم ! »

قالها وتحرك كالمنوم مغناطيسياً نحو النافذة .. وقف يتلفت حذراً لئلا يراه احد من أهل البيت ، ولما صار وراء الستارة اخذته ارتعاشة خفيفة . احس بحرارة اذ تخيل الوجه الوضيء ، المؤطر بشعر مسبل ، فوق عنق ابيض .. وتمثل الكتفين ، رمانتي الكتفين ، فتصاعد الدم الى رأسه ، وخرج نهائياً من نطاق التردد والحذر .

مد اصبعه الواجفة ، وامسك طرف الستارة بانفعال ، ثم جمع نفسه في الطرف الآخر من الفتحة ، مجتهداً في ان يراها ولا تراه . ولما تم له ما أراد ، ارسل نظرة خاطفة باتجاه النافذة المقابلة ، ولم يلبث أن أرخى الستارة ، وعاد متباطئاً الى قاع الغرفة ..

كانت النافذة المقابلة مغلقة هذه المرة ، كانت وهماً ، فهل ينقلب الوهم الى حقيقة ، مرة اخرى على الأقل ؟

« صار ذلك يوماً . المعلمة قالت له : « ستعرف هذا حين تكبر » وقد عرفه وهو صغير . . المعلمة الحبيبة تلك انقطعت عن التدريس . قيل في المدرسة تزوجت . ولقد عتب عليها لأنها تزوجت . شعر انها اساءت اليه . صورتها ظلت في المكان الأعز ، وقد رآها مرة بصحبة رجل ضخم . الرقيقة بصحبة رجل ضخم . وبطنها منتفخة . . وركض هارباً . . لا . . ليست هي . ظل يتساءل: كيف تستطيع الا تأتي الى المدرسة ؟ وظل يتساءل : كيف يستطيع الكبار الا يلعبوا مثل الصغار .؟ وجاء يوم لم يعد هو نفسه يأتي الى المدرسة ، ثم لم يعد هو نفسه يلعب كالصغار ، انما زواج المعلمة ظل مرفوضاً مدة أطول ، ظلت ابتسامتها ، رائحة الانثى في عنقها ، ثيابها ، تصنع احلامه الاولى .

وخلا الاطار . . خرجت منه صورة ودخلت صورة . احب مرة ومرة ، ولكن على طريقته لا طريقة أبيه . كان محبوباً أكثر من كل فتيان الحي . كان شاذاً اكثر منهم ، وكذلك مدللاً ، وقالت له امرأة مشبوهة ومجتنبة بسبب ذلك : « انت تعجبني . . عيناك تلمعان ، عيناك عجيبتان » والى السجن حملت له الطعام ، تطوعت في حمل الطعام ، وعاركت الدرك حتى رأته . ولما زارها ، بعد خروجه ، اكرمته على طريقتها . فعلت ذلك ببساطة ، ولكن بسخاء . وحذّر الجيران أمه ، فقالت : « لن امنعه من زيارتها . . هي وحدها جاءت وشجعتني يوم اوقفوه ، ثم حملت اليه الطعام . »

وقال الأب « لماذا تمنعه ؟ » وجرب ان يزورهـا هو ايضاً ، لكنها صدته قائلة : « الابن لا الأب .. شبعت من الرجال » فلوى حنكه وعاودته طبيعة الذئب امام الشاة .

ثم كبر الفتى .. صار معلماً ، وكبرت ضجته في الحي . صارت الفتيات يرهبنه « رباه كيف يدخل السجن !؟ » ومع الرهبة صار اعجاب ، صار حب .. واجمل الفتيات ، اكثرهن صداً ، منحته شفتيها ذات ليلة .. الليلة التي خرج فيهـا من السجن ، مكافأة له على السجن . كانت طويلة ، مؤطرة الوجه بشعر اسود ، كفتاة النافذة هذه ، ومثلها ابتسمت له ، فقال في نفسه : « وهم ! » والوهم صار حقيقة ، ولمـاذا لا يصير الآن ايضاً ؟ . »

— ٥ —

كان المفروض ان تعود ام بشير في المساء او اليوم التالي ، ولكنها غابت ولم يظهر لها اثر ، فقال في نفسه : « اخطأت ! » . حملته الظنون في اتجاهات شتى ، واغتم في وحدته دون ان يفاتح خليل في الامر .. اولاً لا يريد ان يقول له انه كلف ام بشير بمهمة من هذا النوع .. وثانياً لن ينتفع بشيء لو قال . سيطرق خليل كعادته ، معبراً عن انتقاد مبطن . أما اذا علم ابو خليل ، فالنتيجة

حرمان ام بشير من دخول البيت . وكان فياض يعرف ان امبشير تهزل أكثر مما تجد .. شجاعتها فقط جعلتـه يعتمدها . ثم ليس له سواها في ايصال الرسالة الى العنوان الذي احتفظ به لوقت الحاجة. الوضع السياسي متو.. ، وعليه ان يطلع اصدقاءه على انـه فشل في الاختباء في هذا البيت المكشوف . وهو واثق ان الجيران يعلمون بوجوده ، ويرونه عندما يخرج الى المرحاض ، اضافة الى ان لسان ام خليل قد أدى مهمته في الثرثرة ، وعليه أن يتدبر أمره .

بدا خليل مشغولاً هذه الأيام .. ازدادت اجتماعات النقابة وطالت حتى لم تعد ام خليل تنام ، فدخلت على فياض شاكية :

– اسمع يا فياض . اسمع يا ابني . خليل اخوك ، فانصحه بالابتعاد عن الشر .. خليل يلعب بالنار يا فياض .

– وما هي النار التي يلعب بها ؟ .

– الا تعيش في البيت ؟ ألا ترى الاجتماعات ؟

– هذه اجتماعات نقابة .. العمل في النقابة غير السياسة

– انا لاأفهم هذه الأمور .. اقول لك خليـــل يلعب بالنار ، وسيحرق نفسه ويحرقنا .. الا ترى حالنا ؟ لاتوجد ثياب على ظهورنا ، ولقمة الخبز لانحصل عليها إلا بألف جهد .

– اذن على ماذا تخافين ؟

قالت ام خليل مذعورة :

ـ على ماذا اخاف ؟ اخاف عليه .. الم تخف امك عليك ؟ الله يساعدك يانزهة !

سكت لـكي لا يثور ..

« نزهة بعيدة الآن .. لقد خافت هي الاخرى ، وسمع منها نفس الكلمات .. ولكن ماذا بعد ؟ دعها تخف .. اكثر الامهات يخفن .. حياة البيت .. آه ياام خليل .. لوعملت خارجه يوماً كأم بشير .. مهما يكن فانا لست من رأيك ، ولكني احتفظ برأيي .. دعيني .. لاتعذبيني »

وقالت ام خليل التي لاحظت ان فياض نسي وجودها :

ـ انت لايهمك ان نحترق .

فنهض فياض عن السرير وقال :

ـ ارجوك لاتتهميني .

ـ انا لا اتهمك .. ولكن خليل يحترق ..

فغمغم بنبرات قاسية :

ـ كلنا نحترق !

وانتفضت ام خليل ، ثم انسحبت مغيظة وهي تقول :

ـ نحترق ولا نبتعد عن النار ؟ جنون !

فقال فياض في نفسه : « نحن بحاجة الى بعض الجنون . » قرر ان هذه الاسطوانة ستعاد في السهرة فتمتم : « لااريد سماعها مرة اخرى .. سأمكث في الفراش متظاهراً بالنوم » ..

غير ان السهرة مضت على نحو آخر .. امتلأ البيت بالضيوف .. جاءت اخوات ام خليل وازواجهن وابناؤهن .. ولأنهم يعرفون بوجوده فقد خرج وجلس معهم ، ثم اطلت ام بشير ، فقال في نفسه : « جاء الجواب » .. لكنها كانت مشغولة بقضية اخرى ، وقد طرحت، في هذا « المجلس العائلي »، موضوعاً لم يخطر لاحد على بال . كانت لديها صفقة زواج شغلتها عن كل شيء ، حتى عن جواب الرسالة .

وللتعبير عن جدية الموقف ، والارجح لاكتساب ابي خليل ، حملت معها زجاجة عرق ، وضعتها على الطاولة وقالت للجميع :

- اشربوا ودعونا نتحدث بدون مزاح .

وضحك الحاضرون فيما ابوخليل يفتح زجاجة العرق ويتذوقها بانتظار الكؤوس .. وسرعان مابان الارتياح في وجهه ، فادركت ام بشير انه لا يعارض في بحث موضوعها ، وعلى هذا تنحنحت وقالت :

- العقبى لأولادكم .. جميعكم مدعوون الى العرس .

والتفتت الى فياض واضافت :

- انت ايضاً تفضل اذا استطعت .

فتدخل ابوخليل في قول حاسم :

ـ اتركي فياض جانبا .
وقالت ام خليل نافذة الصبر :
ـ الدعوة وصلت .. ولكن العرس لمن ؟
ـ عرسي !
فصاحت الاخوات الثلاث بصوت واحد :
ـ ياشيبة الكلب !!
وقال ابوخليل وهو يملأ كأساً جديدة :
ـ اتركونا نفهم .. (والتفت الى ام بشير قائلا) ومن هو العريس ماشاء الله ؟ ومتى تتزوجين ؟
ـ انا لم أقل سأتزوج .. انا سأزوج .
ـ هه (قال ابوخليل مستدركا) هذه مسألة ثانية .. ومن هو الذي ستزوجينه ؟
ـ ابن البيك .
قالت ام خليل :
ـ انت تزوجين ابن البيك ؟ واي بيك هذا يامجنونة ؟
ـ بيك بالاسم .. اما في الواقع فعلى الارض ..
قال ابوخليل : ـ هذا عمل خير !
ـ وعمل شطارة !
ـ حلال على الشاطر .
فمدت ام بشير يدها الى صدرها ، ونترت ورقة نقدية القت بها على الطاولة وقالت :

- تعجبني يا ابوخليل .. كلامك حلو .. وهذا ثمن قنينة عرق ثانية .. اشربوا .. اشربوا على حسابي .. انا اشتغلت وحلال على الشاطر ، انا آكل واطعم .. المثل يقول « الذي لايطعم التسعة لايأكل العشرة » وأنا سأطعم التسعة والنصف ، سأطعم العشرة كلها .. حرة ام لا ؟

- حرة والف حرة !

إزدهت ام بشير ووضعت رجلا على رجل واردفت :

- الحياة لاتقتل الا الذي يخافهـا ، وانا ، بحمد الله ، لاأخاف الحياة .. انا امرأة ورجل .. ربيت اولادي وزوجتهم ، ربيت نفسي ، وعملت الخير ، واشتركت في المظاهرة ..

تحركت اسطوانة ام خليل ، فبادر ابو خليل الى رفـع « الابرة » ، وقال لأم بشير بلهجة آمرة :

- لاتدخلينا في السياسة .. خلينا في الزواج .. من هو ابن البيك هذا ؟

- ستعرفون .. لاتستعجلوا ..

واشعلت سيكارة واضافت :

- تعرفت عليه في معمل العسيلي في الاسبوع الماضي . قال لي انه غريب وفقير ويريد السترة : سألته : السترة ام الجمال ؟ قال : السترة . قلت : عال ! تعجبني ، العاقل من ستر نفسه .. مطلوبك

عندي .. خطفت رجلي الى بيت زكية وقلت للأم : مارأيك في تزويج البنت ؟ قالت : يد الله ويدك . قلت : سوق الزواج واقف هذه الايام .. وبنتك في حيطان الاربعين، فكم معها ؟ نهايته ..بعد زيارتين كانت الطبخة مطبوخة ، العريس غير مسؤول عن شيء .. يغسل رجليه ويدخل .. صهر بيت ، ما قولكم ؟

صاح الجميع : - ممتاز !

- ممتاز وبس !؟

- وكم اخذت على هذه الزيجة ؟

- ١٥٠ ليرة .

قال الشباب : - مبلغ محترم .

- واخذت مبلغا محترماً لكم ايضاً.

اتسعت العيون دهشة : - لنا نحن ؟ لماذا ؟

- لاجل الفرح .. البنت وحيدة لامها ، وقد تشكت من هذه الناحية ، فقلت لها : لا عليك ، اولاد اخواتي موسيقيون ، وسنعمل للمحروسة فرحة على الكيف .

هنا تدخل خليل ، باعتباره ضابط ايقاع سابق وسألها :

- كم المبلغ ؟

- هذا عامل مثلكم ، فقير وطالب سترة .

- عامل على الرأس .. لن نأخذ منه مثل الميسورين .. ثم المبلغ من ام العروس .

– ام العروس رفضت الدفع .

– اذن فلا حاجة للفرح .

– اي عرس بدون فرح ؟

– وفرح بدون فلوس ..؟

قال ابو خليل بصفته رئيس السن :

– هنا العقدة ، وهذه لايحلها اللسان وحده .

– المبلغ ٣٠ ليرة .. ادفع لكم ٣٠ ليرة .

قال خليل :

– تدفعين ١٠٠ ليرة وانت مرتاحة .

– ٥٠ ... والله لا أدفع فلساً زيادة .

– وبالله لا أحد يكسر يمينك .

تدخل أبو خليل لدعمها . كانت زجاجتا العرق قد كسبتاه نهائياً الى صفها ، ولم يكن العرس كله يسوى اكثر من ذلك ، فتردد خليل والشباب ، ثم وافقوا شريطة ان يكون المشروب والمازة كافيين . فقالت ام بشير وهي تضرب على رأسها :

– هذا الشرط على قرعتي .. اشربوا حتى تسكروا ... اتفقنا ؟

واجاب ابو خليل نيابة عن الطرف الثاني كله :

– اتفقنا !

انصرفت أم بشير مع الآخرين دون أن تلتفت الى فياض أو تقول شيئاً عن جواب الرسالة . خيل اليه انها نسيت رسالته . صفقة الزواج استغرقتها تماماً . كانت تضحك كأن ليس في الدنيا هم . وقالت تتحدى الجميع : « أنا لا أخاف الحياة » .

فكر : «هذا رأس الحكمة ومفتاح السر» . . وقال في نفسه : « تعلم اذن هذا الدرس . تعلمه من امرأة ، وماذا يضيرك ان تتعلم من امرأة ؟ » .

واضاف :هم ضحكوا ايضاً . ضحكوا من كل قلوبهم ، فمتى اضحك من كل قلبي انا ايضاً ؟.خليل ، الجاد القاسي ، ضحك ايضاً . وافق على الذهاب مع « التخت » لاحياء الفرح ، وسيضرب على الدف .. آه يا ضابط الايقاع . انت خلقت اضبط الايقاع ، فمن اين جاءتك هذه الصلابة ، من صنع لك هذه الأعصاب ؟»

ويغني ؟ وقال لي : « غن يارفيقي ، غن ، من اجل الذين هناك غن » .. والذين هنـــاك يغنون ؟ والدرب الطويـل ؟ ايها السائرون عليه ، ارفعوا رؤوسكم ، غنوا ، رغم السياط غنوا ، رغم السلاسل غنوا . لاتخافوا الحياة ، الحياة لاتقتل الا من يخافها . ام بشير قالت ذلك .. انتم لاتعرفون من تكون . قصة الفساتين الحمر ، ومظاهرة عمال الريجي ، « والشمعة والمغارة » لم تبلغكم . وليس بينكم من سمع بخليل ، وقليلون الذين عرفوا جيل التضحيات

والآلام والبحث في الظلام عن قبس من نور ، لان أحداً لم يكتب قصته بعد » .

نام كل من في البيت وهو مسهد . لو كان في وسعه ان يوقظ خليل لقال له : « ياصديقي ! علمني ان اضحك مثلك . دعني أقبلك . انت قاسي ، وانا أعرف سبب قسوتك . الأم الحقيقية صاحت بسليمان : « لاتقسم الطفل ، انه طفلي » وانت تصيح : لاتتخلوا عن الدرب، انه دربي ، عليه آثار اقدامي ، عليه الدماء من اقدامي .. لاتهدموا البنيان ، انه بنياني ، بنياننا ، انه لنا ، ابننا ، شرفنا ، رجاؤنا ، مستقبلنا . لاتقسموه ؛ لاتخذلوه ؛ لاتتهاونوا في امره ؛ لا تيأسوا من نصره .. غنوا ؛ غنوا ، ولنغن للذين هناك ، وتحت كل كوكب ؛ وفي كل مكان ؛ وفي كل سجن ، وجميع المضطهدين ؛ فلنغن . »

جلس فياض في فراشه وقد تسامت أشواقه . آه لو يستطيع أن يصور أحاسيسه في هـــذه اللحظة .. مارد هو لا نملة في قرية النمل . مارد بين مردة . قادر على تخطى تخوم ذاته . قادر على فعل ما يطلبونه منه . ليقذفوا به في وجه كتيبة. ليرسلوه الى مصارعة الاسود متحدياً وثنية الاباطرة . بلال! يا بلال ! يامارد الايمان في وجـه أقزام الجاهلية . ياحسن الخراط ، ياحارس دمشق ، غورو جلا عن دمشق ، وجنكيز خان ذكرى كئيبـة وملعونة . نحن وهم ، وهم يحكمون الآن ، الرجعيون يحكمون الآن ، ولسوف ينتهي حكمهم يوماً..سينتهي حكمهم يوماً ، ولأجل ذلك علينا أن نعمل ، ولأجل ذلك علي أن أكتب .

« أنظر ياسالم ، صورة من هذه ؟ آه لو تعرف ان تقرأ .. كنت قرأت لنا ما كتبه فياض « واذا كنت لاأعرف القراءة ؟ . الفهم مقصور على القراء فقط ؟ ابنك يشتغل في السياسة . . في الصحف لاينشرون إلا صور الذين يشتغلون في السياسة » خليل لم ينشروا صورته . أنا لم أر صورة خليل منشورة في الصحف أبداً . « هـذا لايمنع .. المرأة لاتعرف اكثر من الرجل ؟ أي زمان هذا ؟ أقول لك فياض يشتغل في السياسة . هذه نتيجة الكتب .. صدق منامي ، ابنك جن بالسياسة ، كنت اعرف أنه سيجن »، ولكن بنت الجيران قالت انها قصة .. «بلوطة .. أليست كتابة ؟ الكتابة سياسة ، افهمي يا امرأة .. ». امنعه اذن .. قل له ان يترك . « ولماذا ؟ دعيه .. الذي يجن بشيء لايشفى منه .. الذي ينزل البحر يبل رجليه .. من يقرأ الكتب يكتب مثلها» وماذا يكتب ياترى ؟ لو كنت افك الحرف ! يابني الصغير ، المعلمة قالت انك ستكون .. وقد صرت .. ترى ! المعلمة تقرأ ما كتبت ؟ وتعرف صورتك الجميلة ؟ وهذه الخربشة .. كتبتها أنت ؟ ومتى كتبتها ؟ في الليل ؟ لاتكتب في الليل .. أعتن بصحتك ، لأجلي اعتن بصحتك .. نم كثيراً حتى تسمن ، نم كثيراً حتى أراك وأفرح بك . »

ونام فياض .. طلعت الشمس ، في اليوم التالي ، وهو نائم . كانت الغرفة مشوشة ، والفرش مبعثرة ، والباب مغلقاً . فلما

فتح عينيه ، أمر في نفسه شاعراً بالجميـــل : « حرصوا على عدم ايقاظي . »

كانت سكينة تامة تحيط به ، وليس من أحد في البيت .

فتح الباب الفاصل بين الغرفتين ، وخرج يتنصت باتجاه المطبخ ، وتطلع الى الحديقة : لاأحد ! عاد واستلقى على السرير ، مستمتعاً بهذه الحرية التي اتاحها له فراغ البيت .

ام خليل و كنتها وطفلها في زيارة لبعض الأقرباء . وقد استدل من تهيئة الفطور له ان الزيارة ستمتد الى الظهر ، واذ ذاك ايقن انه سيكون وحيداً في هذا البيت الذي يحرص على الا يلاحظ احد من اهله اي سوء في تصرفه .. سيكون وحيداً ، وفي وسعه ن يقف حيث يشاء . خفق قلبه ، وابتسم وتمتم « ولم لا ؟ »

كان على يقين ان الوجـه سيطل ، ولو مرة واحـدة حتى الظهر ، واذا كان الاحساس متبادلاً ، فان الفتـاة في البناية الأخرى تتوقع انفراج الستارة . قال في نفسه : « لاحظت من غير شك ان البيت خال .. هذا واضح من المطبخ والحديقة .. وفي هذه الحال ، كيف تتوقع انفراج الستارة ، الا ان تكون عالمـــة بالسر ؟ » ثم اضاف : « علي ان اتأكد الآن .. سأجلو هـذه النقطة .. رأيت الوجه في الأيام الأخيرة بضع مرات .. كان البيت مليئاً ، والباب مفتوحاً ، وكان وجودي له ما يـــبرره . ربما حسبتني احد افراد

العائلة ، ولكن الآن؟ما هو المبرر لوجودي في بيت اهله غائبون.؟ اذا كانت تتوقع ظهوري وراء الستارة، فهي عالمة بأمري اذن » .

قطعت الحوار ، بعد قليل ، الابتسامة الصادرة عن النافذة المقابلة . فتاة البناية المواجهة كانت هناك ، في نفس وضعها السابق، وعيناها تتركزان على نافذته ، ولعلها رأت اهتزازات الستارة قبل أن تنفرج، فخفق قلبها،وارتسمت ابتسامة سرورعفوية على شفتيها، وتثبتت نظراتها بشكل انتفى معه كل شك .

لم يتراجع فعله سابقا .. نسي أن يفعل ، وربما لم يستطع. كانت الفتاة تبتسم .. له تبتسم .. « آه .. وأنا الذي كنت احسب اني غريب ! » .

التصق بالجدار .. ووجد ذراعه ترتفع وتشير اليها ، ومن النافذة الأخرى ارتفعت ذراع واشارت اليه . وجعلت الغرفة تدور، وانفتح باب ، وانسل جسم ، وارتعشت شفاه ، ثم ازت نوابض سرير ، وانشق قميص ، وتحررت حمامتان .. وفتح عينيه .

يا خمرة قانا الجليل[1] .. تباركت المعجزة !

— ٧ —

بعد ظهر الأحد ، خلا البيت كرة اخرى . ذهب الجميع الى العرس تلبية لدعوة ام بشير. واغتنم فياض الفرصة ليتملى الشجرة المحرمة. قالت الافعى لحواء : « كلي ياحواء من الشجرة المحرمة » .

(١) عرس قانا الجليل الذي تحول فيه الماء الى خمر .

وقطفت حواء تفاحة واغرت آدم ، وأكلا فوجدا نفسيهما عاريين .

الفتاة ، وراء نافذتها ، تفكر بحواء . وفيـــاض ، وراء نافذته ، يفكر بـآدم . وام بشير في العرس ، تحل خطيئة اكل التفاحة المحرمة ، واثقة ان ما يحلونه على الارض يكون محلولا في السماء .

كانت منهمكة في اعداد حفلة الاكليل منـذ الصباح ، وقد طغى وجودها على وجود ام العروس . هي الـتي اشرفت على الترتيبات كلها ، وكانت تقول لام العروس كلما لاحظت تباطؤهـا في تلبية رغبة ما :

- سيكون العرس اجمل يوم في حياتك ، وفرحته اكبر فرحة في عمرك .. العريس ابن حـلال ، شاب لا قلب لك ان ترشقيه بوردة ، وهو اعقل من بنت البيت . (وخفضت صوتهـا واضافت) وفحل . ظاهر من وجهه ، كيف كان المرحوم زوجك؟ لا تخجلي ، لا عيبة في الحلال ، هذه الناحية يجب تقديرها ايضا . . انا لا ازوج النساء للنساء . ام بشير انتقت لبنتك عريسا ولا كل العرسان (وبعد وقفة) لقد تمنيته ، والكلام بيننا ، (قالت ام العروس : تحت نعلك) لبنت اختي ، ولكن انت اختي ايضا ، وبنتك غالية علي مثل بنتي .

قالت ام العروس :

– عشت .. من يسع بالخير يشف الخير .

قالت ام بشير : هذا هو القصد ، وخاصة في هذه الايام . السينما افسدت الشباب . بنات مثل الورد ، وشباب مثل طرابين الحبق ، ولكن من يتزوج ؟ الاخـــلاق ، اعوذ بالله ، فسدت . المرحوم تزوجني قبل ان ابلغ الرشد (فقاطعتها ام العروس : انا تزوجت ، يا حسرتي ، بنت عشر سنوات ، وترملت بنت عشرين . ماذا رأيت من حياتي ؟)، فحدجتها ام بشير بنظرة تكذيب وقالت : لا تتحسري ، لم يفت الوقت ، اذا كان بنفسك فلا تحرميها ، اعتمدي علي ، بالمال ولا بصاحبه ، نومة دافئة تسوى الدنيا .. تسوى مال الارض ... سيأكلنا الدود غدا .

– يا ويلي . لا تذكريني بالدود .

– بعد عمر طويل .

– صدقت ، ولكن هـــل يمكن ان اتزوج ؟ وفي مثل عمري ؟ عيب .

– لا عيبة بالحلال .. لايوجد عيب .. هاتي الزوج الموافق وانا نفسي مستعدة .

– الله يطعمك .

– ويطعم القائلة ايضــا .. الله يطعم المشتاق .. الزواج سترة في هذه الايام .. زماننا يا اختي مضى ، الشباب لا يتزوجون

اليوم ، ولمـــاذا يتزوجون ؟ انزلي الى البرج ، اعوذ بالله ، البنات تتحرش بالشباب في عز النهار .. وفي الليل ؟ لا أحد يعرف الحياء. صرنا مثل القطط في شباط ، وبيوت الهوى على عينك يا تاجر ، ويا ويل الذي عنده بنت مستورة .. اما الذي عنده بنت فوق الثلاثين (وكانت العروس فوق الاربعين) فقد انتهى امرها ، تموت ولا من يقول لها من انت .

– الى هذا الحد ؟

– واكـــثر . . سوق الزواج واقف . . في الشهر لا يجري اكليل .

– صحيح ، والله صحيح ، كلامك ذهب يا ام بشير .

– كلامي واقع يا اختي .. انا اعرف مـا يجري ، واذا سعيت في خير اسعى بـه للمستورات ، لبنات الحـلال . وكنت افكر في بنتك من زمان ، ولكن العريس الذي اريده لها لم يأت، وفجأة اتى ، حظها اتى ، واي حظ ، الله يطعم كل مشتاقة .

– الله يديك ، هذا من فضل الله وفضلك . قدرني المولى على مكافأتك . اطلبي ، كل طلب منك على الرأس .

– لا أطلب شيئا لنفسي .. انت اختي ، وبنتك بنـتي ، والفرح فرحي .

– يسلم فمك ، مسك ، تصرفي على كيفك .

بعد هذا التفويض ، تصرفت امبشير على كيفها . اكثرت من الخمر والمازة تنفيذا لوعدها للشباب ، وارتدت الفستان الجديد الذي اخاطته لها العروس لمناسبة الفرح ، واطلقت منذ الصباح ، زغاريد متتابعة ، واوصت باقامة مأدبة قبل الاكليل ، حضرها ، اضافة الى العريسين وام العروس ، ابو خليل وبعض الاقرباء .

وصار العرس في الموعد المحدد ، فعزف « التخت » ابهج الحانه واغنياته ، ورقص العريسان ، ورقصت ام العروس وابو خليل ، ودام الفرح الى منتصف الليل ، ثم انصرف الجميع ، وقال خليل لام بشير : كيف رأيت العرس ؟

ـ تسلم ايديكم .

ـ بليّ (هاتي) اذن .

ـ على الرأس .. الدفع في البيت .

ساروا الى البيت ومعهم ام بشير . كان فياض نائمـــا فاستيقظ ، وخرج من غرفته ليتلقى بعض حلويات العرس باعتباره مدعوا معذورا .

كانت ام بشير مسرورة على نحو ظاهر ، وتريد ان تتكلم على الفرح ، ولم تنس ان تقلد حركات العروس وامها ، وقلدت كذلك رقصات بعض المدعوين ، فتململ خليل وقال :

ـ خلصينا .. بليّ .

ـ طيب .. لماذا العجلة ؟

ـ الدنيا نصف الليل ، ولدينا غدا اعمال ، هاتي فلوسنا وانت حرة .

ـ ومن قال اني سآكل فلوسكم .

ـ طيب هاتي اذن .

ـ اما قلة ذوق .

صاحت ام خليل :

ـ قلة ذوق منك .. الاولاد يطلبون اجرتهم لا صدقة .

ـ ومن قال اني عاصية باجرتهم ؟

ـ ادفعيها اذن .

مدت ام بشير يدها الى صدرها وأخرجت حزمة من الليرات ، القت بها على الطاولة وقالت :

ـ خذوا . هذه اجرتكم .

تناولها خليل وعدها ، وفجأة ضرب بها وجه الطاولة صائحا :

ـ بلا اكل هواء .. هـــذه اربعون ليرة .. هاتي عشر ليرات ايضا .

ـ ولا فلس واحد .

ثاروا كلهم ، وتدخلت ام خليل .. علت الاصوات ، ولم تتزحزح ام بشير عن موقفها :

ـ هذه اجرتـكم .

ـ اجرتنا خمسون ليرة .. شرطنا خمسون ليرة .

ـ انا لا انكر .

ـ واين العشر ليرات الباقية .

ـ هذه حصة ابني .. ابني غنّى .

دهش الحاضرون لحظة ثم قالوا :

ـ ومن كلفه بالغناء ؟

ـ انا .. انتم عزفتم وابني غنى .

ـ ونحن غنينا .. انفلقنا من الغناء .

ـ غناؤكم بدون ابني فالصو (وملتفتة الى ابي خليل) خدعتك بالله ، غنى ابني ام لا ؟ ألم يكن صوته مثل «البوري» . ؟

ـ نعم غنى .. وكان صوته مثل البوري .

ـ اذن العشر ليرات اجرته .. تعبه .

قال ابو خليل :

ـ اذا كانت الاجرة حسب التعب ، فانا ايضا تعبت ، ابنك غنى وانا صفقت .

انحنت ام بشير على المبلغ الملقى على الطاولة ، فسحبت ليرتين وقالت : ذكرتني والله .. خذ .. هذه اتعابك .

انفجر الضحك دفعة واحدة ، وشارك فيه فياض حتى دمعت عيناه ، وسارت ام بشير باتجاه الباب وخليل يتهددها .

- طيب يا ام بشير .. خذيها مني ، في المرة القادمة نتحاسب.

وقال ابو خليل وهو يضع الليرتين في جيبه :

- لاتهددونا ، عند اللزوم نعمل اكبر عرس .. دربكة « الشاقوف » حاضرة ، وانا اصفق ، وبشير يغني .

وصاحت ام بشير :

- يسلم فمك يا ابو خليل . (والتفتت الى الشباب واضافت) قال مز ّيكاتيه قال !

- ٨ -

في الساعة العاشرة من الليلة التالية دق الباب دقة غريبة ، وعادت الكنة التي ذهبت لتفتحه مبغوتة : رجل يسأل عن فياض !

هب ابو خليل واقفا ، واسرع فياض الى الغرفة الثانية ، بينا تحركت ام خليل بدافع من فضول ، فاقتفت خطوات زوجها .

كان امام الباب رجل غريب ، فخرج اليه ابو خليل رادا الباب وراءه ، وران على البيت من الداخل فترة ترقب وصمت .

- نعم (قالها ابو خليل بجفاء ، دون ان يدعو الطارق الى الدخول) ماذا تريد ؟

ـ هل خليل في البيت ؟

ارتاح ابو خليل فعدل لهجته :

ـ لاياعيني ، ماذا تريد منه ؟

ولاحظ ، في نفس الوقت ، شخصا يقف عند باب الحديقة من الداخل ، فعاوده الحذر . قال الشخص الواقف امامه :

ـ نحن اصدقاء خليل ، واصدقاء فياض ، نريد ان نراه .

ـ خليل غير موجود ، وليس عندنا شخص اسمه فياض .. اخطأ الذي ارسلكم .

اطرق السائل وظهرت عليه الحيرة ، ثم استدار ومضى الى الرجل الواقف في مدخل الحديقة .. كان ابو خليل يراقبهما ، ويده وراء ظهره ، تدفع ام خليل التي اطلت برأسها من الباب . كان شارباه يتحركان بعصبية ، فهو منذ وصول فياض ، يترقب مفاجأة كهذه ، ولو كان خليل في البيت لكفاه مؤونة هذا الموقف ، وعلى اية حال لن يقول لهما شيئاً عن فياض ، ولن يسمح لهما بالدخول . هو ليس شابا ، ومع ذلك قادر على الدفاع عن بيته ، وسيفعل كأيام زمان « حين كان يأخذ ثلاثة بصدره » . خوفه الوحيد أن يطل رأس أم خليل من الباب او النافذة فتتكلم وتفضح السر .

عاد الشخص وبيده ورقة ، ناولها لأبي خليل قائلا :

ـ قد يكون هناك خطأ في الموعد .. خليل يعرف اننا

سنزوره ، وانت تقول انه غير موجود ، فاذا كنت لاتسمح لنا بالدخول لانتظاره ، فالرجاء ايصال هذه الورقة الى ضيفكم ، وهو يعرف ..

فكر ابو خليل : « فخ » ؟ وقال في نفسه : « لا .. لن اسمح لهما بالدخول ولن اسلم الورقة لفياض .. عند اللزوم انا معه ومع خليل ، وفوق ذلك هناك كرامة بيتي .. »

ـ قلت لك خليل غير موجود ، ولا ضيف عندنا .. تفضل (واعاد اليه الورقة) ومع السلامة .

قالها بحسم وجفاء وهو يغلق الباب بيده من وراء ظهره . ولكن أم خليل وقد تعذر عليها الاطلال من الباب ، كانت قد مدت رأسها من النافذة وقالت :

ـ خليل ابني .. ماذا تريد منه ؟

ومن هذه النافذة رأى فياض وجه صديقه الواقف عند باب الحديقة ، فاندفع ينادي :

ـ ياابو خليل ! هذا صديقي .. قل له انا موجود .. ادخله.

رفض ابو خليل بادىء الامر ، بل اغتاظ من تصرف فياض: « في هذه الأيام لاتوجد صداقات » ، لكن فياض فتح الباب ، ونادى صديقه فانزاح ابو خليل من الطريق ، وقد اضمر ان يعاتب فياض ويقسو في العتب .

قال الصديق لفياض ان الرسالة وصلت في حينها ، ولم يستطع الاتصال به لاسباب قاهرة ، وعليه ، الآن ، ألا يطيل المكوث . ثم اضاف : « ستذهب معي » ففكر فياض : « كيف السبيل الى الى التفاهم مع ابي خليل الرابض ، كحارس مستقتل ، في الغرفة الثانية ؟ »

ولكن خليل انقذ الموقف بجيئه . وكان والداه وزوجه في حال من الترقب المرهف ، وهبت امه قائلة :

ـ في الداخل شخص غريب ينتظرك .

وأطل الغريب من باب الغرفة قائلا : « تأخرت». فأجابت أم خليل : « كان في الجامع » ، وانضم خليل الى الرجلين ، بينما ظلت العائلة على نار بانتظار النتيجة . كان الوالد يدخن ، والوالدة تدق على صدرها ، وظلت الكنة مبهوتة .

. . ولم يلبث خليل ان خرج ليعلن ان فياض ذاهب لتوه وان اقامته عندهم انتهت .

ـ الى اين ؟ صاح ابو خليل وقد اجفل للنبأ ، بينما قالت الأم وكنتها بصوت واحد : ياحرام !

وما ان تبددت الدهشة حتى بدا الثلاثة معارضين ، ممحت الكنة لنفسها ان تقول ان فياض متضايق من كـــثرة الاولاد ، وعكست تعابير وجهها الاسف الشديد لان مشكلة الاولاد لا حل

لها ، فيما قالت الأم : فياض لا يشبع عندنا . فرد الأب : يصيبه ما يصيبنا ، لن اتركه يغادر البيت . عندئذ تدخل الضيف في شيء من الجد والحزم ، موضحاً ان بقاء فياض عندهم لم يعد ملائماً ولا مأموناً ، فقضى بصراحته على كل معارضة .. ثم عاد وطمأنهم الى ان فياض سيكون بأمن ، وسيزورهم من حين الى حين ، واذا تحسن الوضع فقد يعود للاقامة عندهم .

وشرع فياض بارتداء ثيابه . كان ذاهلاً قليلاً ، ورغبة مزدوجة ، في الذهاب وفي البقاء ، تسيطر عليه ، وقد مضى الى النافذة فأزاح الستارة ونظر .. لم يكن ثمة احد .. النافذة المواجهة مغلقة ، والظلام مخيم ، ومن يدري اين الوجه الحبيب الآن .

ارخى الستارة ببطء : « وداعاً للرأس الصغير الجميل » ثم حمل حقيبته وخرج . نظر اليه صديقه وضحك : « ما هذا ؟» قال فياض : « ثيابي » . فسأله الصديق : « وهل تحمل ثيابك في حقيبة؟» فقال فياض محتاراً : « وكيف يحمل الناس ثيابهم ؟ » . عندئذ ربت الصديق على كتفه ملاطفاً وقال :

ـ انت لست كالناس .. تذكر هذا .. انت مسافر من نوع آخر ، بدون حقائب .. دع حقيبتك هنا وستصلك .

وفعل فياض ما طلبه الصديق ، فلما صارا في الشارع ، قال له بصوت آمر :

ـ اتبعني .

وتبعه .

ـ ٩ ـ

تبعه في شيء من حذر .. ما أشد قلق الأعمال السرية وأكثر سحرها . الشوارع خالية تقريباً ، ونسمات لطاف تمر بصفحة وجهه كتيار بارد فوق حرق غشاني على الخد .. سيارات تمر في اتجاهات شتى .. وأضواء النيون .. ونجوم حييات في السماء .. وبيوت الأشرفية تتراجع الى وراء .. والمجهول يبدو رصداً من أمام .

كان فياض يفكر بالملجأ الجديد المنتظر ، وقلبه يلهف الى التجوال على غير هدى في بيروت الصاخبة ، ذات النهارين ، والذراعين الكبيرتين ، والشدقين الواسعين ، الى درجة ابتلاع كل الناس ، وامتصاص كل الناس ، في نهم عجيب ، وسرعة بالغة .. ثم لاشيء. وفي اعماقه كان احساس اسيف بالحرية ، كذاك الذي يستشعره السجين المنقول من سجن الى آخر ، فهو يرغب ان تطول المسافة ، وان ينتهب الرؤى . وكانت صور الذين ودعهم تعتاده ، وصور الذين سيلقاهم تتراءى له عبر تساؤل خيالي نشيط ، وقد رسم للحياة الجديدة صورة لا يدري لماذا هي وليست غيرها ، فقد خيل اليه انه سيعيش في كوخ بطرف بستان كبير ، بعيدا عن الناس ،

قريبا من الخضرة والشمس .. وفيما هو سادر، ابصر صديقه ينعطف ويتوقف ، ثم يدخل بناية كبيرة قائـــلا : وصلنا ! ثم قرع ، في الطابق الثالث ، احد الابواب ، فظهرت امرأة شابة وراءها طفلة وافسحت لهما الطريق مرحبة ، فدخلا يمشي على جانبه الايسر بابان، عرف في احدهما المطبخ ، وانتهيا الى صالون انيق ، فجلس صديقه ودعاه الى الجلوس ، وجاءت صاحبة البيت فسلمت ، وقام الصديق بمهمة التعريف فقال :

– نادر .. (واشار الى المرأة واضاف :) هناء ..

انحنى فياض للمرأة وصافحها ، متعجبا من اسمه الجديـد . انه نادر الآن .. لقد انتهى ميشيل ، وانتهى فياض، وعليه ان يحفظ ذلك ، عليه الا يتحدث بشيء عن ماضيه وهذا افضل .. سيتخلص بـذلك من اعباء الحديث عن حياته الخاصة .

وحين ذهبت ربة البيت لاعداد القهوة ، لحق بها صديقه فتحدثا بضع دقائق ، وعاد اليه يودعـــه ويرجو له الراحة والعمل الطيب في هذا الجو الملائم ، وانصرف فوراً ، واعـداً بزيارته في أقرب فرصة !

كان الصالون واسعاً ، جيد الاثاث ، وعلى الجدران صورة أو صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان ، وله باب جانبي على شكل قوس من الاعلى ، تليه غرفة صغيرة للطعام والشراب ، يحسب

الداخل اليها انه يلج كهفا في احد المشارب الحديثة . وفي نهاية الصالون نافذة واسعة جداً ، بعرض الجدار كله عليها ستارة مخملية .

وعادت السيدة تحمل القهوة ، وترحب بـه ، ثم ابلغته ان جوزيف ، زوجها، سيتأخر في العودة ، ويستطيع هو ان يدخل غرفته ويستريح ، واذا ما احتاج الى شيء فليطلبه منها ، وارته الغرفة والحمام ، وحيته وانسحبت الى غرفتها ، فقام من فوره الى غرفته ، وبعد قليل كان في فراشه ، يفكر أين نام أمس ، وأين ينام اليوم .

— ١٠ —

عاد جوزيف بعد منتصف الليل ، فلم يوقظ فياض ، وفي الصباح ذهب الى عمله باكراً ، وقد أوصى زوجته الا تزعج الاستاذ وافتتح حديثه معها قائلاً :

ـ لمن قرأت من الادباء العرب ؟

ـ في المدرسة ؟

ـ بعدها .

فكرت هناء ،وقال جوزيف :

ـ لم تقرأي لاحد .. هذا واضح .

قالت محتجة : كيف لم أقرأ لاحد ؟ بدأت برواية ..

قاطعها : أعرف .. بدأت بها في شهر العسل .. واليوم

عندنا بنتان .. اسمعي ، لو زارنا فلوبير أو موباسان فماذا كنت تفعلين ؟

ـ يا يسوع !

ـ لا تتعجبي . ضيفنا من هذا النوع .. فهمت ؟

ـ ولكن ضيفنا بشعر .

ـ وهل كان موباسان أقرع ؟

ـ أقصد ان ضيفنا شاب .

ـ كل العجائز كانوا شباباً .. المطلوب : عدم فتح الراديو .. عدم الازعاج .. عدم « طق الحنك » .. عدم الكلام ، خاصة اذا كان صافناً ، لأنه في تلك الساعة يناجي الالهام .. الكاتب انسان غير عادي .. شاذ . أبرز شيء في الكاتب انه شاذ !.

ـ أعرف .

ـ من اين تعرفين ؟

ـ حين تكتب انت تسب الدين .

ـ ياسلام ! سب الدين شذوذ ؟

ـ ولكن الاستاذ لايبدو شاذاً .. لاشيء غير عادي ابداً .

ـ مهما يكن .. مهما يكن .. الانتباه واجب . انامشغول جداً اليوم ، ملعون ابو المفروشات ، خشبية كانت أم معدنية.

قال ذلك ومضى الى عمله .

* * *

جوزيف يشتغل الآن في معمل للمفروشات الخشبية والمعدنية يملكه شريكان ، احدهما عربي كسرواني يؤمن بالله والعذراء وابنها يسوع ، ولاينسى تكريم القديس يوسف شفيعه ، وزيارة القديس شربل في المناسبات ، ولكن لاينسى ايضاً ان يشتم جميع القديسين في المعمل ويعود ليطلب غفرانهم في البيت . اما الشريك الآخر فارمني ، يلازم المعمل من الصباح الى المساء ، وقد حصر همه في منازعة شريكه على السلطة ، ولأن هذا الشريك غائب ويمثله جوزيف ، فقد وجه كل سهامه الى هذا «المندوب السامي» الذي بدا وهو يدير المعمل كجنرال بدون اركان حرب ، وبدون جنود احياناً .

كان الشريك الكسرواني دكتاتوراً في محلة القديم ، فما ان صار شريكا في هذا المعمل حتى ظن نفسه صاحب مستعمرة وتحول الى امبراطور ، وراح يعامل الجميع ، بما فيهم شريكه و « مندوبه السامي » ، معاملة كلها احتقار .

وقد جهد جوزيف لتنظيم المعمل الغارق في الفوضى ، ولوضع مخطط حسابي لائق . وقال في نفسه هذا الصباح « سأقلع عن الشتائم منذ اليوم .. لن اسمح لأيما تفاهة أن تثيرني ما دمت أمام مسؤولية فكرية ، وحين اعود مساء الى البيت يجب أن تكون استعداداتي جيدة للتلقي .. لقد عشت طويلا في غير اجوائي .. عشت بين الجرذان في قسم قطع التبديل ، وأعيش بين الفئران في هذا المعمل ، ويجب أن يتغير كل شيء . أنا اسكن مع اديب الآن .. مع أديب في بيت

واحد .. ذلك ما كنت احلم به.. كنت احسب ان الحياة العقلية غابت عني ، وها هي حياة عقلية في متناولي .. ستتفتح ازهـاري ، ويصبح في وسعي ان اسمع رأياً في محاولاتي الادبيـة .. موباسان نفسه كان يطلب رأي فلوبـير ، وجورج صاند مـا كانت شيئاً لولا الصالونات الادبيـة .. الانسان يولد اكثر من مرة ، وأحسب انني اولد من جـــديد .. ان ساعة بعثي تقترب ، وسأشير الى ذلك في يومياتي .. فقط لتكف هناء عن الكلام والازعاج .. ليلهم اللههناء أن تكف عن الكلام والازعاج ! »

— ١١ —

حين استيقظ فياض في الصباح، احس بدهشة لعمق السكون من حواليه . ولو لم يفتح باب غرفته لمـا دخلت عليه هناء حاملة قهوة الصباح التي قدمتها بكثير من الحذر واللطف . كانت تختلس نظرات متفحصة لترى ما فيـــه من شـذوذ ، ثم طفقت تـدور في البيت ووراءها صغيرتان جميلتان جداً ، صغراهما تخمع ، وتتعلق باذيالها ، وتتلقى دون قدرة على الرد ، مشاكسات اختها الأكبر ، والأنشط بشكل ظاهر .

قالت هناء :

- جوزيف لا يعود قبل المساء .. خـذ حريتك في البيت

، واجلس في الصالون اذا أردت، لكن انسحب الى غرفتك اذا رن جرس الباب .

جاءته بصحيفة الصباح وبعض المجلات، وسحبت طفلتيها الى المطبخ واغلقته دونها ، حتى سمع بكاء الصغيرة الحمقاء ، وخربشة اظافرها على الباب كقطة حبيسة تحاول الافلات .

كان البيت نظيفاً ، مرتباً ، وحين وقف الى نافذة الصالون العريضة ، طالعته الحديقة التي تتوسط اضلاع البناية الكبيرة ، تطل عليها الشرفات والنوافذ المقابلة والمجاورة . كان في وسعه ان يرى الأشكال الآدمية ، وخاصة النساء ، كل وقت ، وبوضوح ، وان يستمتع بالشمس ، ويعمل في هذا الجو الملائم كما قال صديقه .

وعلى مائدة الغداء اعتزم وضع حد للسلوك المصطنع ولحبس الطفلتين بسبب وجوده . قال لهناء انه سيكون سعيداً اذا وجد الصغيرتين تتمتعان بالحرية اللازمة لهما ،وانه سيكون، خلال اقامته، واحداً من البيت ، فلا موجب للرسميات ومظاهر التكريم الزائدة التي تجعله يشعر بالغربة .

عندئذ شرعت هناء تعود الى طبيعتها، فراحت تتكلم بتحفظ أولاً ، ثم روت له ، دون أن يتوقع ذلك ، اشياء خاصة ، كثيرة، تتعلق بالبيت والجيران ، وسألت ما اذا كان صوت الراديو يزعجه، فلما اجابها بالنفي ، فاجأته بهذا السؤال :

ـ هل تكره عبد الحليم ؟

ـ ابداً .

ـ عـال .. جوزيف يكرهه جـداً .. يا يسوع يا استاذ ! هل يمكن أن يكره انسان عبد الحليم ؟

سكت متجنباً معارضتها، واستأذنها في الانسحاب الى غرفته حيث شرع بقراءة الصحف والمجلات حتى العصر، حين نادته لتناول القهوة ، وجلسا يتحدثان كرة اخرى، وهي ما تفتأ تدس في الحديث حكاية عبد الحليم وبغض الرجال له . ولما سمعت صرير مفتاح الباب وثبت عن مقعدها هاتفة :

ـ جوزيف !

واسرعت في الممشى لاحقة به الى المطبخ المحاذي للباب ، وبعد دقائق اقتحم الصالون شاب وسيم ، فارع القـــامة ، ابيض البشرة ، يحمل الصغيرة على ذراعه ، ويمسح بيده على شعر اختهـا ، ومن نظراته وحركاته يتبدى المرح والأناقة .

ـ اهلا بالاستاذ اهلا .. تشرفنا .

ادرك فياض ، من الكلمات الأولى ، ان صاحب البيت من جبل لبنان . اسعدته طريقة الترحيب الصريحة ، القلبية .. وباغتـه جوزيف بنبرة تأكيد :

ـ قصتك الاخيرة رائعة .

ـ قصتي ! ؟

ضحك صاحب البيت : « نعم قصتك .. أنا من قرائك يا استاذ » .

سكت فياض راجياً أن يكون هناك اشتباه ، وصاح جوزيف بزوجه :

ـ هناء ! هل استراح الاستاذ جيداً ؟ هل أكل في مواعيده؟

قالها ، وهب واقفاً دون أن ينتظر جواباً .. كان خليقاً أن يكون ممثلا ناجحاً في الادوار الغرامية ، فهو جميل ، رشيق ، جم الحيوية ، وقد تضاعف امتنان فياض حين عاد جوزيف ودعاه الى أحدى الغرف ، وأشار الى رفوف الكتب قائلا : المكتبة . . . تستطيع أن تطالع ما شئت .

ولحق به ، بعد قليل ، الى غرفته وقال :

ـ البيت كله تحت تصرفك ، لكن هذه الغرفة خاصة بك ، ولك أن تمنع أي انسان من دخولها حتى أنا .. نعم حتى أنا .. الادباء اصحاب ظرف ، يحلو الحديث معهم ، فازجرني اذا انسقت الى ذلك .. وقتك ثمين ، ومسؤوليتك كبيرة ، وينبغي أن نوفر لك اقصى الهدوء واقصى السرية . لقد عرفت انهم داهموا المكان الذي كنت فيه ، ومعنى هذا انهم يقتفون أثرك .

فتساءل فياض : « هل يقصد بالمكان الذي كنت فيه « مطعم الجبل » ام بيت أبي خليل ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً .. رد

شاكراً جوزيف على ضيافته ، بينما سحب هذا ابنتيه وأغلق الباب .

ولما بقي فياض وحيداً تذكر غرفته في بيت ابي خليل وحمد الله على السرية ونعمة الهدوء هنا .. تأثر جداً باقوال صاحب البيت ، وتحقق من مسؤوليته كأديب ، فاعتزم اتمام قصته الجديدة بسرعة .. وبينما هو يفكر بخاتمة لها ، طرق الباب بكثير من اللطف ، ودخل جوزيف متهللا :

– هل ازعجتك ؟ المعذرة . الادباء يدخنون كثيراً ، ومن باب الاحتياط احضرت هذا « الكروس » من التبغ .. وهذه الأوراق للكتابة . . أعمل .. ارجوك ، لاتفكر بشيء . لاتهتم بسوى الكتابة ، ولك مطلق الحرية في أن تكتب متى تشاء ، وتسهر الى أي ساعة تريد ، وتطلب القهوة في كل وقت ، واذا وجدت البيت خالياً من الزوار ، يمكنك الخروج الى الصالون او المكتبة او المطبخ .. تناول ماشئت من شراب او طعام دون دعوة منا . . أرجوك .. كن كأنك في بيتك ، وحافظ فقط على نفسك .. من الضروري الا يعلم احد بوجودك هنا ، ارجوك . لاتقلق . ولكن احترس ، غداً آتيك بما ترغب من مجلات ، ولك أن تختار الكتب التي تريدها وتنقلها الى غرفتك ، وهكذا تجد نفسك ، بقدر الامكان ، في وضع مريح صالح للعمل .

ومرة أخرى سحب طفلتيه وخرج على رؤوس أصابعه ، كأنه يطأ « المكان المقدس » تاركاً أفضل انطباع في نفس فياض الذي

ذهل لهذا التكريم ، وقال في نفسه : « مقامي هنا سيكون مثمراً جداً .. كل شيء يدعو الى الراحة والعمل ».

اشعل سيكارة وصمم على الشروع بالكتابة من فوره ، غير أن طرقاً خفيفاً تعالى على الباب ، واطل منه جوزيف :

ـ عدم المؤاخذة .. أنا ذاهب في عمل خاص (قالها بتفخيم وجدية) وقد اتأخر .. فهل تحتاج الى شيء ؟

ـ شكراً .. أرجو لك التوفيق ..

ـ ولك ايضاً .. آمل الا اغيب طويلا .. عمل النهارلأجل اللقمة ، وعمل الليل لأجل الفكرة ، واني لسعيد جداً بالعمل الثاني.

قال فياض :

ـ هذه هي الحياة .

فابتسم جوزيف وقال مؤكداً بالفرنسية : Oui C'est la Vie !

ونهض وأغلق الباب ..

« رجل آخر يغلق الباب .. فياض يغلقه بهدوء كيلاتستيقظ أمه . يقف لحظة ليسوي بضاعته في مطـاوي الثياب ، ثم يسير في عرض الشارع . الحراس لايولون اهتمامـاً الذين يسيرون في عرض الشارع ، موزعو النشرات السرية يسيرون على الارصفة ويلتصقون بالأبواب ، ومن أجل ذلك يجب السير وسط الشارع . وكموزع بريد ليلي ، حذر ونشيط ، كان يمضي . نشرة ، واخرى .. ثم اخرى .. ويتنهد عائداً الى البيت . وفي الصباح يذهب الى العمل ، والمدينة ،

على ضوء المصابيح الواهنة ، تقرأ ماوزع . لقد اعطيت زادها من يد مجهولة .

الرعشة قبل العمل ، والراحة بعده ، والشعور السعيد لكون الانسان يفعل شيئاً لأجل المستقبل ... تلك هي الحياة . Oui Cest la Vie يا جوزيف . انا ايضاً عشتها ، عرفت السير بالليل ، وفي مطاوي الثياب« بضاعة »ممنوعة ، كما عرفت الذهاب الى المظاهرات وتحت الثياب بيجاما .. وفي اول مرة اوقفت ، هزني الخوف وسترتني الظلمة . استطعت بجهد أن اسيطر على اعصابي ، وفي النظارة ضربوني حتى تورم وجهي وازرق ، وشهقت امي « يا حبيبي . ليتني مت قبل ان اراك على هذه الصورة» لكن الصورة كانت جميلة. كنت انظر في المرآة وابتسم ، وابتسمت لي الفتيات ، وحياني رجال الحي. دعوني الى مجالسهم ، ودعاني احدهم الى كأس ، وانا أمر بالخمارة .

جوزيف يحمل «بضاعة» ممنوعة ، ومحمد يحمل مثلها ، وكذلك خليل وياسر وصبحي ومصطفى ورياض . جيش من السعاة ، يزدادون ، ينقصون ، يزدادون ، واليد تكتب ، والآلة تطبع ، والأفكار تتغير ، والمطالب تشتد ، ويأتي ذلك اليوم .. آه .. كيف السبيل الى ذلك اليوم ؟ انت ، يا يومنا ، يا رجاءنا ، اسرع .. »

قام الى طاولة العمل .. وراح يكتب ، كمحموم ، وظل يكتب ، لكنه ، في الصباح ، مزق ما كتب . كان شيئاً فارغاً تنقصه البساطة ، تنقصه المعاناة .. فضرب يده على المكتب ، وصاح

بغير كلام: «يا للمهنة الحزينة ! احرق اعصابي ولااتوصل الىشيء ، نضبت ، قيامـة اليعازر اسهل من قيامتي ، علي أن ابعث نفسي والا هلكت.. »

- ١٢ -

اضيئت الغرفة المواجهة لغرفة فياض في بيت أبي خليل . رجعت الفتاة وامهامنالسهرة ودخلت كل منهما غرفتها.الفتاةحرصت على التقدم من النافذة بحذر،لتستمتع برؤية الوجه المعذببالانتظار، ولما لم تجد سوى الظلمة ارتدت خائبة ، لائمة نفسها لأنهـا سهرت في الخارج .

قالت في نفسها : «غداً صباحاً أراه»..نضت ثيابهاواندست في الفراش تاركة لخيالها ان يعرض صوره الاكثر جموحاً دائماً : ذات لحظة من الليل ، دون ان يفتحباب، دون ان يضطرب صدر بلهاث الخوف ، ينتصب أمامها متحديا «الناموس» و « الخطيئة المعبودة»، يأتيويأخذها بيناحضانه بقوة..باسم الحب يأخذهابقوة،ويشدها الى قلبه حتى لا يكون جسدان بل جسد واحد . . وحين يفيقان يمضيان بعيداً ، فرحين ، مرحين ، محبين للحيـاة ، ناضري القلب ، دون كآبة ، ولا غثيـان ، ولا دودة خبيثة تقرض الاحشاء . . يذهبانالىالبحار ،والجبال،والغابات ،يعودانالىالطبيعة . . يستعيدان

نشاطها ، يعيشان يقظتهما كاملة ، ليعيشا ، من بعد ، غيبوبتها كاملة ايضاً .

هكذا تريده ان يكون : جريئاً ، محتدماً ، لا يأتي ، كسائر الرجال، من الباب الواسع، ولا يستأذن مثلهم ، ولا يتلطف ويتظرف ، ويقول الكلمات الصغيرة ، اللطيفة ، الممجوجة ، بل يفعل اشياء اخرى ، جديدة، صقرية ، مجنونة .. انه هو .. صاحب العينين الناريتين ، الذي رأته في النافذة ، واحبته لغرابة وضعه ، ونفاذ نظرته ، ومظهر التحدي البادي في وقفته .

تأوهت وعضت طرف اللحاف باسنان مهرة تعض الشكيمة . قالت في نفسها : « إلام لا يأتي الي ولا يدعوني اليه ؟ قريب مني وبعيد عني، فالى متى يستمر في وضعه هذا ؟ ثم ما وضعه وما قصته، هذا المجهول الحبيس الذي ساقه القدر ، ليتعذب بي ويعذبني به ؟ وكيف يمكث حبيساً لو لم تكن له مشكلة ؟ وما هي مشكلته ؟ لماذا يتوارى ؟»

القت عنها الغطاء وقفزت حافية الى الأرض .. مضت كشعلة من نار لاتطفئها كل امطار الدنيا . كانت ترتدي قميصاً حريرياً طويلاً يتعلق بكتفيها بشريطين معقودين على شكل زهرة .. وكان احتكاك جسدها بالحرير يولد فيها احساساً لمسياً مهيجاً . فاذا وضعت راحتيها على ردفيها صدرت عن الملامسة تحتها ذبذبات انفعالية ناعمة ومثيرة، كتلك التي تستشعرها حين تشم عطر « السوار

دي باري » .. وكان القميص ، على حريريته الملساء ، يضايقها ، يلطم نهديها المكوزين ، فعل الاوراق المخملية مع التفاح حين يهزه النسيم ، فاذا أسرعت وخفق صدرها ، ضج النهدان في توثب طليق ، وبانت الحلمتان الخمريتان وهما تترجرجان وتنقران الحرير ، وجنت الغرفة بتهاويل الخيال المراهق المحروم .

جلست في الظلمة متكورة ، كقطة وراء النافذة . كانت تأمل ، ولا تدري لماذا ، أن يخرج في الليل الى الحديقة ، فلو كانت هي لفعلت ذلك .. وطال انتظارها عبثا . وراح النوم يراودها في ايماءات خاطفة لاتقوى على دفعها ، وبعد قليل اغفت ، وكانت اغفاءتها سحرية جدا .

— ١٣ —

انكب فياض على عمله في بيت جوزيف .. هو أيضاً فكر واغمض عينيه وتصور « النافذة المقابلة » . كان تواقاً وقادراً على الاندفاع كاعصار .. انه يحس ، وربما اكثر منها ، بالحاجة الى تحطيم الجليد المصطنع لحياته الداخلية ، ولكنه فيما نذر نفسه له ، كان يفهم قيمة التضحية التي تعلو على معنى اللذة .

ونقر عليه الباب في نحو الساعة الحادية عشرة ، وأطل جوزيف قائلًا بصوت مشبع بالاغراء :

ـ ما رأيك بكأس صغير ؟ (وأشار بيده راسما ، فعل الخمار الماهر ، حجم الكأس بسبابته وابهامه)

ـ لا أشرب بعد الطعام .

ـ الشرب لايحلو الا بعد الطعام .

ـ ولكن الوقت متأخر الآن .

ـ في هذا الوقت ابدأ عادة .. الواجب هو الواجب .. وبعد قضائه اسمح لنفسي بتناول عشائي مع كأس .. ومن عادتي أن اطالع وانا أشرب ، وقد احببت الليلة ان نتحدث قليلا ، فهل تتكرم علي بشيء من وقتك ؟

سار أمامه الى غرفة الطعام التي بابها مقوس كالكهف ،وكان على المائدة بعض الطعام وطبق من الفاكهة ، وزجاجة عرق، ومجلات وكتب نظرية . وكان جوزيف ناشطا للشرب ، يرتدي قميصاً مفتوحاً يكشف عن عنق وردي ، وتغزل عيناه ألقاً ينم عن فتوة وخفة روح ، ويتحرك بثقة ودربة ، وجاذب ما فيه يحببه اليه ويجعله يكتسب صداقته بسرعة . وكان حضوره على مائدة الشراب فاتنا، حتى قال فياض في نفسه : « لو كان جوزيف خمارا !؟ » ثم اكتشف بسرعة انه محدث بارع ، وثقافته الفرنسية رائعة ، وله محاولات أدبية ، وفخره بكسروان لاينتهي .

ـ اذا قلت كسروان قلت لبنان .. في هذه المنطقة جذور العربية .. الكسروانيون متحدرون من اصلاب قبيلة عربية شهيرة

وبعد عدة كؤوس ، تحدث جوزيف عن نفسه فقال :

- والدي لبناني عريق ، أما والدتي فاسبانـــية الجدود ، ولعلك لاحظت ذلك في ابنتي البكر ، فهي شبه جدتها .

كان فياض قد لاحظ الطفلة الجميلة بعينيها السوداوين الواسعتين ، ولونها الابيض المشرّب بحمرة خمرية ، وبنيتها الفارعة ، واعترف أن ذلك نتاج التطعيم . وأضاف جوزيف :

- أنا الأبن الأصغر لعائلتي .. شيطانا في صغري كنت .

قال فياض في نفسه : « وشيطانا لاتزال . »

- ومن شطارتي كدت ادفن نفسي حياً .

- لمـــاذا !؟

- تعلمت في دير كاثوليكي ، فقالوا ان صوتي جميل،وسعيت حتى صرت منشدا في جوقة الكنيسة ، وتنبه والدي الى ذلك ، فأراد تكريم العائلة بتكريسي تلميذاً للمسيح ، وهكذا وجدت نفسي راهباً في الدير .

- وكيف تخلصت ؟

- على يد ابنة الجيران .

- أحببتها ؟

- هي التي أحبتني .

- وتزوجتما ؟

ـ لا .. كانت جسرا فقط .

ـ الى القمر ؟

ـ الى سقر .

ضحك فياض لطرافة جوزيف .. كان هذا يشرب كثيراً والزجاجة تتناقص بسرعة ، وهو يتصرف بشكل طبيعي ، يوحي بأنه اعتاد أن يفعل ذلك كل ليلة ، وقد احمر قليلا ، وازداد وسامة ، وانطلق يتحدث بغير كلفة .

ـ وقعت في الحب مرة اخرى وتركت المدرسة .

ـ ومن أحببت ؟

ـ قل من التي أحبتك ؟ .. فتاة في الدير .

ـ لطيف !

ـ ثم شاع الخبر فنقلوها وطردوني .

ـ وماذا فعلت بعد الطرد ؟

ـ وقعت مرة اخرى .. أحبتني بنت أحد الملاكين ، ولما لم يكن هناك امل ، افترقنا بسلام .. ذهبت الى بعيد .. صرت معلماً في الجنوب ، في مرجعيون ، وبعد عامين تركت التعليم نهائيا ، أحبتني تلميذتي ، ووفاء لحبها تزوجتها ، وهي ام ابنتي كما ترى .

ابتسم فياض ونقر على الطاولة . من يصدق أن جوزيف ، العابث على هذا النحو ، كان جدياً قبل قليل ، يحمل بضاعة المعرفة ، كساعي بريد ليلي ؟ .

ـ زواجك لم يكن يمنع استمرارك في التعليم .

ـ هـــذا في رأيك ورأيي ، ولكن زوجتي تختلف .. تفضل العيش في بيروت .. جميـع أبناء الريف مثلها ، وهذا هو سبب الزحف على العاصمة ، كان الله بالعون .

ـ وماذا عملت في بيروت ؟

ملأ جوزيف كأسه وقال مبتسما :

ـ ماذا ؟ تحقيق ام قصة جديدة ؟

ـ معاذ الله ! حياتك شيقة ، خصبة .

ـ مهما تكن ، لا تستأهل أن نقضي السهرة بالحديث عنها .. لافائدة من الكلام على الماضي .. دعنا نتحدث في الحاضر والمستقبل ، دعني استفيد منك بعض الأشياء الأدبية والنظرية .. هذه فرصتي .

قال فياض :

ـ العفو .. مثلي من يستفيد من مثلك .

ساد صمت قصير ، ثم تحدثنا حول امور شتى ، واستأذن فياض في أن يأوى الى فراشه . ظل جوزيف في مجلسه ، وقد اعلن انه سيطالع الآن ، حتى خيل الى فياض ان صاحبه لن ينام ... بعد لحظات سمعه ينهض ، ويتجه الى غرفته في آخر المجاز .

واطفئت الأنوار وسادت الظلمة كل أنحاء البيت .

ظلت « فتاة النافذة » نائمة الى ما بعد الضحى ، وكانت قادرة ومحتاجة ان تنام الى الظهر ، لكنها استيقظت على فكرة النافذة ، أو أن هذه كانت أول ما نبه وعيها ، فنفضت عنها الغطاء ، ووقفت بقميص النوم ، عارية الكتفين ، تحدق في النافذة المقابلة .

لم تصدق ماترى اول الأمر . . كانت النافـذة مفتوحة ، مفتوحة تماماً . . وكان في وسعها ان ترى داخل الغرفة ، وتميز ام خليل تذهب وتجيء ، وتشاهد كنتها تنقل الفرش لتشميسها ، وترى ابا خليل يدق مسماراً في الجدار ، والنور يغمر البيت فيبين الطفل الصغير يلعب في الغرفة الاخرى .

كل شيء بدا مكشوفاً . . في الضوء تماماً ، كأنما لاشيء كان ، ولا ستارة محجوبة ، ولا إنساناً مختبئاً . . وكأنما البيت ، في تكشفه المتعمد ، يريد ان يقول للعيون الراصدة : « هاأنا ذا . . لا أحد بين جدراني ! » .

لكنها هي تعرف خديعة البيت . قد كان ثمة انسان ، ولن تصدق انه ذهب . . لاتصدق انه إختفى كما ظهر ، دون ان يترك علامة . . . كلمة وداع . . . أثراً يرشدها اليه ، هو الذي تنتظر ان يقتحم عليها أسوار حياتها ويأخذها بين أحضانه بقوة ، ويشدها الى قلبه ، حتى لايكون جسدان بل جسد واحد . . لا ، لايمكن

ان يذهب هكذا ، والى الأبد ، سيعود غداً ، من المؤكـــد انه سيعود ، ولسوف تنتظر ، ستظل تنتظر ، ولن تخون عواطفها .

وفي الطرف الآخر ... في البيت الذي يتشمس بعد ان صار في وسع الشمس ان تغمره ، قالت أم خليل اسوانة :

- ياحبيبي يافياض ، في مثل هذا الوقت ، كان هنا. كنت أحمل له الفطور ، فأين هو الآن ، أين ذهب ياعجب؟ .

قال أبو خليل الذي توجهت اليه بالسؤال ، وسمعــه منها مرات عديدة منذ الصباح :

- اسألي « عجب » هو وحده يعرف .

- أريد ان اطمئن .. أريد ان أعرف هل هو بخير ؟

- بخير مادام قد خلص من لسانك .

فرفّت على شفتي الكنة ظلال ابتسامة دون ان تنبس بحرف ، وتابعت الانصات الى الحوار . قالت أم خليل:

- لساني لا يضر أحداً .. كنت أعزه مثل خليل ، وأخاف عليه مثله أيضاً ، وقد كان البيت مليئاً به ففرغ ، الا تحس فراغه ، برحمة موتاك ؟

هز أبو خليل رأسه ولم يجبها .. لعلها لاتدرك انه مستوحش وقلق فعلاً ، ولكن مافائدة الكلام عن هذا ؟ سلامته فوق عواطفهم جميعاً ، وما دام بقاؤه لم يعد مأمونا فليرحل بسلام .. المهم انه استطاع البقاء عندهم في سرية تامة طوال هذه المدة ، ولم يلحظ

أحـــد من الجيران وجوده في الغرفة الصغيرة ، وراء الستارة المسدلة .

أمر بذلك ورفع عينيه ليتأكد من ان الجيران لم يلاحظوا شيئاً ، وإذ ذاك إلتقت عيناه بعينين متسائلتين في النافذة المقابلة .. غض طرفه ، ولعن الشيطان ، ولعن حواء ، وأدار ظهره كي لا يرى جارته ولا يشتهيها .. ثم لم يلبث ان رنا الى أم خليل ، وتذكرها صبية ... صبية ذات قوام وردفين ونهدين ، وهتف في أعماقه : « هيهـــات ! » وخطف ، على شيء من حسرة ، نظرة أخرى من الكتفين العاريتين لجارته الفاتنة ، في النافذة المقابلة ، ووثب من مـــكانه كملسوع وهو يقول :

– أعوذ بالله .. خالفنا الوصايا العشر !

– ١٥ –

تناول فياض قهوة الصباح وهو يحس بانقباض ، حين يكون الطقس غائماً يسيل غيم رقيق في صدره . نهر الحزن يتفجر من مكان فيه . وليس من سبب للحزن ولكنه حزين ، وهذا البيت على سعته عاجز عن تبديد الضيق الذي يستشعره . جوزيف مرح ومثقف ونديم رائع . وهناء طيبة رغم ثرثرتها . تتكلم بجرية حين لا يكون جوزيف ، وفي حضوره تبدو حمقاء ومسحوقة ، وهذه الحفاوة تربكه ، فلماذا يتمسكون بها ؟

قال في نفسه : « أرجو ان تزول » وتمـــدد على سريره بحركة تقول :

«سيان !»..شعر بحنين الى بيت أبي خليل فهتف : « تراني أعود اليه ؟ » وفي سريرته : « تراني أعود إليها ؟ » وابتسم للطيف الغائب وقال : « جميل ان أقضي العمر مع الأطياف » .

« فتاته » في بلده ، لم تكن طيفـــاً . كان حبها من النوع الهادىء ، الموشح لخاتمة سعيدة . ولو لم يخرج من بـلده لتزوج ، ولكنه الآن غـير آسف ، ويعتبر عزوبيته من حسن الحظ . وقـد عجب ان حبه ذاك لم يترك في نفسه إيما حرقة ، كالشمس الخريفية كان ، وكل ماعاناه ، خلال هذه الأشهر ، لذع جنسي بحت وها هو على باخرة لامرفأ لها . فيعابرات المحيطات يعمل البحارةوهم يحسبون: « بعد عشرة أيام ، عشرين ، ثلاثين ... » وهو لايستطيع ان يتعلل مثلهم . كلما لاح شـــاطىء ، وبدا وجه على الطرف المقابل، انسحب مضطراً الى اللجة ، وليس في يده إلا الذكرى ، ثم تمحى الذكرى ، ويغدو الحب أمنية والحبيب خيالاً .. عليك يافياض ان تعيش على الخيالات ، على الطيوف ، وان تصغي الى العواء في غابة غرائزك ، ثم تغفو وأنت تقاتل ذئاباً .. انطح السرير برأسك . اضرب الطاولة بقبضتك . در في مكانك لتنفس عن صدرك . أربعة في خمسة . خمسة في أربعة . الطول والعرض ، ورحلة في الوهم ، ونوم

ويقظة ، وليل ونهار ، ونهار وليل ، ووجباب ثلاث ،وغيم،وصبر، وتعتاد . البحار يعتاد ، يرى الكثيرات ، ويفارق الكثيرات ، يمر بمرافيء كثيرة ولا يلقي المرساة ، مرفأه بعيد ، ومرفأك مجهول ، ومن الأفضل للبحار ألا يفكر بالبر ومرفأه مجهول »

قطـــع تأملاته الكئيبة دخول الصغيرتين تحملان لعبتين وتتصايحان . وسرعان مالحقت بهما هناء فعنفتهما واخرجتهما، طالبة من فياض أن يغلق البـاب من الداخل.

ويبدو ان البنت الكبرى استثارها هذا التحدي ، فقررت ان تبدأ معركتها مع فياض فوراً ، وهكذا بدأ الطرق على الباب ، باليد تارة ، وبالرجل طوراً ، مما اضطره الى فتحه.

عادت الأم لإخراج الطفلتين ، فرجاها فياض ان تدعهما ، لكنها أصرت وأخذتهما الى المطبخ ، مفسحة دقائق من الهـــدوء ترشف خلالها قهوته وشرع بالكتابة ، ثم لم يلبث ان توقف ، لان الصغيرتين عادتا الى الغرفة ، وسحبت صغراهمـا ربطة عنقه ، بينما راحت الكبرى تمطره بأسئلة محرجة ؛ عن اسمه ؛ وما يعمل ؛ ومن أين جاء ؛ ولماذا لايذهب ؛ وتعرض عليه من عفرتتها ألواناً ؛ حتى اضطر ؛ لتخليص قلم الحبر من يديها ؛ الى إغلاقه ووضعه في جيبه ؛ صارفاً النظر عن الكتابة موقتاً .

وتنبهت الام للمرة الثالثة ، فاسرعت من المطبخ تؤنب الطفلة وتعتذر ، وحسماً للمشكلة ، قالت لها بنبرة عقاب :

ـ هيا الى المدرسة !

وقادتها فعلا خارج البيت ، تاركة الصغرى الخمعاء ، التي لاتؤذي ولا تثير ضجيجا .

رن جرس الباب وهناء لاتزال في الخارج ، ولم يكن في البيت سواه وسوى الصغيرة .. كان واضحا أن عليه ، في هذه الحال ، ألا يفتح ، وألا يدع الصغيرة تفتح ، ولهذا خرج من غرفته اليها ، فوجدها في المجاز ، تشير الى الباب الخارجي منبهة الى رنين الجرس ، فتقدم منها حافياً ، وامسك بها وعاد راكضاً الى غرفته ، بينما الجرس يرن رنيناً عنيفاً متواصلا . « ما العمل ؟ » قال في نفسه ، وفكر في أن يطلق الصغيرة لتفتح ويظل هو في غرفته ويغلق الباب ، الا أن الرنين توقف ، وتعالى طرق على الباب ، ثم تناهى اليه صوت هناء منادية ابنتها أن تفتح .. لقد نسيت أن تأخذ المفتاح ، فلما فتحت لها الصغيرة ، اندفعت نحو المطبخ فوضعت حقيبة السوق ، وهرولت وهي تتعثر بابنتها الى الراديو ، صائحة بنفاد صبر :

ـ عبد الحليم يغني يا استاذ .. ضاعت الاغنية يا يسوع ! اين هي المحطة يارب .. ابو عيون جريئة ، آه ..

كانت تتكلم بعصبية ظاهرة ، وتدير ابرة الراديو وتبحث ، وفياض ينظر اليها راجيا ان توفق بعد كل هذا العناء ، ولكن الاغنية ضاعت ، ولعلها انتهت ، فانسحب الى غرفته صامتاً .

وحوالي الساعة التاسعة طرق بابه ... كانت هناء قد اعدت الفطور في غرفة الطعام ، ونسيت عبد الحليم واغنيته .. اقبلت على وجبتها بشهية طيبة ، فلما فرغت طفقت تحدثه عن عائلة زوجها ، بنفس الشهية التي تأكل بها :

ـ كلهم فوق الريح ياستاذ . زوج اخته سيكون مليونيرا في المستقبل . لديه ارض كبيرة قرب مطار خلدة ، ثمنها مليون ليرة ، وفي المستقبل الله اعلم .

ـ ومن اين يعيش الآن ؟

ـ يستدين على حساب الارض . (وبعد وقفة) واخته الثانية ماشاء الله !

ـ غنية ؟

ـ ليس كثيراً ، ولكن بيتها بأربع غرف وصالون ، واثاثها « مودرن » . صحيح بالتقسيط ، ولكن التقسيط اسهل من النقدي ، ولهذا قلت لجوزيف : مادمنا نعيش في بيروت ، ونتبادل الزيارات مع اهلك ، فلا بد من ترتيب البيت ... وبكفالة اخته اخذنا الاثاث بالتقسيط وسددنا اكثر من نصف الثمن حتى

الآن ، وبعد سنتين نكون خالصين .. المهم الا نتأخر في دفع الاقساط . تأخير قسط لايهم ، ولكن تأخير عدة اقساط لايجوز . في هذه الحال يقع علينا الحجز ، والأفضل ان نستدين ، وجوزيف يفعل هذا .

ـ يستدين ؟

ـ بالفائدة .

ـ وكيف تدفعون الدين والاقساط والفوائد ؟

ـ هذه شغلة جوزيف .. انا لا أتدخل ... اخوه فوق الريح !

عاد جرس الباب يرن ، فارتبك فياض ، واشارت هناء الى غرفة المكتبة ، فدخلها واغلق الباب ، بينما مضت هي الى الباب الخارجي وفتحته ، وسمع بوضوح صوتها وهي ترحب بزائراتها :

ـ اهلاً امرأة عمي ، اهلاً جوزفين ، اهلاً ندى ..

واقتربت الخطى مارة به الى الصالون ، حيث جلست الزائرات وطفقن يلغطن . ولكي يتجنب سماع الخاص من حديثهن انصرف الى تصفح كتاب ، منتظراً ان يشربن القهوة وينصرفن .

وفجأة سمع صوتا يقول :

ـ سأبحث في مكتبة خالي عن رواية فرانسوا ساغان ..
ـ خالك قفل المكتبة واخذ المفتاح معه .
ـ ليس من عادة جوزيف ان يقفل الابواب .
ـ الصغيرة مزقت الكتب فقفل المكتبة .

ذكية هناء برغم بلادة مظهرها .. انقذت الموقف اذا لم تكرر ندى محاولتها . احس بحراجة موقفه وهو يتوقع اقتحام المكتبة ، فبادر بحذر شديد ، الى ادارة المفتاح في القفل من الداخل وانزوى في ركن لايصله البصر من ثقب الباب ... يالها من فضيحة لوصارت .تفتح ندى الباب فترى رجلاً في الغرفة .. ومن ذا الذي سيقنع الحماة ان هذا الرجل لاجيء وليس عشيقاً للكنة ؟ تصور بعدئذ الصياح وربما الضرب ،واجتماع اهل البناية ،والسؤال والجواب وتدخل الشرطة اذا كانت الحماة رعناء ..

وتعالى ، وهو في غمرة قلقه ، نقر خفيف على حافة نافذته من جهة المطبخ ، فرفع رأسه ليرى هناء تشير اليه الا يأتي بحركة . كانت النافذة تطل على فسحة مستطيلة ضيقة جداً بين جدارين ، وقد اعتلت هناء كرسيا حتى اطلت عليه . ومعنى هذا انه لايمكن للواقف على الارض ان يراه ، وفي هذا بعض الاطمئنان . غير ان الحماة اعلنت انها ستقضي يومها في بيت ابنها ، وقامت الى المطبخ تساعد كنتها في الطبخ ، وانصرفت اختها ـ اخت الحماة ـ الى

النوم ، وعثرت ندى على مجلة وراحت تقرأ ، فانطفأ الحديث في الصالون ، وتوجب على فياض ان يعد نفسه لقضاء نهـار كامل في الزاوية التي قبع فيها مفكرا في « الجو الملائم للعمل » .

ويظهر ان هناء نجحت في اقناع حماتها بالراحة ، فغادرت هذه المطبخ ، متيحة لها ان تحمل القهوة الى فياض من النافذة ، وكذلك طعام الظهر .. لم ينقصه سوى السيكارات ، وقد اوصته هناء الا يدخن ، حتى لايخرج الدخان من النافذة او خصاص الباب فينكشف الامر .

تناول فياض القهوة مرتين ، وطعم ظهراً وعصراً ، ومع هذا استشعر مذلة حقيقية . ادرك انه ليس من السهل ان يتخلص من لعنة الوضع الذي هو فيه ، مادام لايتخلص من الوضع ذاته . ان يخرج فيعمل ، او يكلف بمهمة ما ، او ينهض بمسئوليـــة ، والا فالعودة الى الوطن ... « ذلك هو الطريق .. ذلك هو الطريق ... »

حل المساء اخيرا ، فانصرفت الزائرات ، وصاحت هناء من الخارج ما ان ودعتهن :

- افتح ياأستاذ . افتح .. ياعيب الشوم منك .. كيف قضيت هذا اليوم ؟

فتح فياض راسماً على شفتيه ابتسامة مغصوبة ، ورد على اعتذاراتها قائلا :

- لاباس ، لايهم .

وراحت تلطم خديها وتقول :

- يه ، يه ، يه ، لاأدري كيف اعتذر يااستاذ ، هذه خطيئتي ، ماذا سيقول جوزيف اذا سمع بالحادث ؟

وسمع جوزيف مساء فثار وشتم بكل مافي قاموس كسروان من شتائم ، وجاء بهناء الى غرفة فياض وقال لها امامه :

- اسمعي . رجل الاستاذ اشرف من الذين سيتقولون.. اذا جاء ابي او اخي او امي بعد اليوم ، قولي لهم الاستاذ صاحب البيت ، واجلسيه في الصدر ، ومن اعجبه اهلا وسهلا ، ومن لم يعجبه مع السلامة .

قالها واستأذن وانصرف ... ثم عاد حاملا رزمة صحف وقال :

- ساعود بعد توزيع هذه .. الآن بدأ الشغل الآخر .

اعلن ذلك بجدية تلازمه حين يتكلم على المبدأ . فقال فياض في نفسه : « لبنان ليس مطعم الجبل ولا ساحة البرج .. لبنان كسروان وطرابلس وصيدا وصور وبيروت نفسها . لكنه ليس « مطعم الجبل » ولا ساحة البرج . »

اضطر فياض ، بعد ايام ، الى اطلاق وصف مغاير على هناء ، ينفي عنها كل تهمة بالذكاء .. وليس ذلك لأن جوزيف خرج عن طوره ، وهدد بتحطيم الراديو اذا ارتفع صوته بأغاني عبد الحليم ، ولا لأنه رسم صورة كاريكاتورية لهناء ، فزعم انها تنام وهو يضاجعها ، بل لأنه كان يقرأ رسالة ، فصاحت هناء من المطبخ :

- ممن هذه الرسالة يا جوزيف ؟

- من بكين .

- ومن هي بكين بسلامتها ؟

- بكين هي بكين يا مدام .

- اعرف ، ولكن أسأل عن جنسيتها ، لان الاسم غريب علي .

- بكين هذه في الصين .

- ومتى تعرفت عليها ما شاء الله .

صاح جوزيف وهو ماض في القراءة :

- أقول لك من بكين ، من بكين ، الا تفهمين . ؟

- بلا خلط يا جوزيف .. ما اسمها ؟

- والك قلت لك بكين ! .

– يا يسوع ! ومن هي بكين بسلامتها ؟

– بكين عاصمة الصين ، والصين في آسيا ، وآسيا قارة من القارات الخمس ، والقارات الخمس هي الكرة الارضية ، ودين الذي عرفني عليك وزوجني اياك !

توقف عن القراءة فجأة ، ثم مزق الرسالة والقاها في الصالون والتفت الى فياض قائلا :

– ما رأيك الآن ؟ هذه هي تلميذتي التي ماتت في غرامي ، ومت في بلادتها .

ضحك فياض دون ان يجيب .. بينما خرجت هناء من المطبخ قائلة :

– هل رأيت عصبيته يا استاذ ؟ اما قلت لك انه لا يهتم بتثقيفي ؟

قال الاستاذ ممازحاً :

– بعد الزواج تصبح عملية التثقيف صعبة .

وعلق جوزيف مغضبا :

– خاصة اذا تزوج الانسان من عنقاء فظهر انها ببغاء .

– سامح يا استاذ .. يشبهني بالعنقاء .

ولطم جوزيف جبينه براحته ونبر :

– انت غلطانة يا مدام .. شبهتك بالببغاء وليس بالعنقاء .

– وما الفرق ؟ انت شبهتني بالعنقاء .

في هذه الحال – قال فياض موضحاً بأمل تخفيف التوتر – يكون جوزيف قد مدحك ، لأن العنقاء ملكة الطيور ، وهي طير خرافي ذكرته العرب فقالت : ثلاثة غير موجودة : الغول والعنقاء والخل الوفي ، واهل الشرق الاقصى يعتبرون العنقـــاء رمز الامبراطورة ، لأنها رمز الاناقة والجمال ..

– حلو يا استاذ .لو كان جوزيف يشرح لي مثل شرحك .. (وملتفتة الى زوجها) اتركنا نضع الاستاذ حكماً ، ويروي كل واحد ما عنده ..

– الاستاذ جاء الينا ليستريح – قال جوزيف – لا ليصبح قاضياً .. افرطيها .. اتركينا نتحدث في جو هادىء ، وعجلي انت بالطعام ..

– ١٧ –

عـاد جوزيف من جولته في الحي ليلا ليشرع في سهرته المعتادة . كان واضحاً انه يشرب لينام بعمق ، وكان يجر فياض الى جلساته هذه بنوع من توسل لا يقاوم ، وقد زالت الرسميات الآن وأخذ يغني أحياناً ، بعض « المعنّى » بصوت حنون ، وقال انه ضارب غير سيء على العود ..

فكر فياض بصاحبه وقال : « يا للموهبة المضيعة ! » . ثم اكتشف ان جوزيف « موهبة نادرة ومهدورة » .

كان هذا قد شرب وغنى وراح يتحدث عن نفسه باحساس من الخيبة والألم .. « لا تسألني عن رقم عملي الحالي .. من الصعب تعداد أعمالي ومن الصعب الاستمرار فيها رغم جهودي ومقدرتي .. تقول لعنة الدير .. غضب الوالدين ، نحس الزوجة .. قلما شئت ، يظل سوء الحظ هو الظاهر ، وكلما قلت هـذا العمل هو الدائم ، وجدتني أتركه ، او يتركني ، وأبحث من جديد ، وأترك من جديد ، حتى بت أميل الى الاعتقاد بالحظ . (وبعد وقفة) لماذا لا تؤمن الماركسية بالحظ ؟

فقال فياض في نفسه : هـذا هو جوزيف !

وابتسم جوزيف واضاف : « كنت تسألني ماذا عملت في بيروت بعد انتقالي اليها .. وماذا أروي لك !؟ عن أي عمل اتحدث ؟ تعلمت المحاسبة، وعملت مندوباً متجولاً لاحدى الشركات، واشتغلت في ملحقية تجارية ، وانغمست في التجارة والمحاسبة الى اذني ، وقطعت كل صلة بيني وبين الادب والثقافة .. وهذا أحد أسباب تعاستي ، فما رأيك ؟

قال فياض برغبة في النصح :

— رأيي ان تعاستك ناشئة عن عدم استقرارك .. لماذا ، مثلا ، تركت العمل في الشركة التجارية ؟

ـ لأنها رفضت أن تزيد مرتبي .

ـ ولماذا تركت المحاسبة ؟

ـ لأنني دخلت شريكا مع أحـــد المستوردين .. كنت مضطراً للبحث عن زيادة الدخل ، كي أسدد الأقساط والديون واخلص من المطالبة . غير ان الشراكة انتهت الى الافلاس .. كان ذلك ابان الحرب الكورية ، والتجـار يبنون حساباتهم على اتساع الحرب ، يصلون ان تتحول الى حرب عالميـة ، وانا أيضاً كنت أصلي .. كنت تاجراً في ذلك الوقت ، وكان التجار يستوردون ويستوردون ، ويخزنون البضائع ، ويثبتون طلبات جديدة كل يوم .. وكان شريكي طماعاً ، يضع نصب عينيه لقب المليونير .. وكنت انا شريكا اسمياً ، ولهذا لم اخسر سوى عملي ، وخسر هو كل تجارته ، أفلس كما أفلس الكثيرون ، وقد أدركت ان اتجاهي كان خاطئاً .. وان شريكي كان يستثمر اسمي ، وان لعبته التجارية كانت سافلة ، وعلى ان أقف في الصف الآخر .. ووقفت ..

افرغ كأساً جديدة وسأل بانعطاف مفاجيء :

ـ ماذا كتبت اليوم ؟

ثم استدرك :

ـ لابد ان هناء اضاعت يومك بسوء تصرفها ..

ـ لاتقل هذا ، انني مسرور من كل شيء ، وخاصة من رعاية هناء ، ورعايتك ..

- رعايتي هي ان تكتب .. انا مسؤول عنك امام ضميري وامام القضية .

- سأكتب .. لندع هذا الآن ..

- لا .. هذا هو المهم .. وعلينا ان ندع الثرثرة ، لا تشجعني عليها ، ارجوك ..

لاحظ فياض ان جوزيف دار نصف دورة ... انقلب الى جدية لا مبرر لها ، ولن يتكلم على حياته الخاصة بقية هذه السهرة . لكن جوزيف سأله فجأة :

- هل قرأت بولص الرسول ؟

- قرأت رسائله الى اهل رومية و كورنثوس واغلاطية .

- وما رأيك فيه ؟

- لا أستطيع اعطاء رأى كامل .. وانت ؟

- انا درسته على الجزويت [1] .. ودرسته ، بعد ذلك ، على نفسي ، واعجابي به لا يحد . فقد وضع الاشياء في مواضعها ، وتجرأ على « الناموس » ..

قالها وضرب الطاولة بيده واردف :

- نعم تجرأ على « الناموس » .. قال ان المؤمن يتقيأ الفاتر ..

---

(١) اليسوعيون .

- وكيف شرحوا لكم هذه العبارة لاهوتياً ؟

- لم اعد اذكر .. كل ما اعرفه نها صرخة ثورية ، فالمؤمن لايمكن ان يكون فاترا .. الفتور نصف الحرارة ، وانصاف الحلول لاتأتي بالحلول ، الانسان ثوري او غير ثوري ، هذه هي المسألة ... لقد تعلمت من بولص اشياء كثيرة ، وعن طريقه تقيأت الفتور واصبحت حارا .. اصبحت ثوريا ..

وتوقف قليلا وسأل :

- هل تعرف باب شرقي في دمشق ؟

- طبعا اعرفه ..

- الكتب تقول ان بولص الرسول ، بعد ان ظهر له الحق في دمشق ، وتخلى عن رتبته كقائد مئة ، اضطر الى الهرب وتدلى من السور بحبل .. هكذا تقول الكتب ، وقد ذهبت الى دمشق .. رأيت السور والمكان الذي هرب منه بولص ، فوجدته واطئا جدا ، ومنذ ذلك الحين وانا اتساءل ، لماذا تدلى بحبل ولم يقفز ؟

- لابد ان الارض ، عند قدم السور ، كانت واطئة ، وكان القفز مستحيلا .

- هذا جائز ، وقد فكرت فيه ، ولكني اميل الى سبب آخر ، هوان الارتطام بالارض كان لابد ان يحدث دويا ينبه الحراس على السور ، فآثر التدلي .. كان عسكريا في الاصل ، قائد

مثة ، لاتنس هذا .. لقد حارب اعداءه باسلحتهم ، رفض ان يدير خده الايمن لمن يضربه على خده الايسر .. كان ، باختصار ، رجلا .. كأسك !

قرع كأسه بكأس فياض في زهو وانتشاء .. كان يشتعل، وعلى استعداد للتضحية بنفسه في هذه اللحظة ، لكن في هذه اللحظة لابعدها ، وحين قارنه فياض بخليل وجد اختلافاً بيّنا ، وقال في نفسه : « صالح لاشعال النـــار ، اما ان يكون وقودا فذلك شيء آخر .. »

وتمنى فياض ان يعرف المزيد عن حياة رب البيت فرفض هذا، ولما سأله « ألم تكتب شيئاً ؟» اجاب :

- بلى .. محاولات ادبية كما قلت .. على شكل يوميات .

- وهل تسمح باطلاعي عليها ؟

- بسرور .. لكنها يوميات خاصة ، تتعلق بالعمل .. اعني مكتوبة كيفما تيسّر..

- وهذا بالذات مايجعل قيمتها اكبر .. سأعطيك رايي فيها غدا ..

وافق جوزيف على الفكرة ، ولكنه لاحظ :

- لن تكون مسروراً بالاطلاع عليها .. انهـــا خلفية الواجهة ، وستأخذ فكرة سيئة عن محاولاتي ..

ـ لاتهتم لذلك .. اذا كنت تريد رأيي فيها فدعني اقرأها ... هيا .. اعطني اياها ..

غاب جوزيف فترة طويلة حتى خشي فياض ان تكون اليوميات قد ضاعت ، او مزقتها احدى الصغيرتين ، ثم اطل حاملا دفترا بغير جلد ، وكان ينفض الغبار عنه ويهز برأسه :

ـ من الصعب الاحتفاظ بشيء سليم في هذا البيت .. ماريان (ابنته الكبرى) مزقت الجلد ، ولا ادرى من انزله من المكتبة ووضعه في الزاوية ..

ـ هذا انا .. هل كان بين المجلات ؟

ـ نعم ، ولكنه سليم ، الفئران نفسها تعاف قرض افكاري .

وضحك ضحكة معافاة ، ووضع الدفتر في يد فياض الذي حمله وانصرف ، بينا تناول هو كتبه النظرية معلنا انه سيسهر لقراءة بعض الفصول .. بيد ان الضوء اطفىء في البيت بعد دقائق ، فابتسم فياض في غرفته وقال :

ـ ياأطرف جوزيف في هذه الدنيا !

كانت اليوميات مشوشة تعافها الفئران حقا . واذا سميت حوليات تكون التسمية اكثر انطباقا .. وكانت ثقافته اليسوعية غــير خافية عن العين ، برغم ان المواضيع شخصية جدا .. ثمة صفحات تدور حول زوجته والحياة في بيروت ، وعائلته بصورة عامة ، وفي هذه الصفحات تواريخ شراء بعض الاثاث ، ومواعيد الاستحقاقات ، وملاحظة تقول : سألت هناء اليوم : ماذا تريدين يامدام بعد ؟ فاجابت : ثلاجة . ثم ماذا ؟ ـ غسّالة . وغيره ؟ ـ سيارة . ويعلق قائلا : في القرية ، وقبل وقوع المقدور (الزواج) كنت اسألها : ماذا تريدين ياهناء ؟ ـ حبك . ثم ماذا ؟ ـ الزواج. وبعده ؟ ـ كوخا نجعله عشا لغرامنا ! وينتهي الى هذا الحكم : المدنية مفسدة ، وبيئتي اكثر إفسادا . ويقول : رغبة مجنونة تتملك الجميع في الاثراء ، دون اي اهتمام بالوسيلة .. ورغبة مماثلة تتملك الناس في نسيان منشأهم .. ميكيافيلية صريحة .. الكنائس تمتلىء بالمصلين دائما ، واحسب ان الجميع ، في ختام صلواتهم ، يطلبون غسالات وثلاجات وسيارات . يخيل الى انهم يعملون بقول المسيح : « اطلب تعط »، ولكي يكون طلبهم اوقع واسرع يرفعونه في بيوت الله .. ربما كانوا لايفكرون بهذا مباشرة ، لكن عقولهم الباطنية تعمل كآلات حاسبة دقيقة .. ثم يضيف :

« الامكنة الاخرى » مزدحمة ايضا ، فالناس في بيروت ، يصلون كثيرا ، ويكفرون كثيرا ، وبنفس السهولة التي يذهبون بها الى بيوت الله .. يذهبون الى بيوت الشيطان » .

ويختم هـــذه اليومية العلائية بالكلمات التالية : « لاشيء حرام ولا شيء ممنوع .. تستطيع ان تزني وتقـــامر وتهرّب المخدرات، كما تستطيع ان تتاجر وتغش وتثري وتفلس وتنتحر على « الروشة » .. والعجيب ان الناس يحاولون الظهور بمظهر المحترمين واكثرهم ينجح في هذا « الكاموفلاج » . وقــد كتب الكلمة الأخيرة بالفرنسية ، ووضع الى جانبهـا رقم واحد ، ولم يأت على شرحها في الهامش ، وربما نسيها او لم يفتح القاموس بشأنها بعد

وفي يوميـــة اخرى يصف قريته ميروبا في كسروان : « جلست على صخرة كبيرة تقوم على كتف الوادي . الوقت غروب . الصمت جليل ، رهيب ، واسع ، كأن الدنيـا كلها قد صمتت . « اخلع نعليك ياموسى فانت في المكان المقدس » فهـل المكان مقدس لانه مهجور في هذه الساعة ؟ على الانسـان ان يعمد نفسه بالصمت لا بالماء ، ففي الصمت يعود الى اصله ، الى الطبيعة التي هو منها واليها . انه يتطهر ويسمو بنفسه الى درجة الانخطاف في السحاب وملاقاة الرب .. كذلك هو التجلي ، وفي جبل كهـــذا تجلى الرب للمسيح ، ظهر له في هالة من نور ، كما تراءى لموسى في نار العوسجة بالبرية . . وليس عبثاً ان التجلي كان في جبل لبنـان ،

فهذا الجبل، في مهابته وجماله ، هيكل علوي ، ويكاد الانسان ، وهو واقف على القنـــة ، يلامس السماء بيديه ، ويسمعها رسالة الأرض بشفتيه ، ويغتـذى بالهواء ، فالهواء في الجبـــل غذاء .. وهذه اجسام ابنائه شهادة ، .

وتنقطع اليوميات بعد ذلك .. ثم يستهل احداها بالعبارة التالية : سرت اليوم في بيروت بدون عمل ودون هدف .. كنت اجذف في بحر من ضياء .. وقد اخفقت للشهر الثالث في الحصول على عمل ، اللعنة ! وتلي ذلك ابيات لبودلير بالفرنسية ، وتختمـــا مايلي : ضربني المعلم في الدير لأني كتبت هذه الابيات على دفتري .. وها انا اكتبها مرة اخرى .. نكاية به ! »

ثم يخصص يومية كبيرة لعمله في احـــدى الصحف فيقول : دخلت داراً للنشر تصدر عنها جريدة (...). عملي اداري في الأصـــل ، ولكن علي ان اعيد بناء كل شيء ، وكأن شيئاً لم يكن .. علي ان ارمم المتهـدمات في كل مكان ، ولكن من اين ابدأ ؟ هنا كل موظف وكل محرر يعمل مايحلو له عندما يحلو له، كأنهم جوقة موسيقيين بوهيميين ، كل منهم يدوزن آلته ويعزف مايشاء وقت يشاء .. ولنقل ان المحررين ، برغـم تسيّب العمل، يلتزمون بالخطة السياسية العامة التي وضعها صاحب الدار ، وهي الموالاة ، باعتدال ، للعهد في لبنان ، ومماشاة دولة كبيرة دون التظاهر ، واطراء مشايخ الخليج العربي ، وجميع ملوك ورؤساء

وامراء البلاد العربية ، وعدم التعرض لحكام البلدان المجاورة ، وعدم التشهير باليسار ،. وباليمين ايضاً ، ومجاراة بعض الاحزاب، ونقد الرأسمالية نقداً خفيفاً .. ونقد الاشتراكية نقداً خفيفاً أيضاً!

« اتساءل : ماهي خطة الجريدة اذن ؟ واضح انه لاخطة هناك ، ولا أدري من يقرأ جريدة كهذه ، واحسب ان اللبناني العادي يقرأها ، مع بعض الجرائد الأخرى المماثلة ، ويرسل بمعظمها الى المطبخ ... ان هذه الجريدة الآن ، لاتضر ولا تنفع ، ومسؤوليتي فيها ادارية بحتة ، وقد اتوصل بعد شهور من العمل المضني في حر بيروت اللزج الى دعوة موظفيها ومحرريها الى النظام والانضباط ، وبعد ذلك اسعى ليكون للجريدة لون وطني أكثر وضوحاً ، وفي أسوأ الحالات ، سأسعى لئلا تنزلق الى مواقف لا وطنية .. ان اتجاهها في الوقت الحاضر يموه بوطنية باهتة ، وعلي ان اجعله اتجاهاً وطنياً صحيحاً ، واعتقد انه سيكون لي كلمة مسموعة فيها لأنها كلمة « حكيمة ! » .. فاذا ذهبت « حكمتي » هباء - كما ارجح - اكتفيت بضبط شؤونها التجارية والادارية . ان موظفيها يزيدون الآن عن حاجتها ، وسأبقيهم جميعاً في العمل ، واترك لنفسي امر الاشراف ، وهذا الترتيب سيدع لي وقتاً كافياً للاهتمام بشؤوني الثقافية ، وهنا يكمن مكسبي الاكبر.

« يخيل الي انه لابد من الركض للحاق بالقطار الذي فاتني.. فهذه هي المرة الاولى التي يتاح لي فيها ان اعمل لتحقيق هدفين في

وقت واحد : لقمتي وثقافتي ، هذه التي لم اتعلم ولم اعش الا لتحقيقها . .

« كنت في الماضي أكد واتعب لأحصل على المعاش فقط ، وكنت أشعر أن عملي طيلة يومي يستنفد كل طاقتي ، فاذا قررت الاكتفاء بنصف معاشي ، على ان يبقى لي نصف وقتي ، تدنى المعاش وظل العمل يستغرق الوقت كاملا . وكنت اذا غامرت وتعبت علني اربح مايعفيني من بعض العمل فيما بعد ، فتحت هناء ، او الحياة اللائقة ، أبواباً جديدة للانفاق ، فلا اخرج الا خاسراً ، منهوكاً ومديونا .

« لماذا لاأصل الى تحقيق هدفي ؟ الاسباب ، كما ظهر لي ، هي عدم الاهتمام كلياً بما هو يومي ، أي بمعاشي ، لأن لي تطلعاتي الثقافية ، وبذلك أكون كمن ينام مع هند وقلبه عند ليلى . ثم ليس لي ولاقدر من « البندقة »[1] ، فلكي ينجح المرء في بيروت عليه ان يملك النباهة مع « البندقة » ، والعلم مع النباهة مع « البندقة » ، والجرأة مع العلم مع النباهة مع « البندقة » ، والحذر والشك واللطف والقسوة مع كل ماتقدم ، وخاصة مع « البندقة » . . ان « البندقة »

---

(١) البندقة بفتح الدال هي الشطارة ، والبندوق هو ابن الحرام ، الذي تحبل به امه سفاحاً ، فيأتي مجهول الوالدين لايحلل ولايحرم كما تقول العامة .

ملح النجاح ، و كذلك هو الحظ ، وقد تكون لعبته الكــــبرى والحاسمة ان يهبك ربك قدراً لابأس به من « البندقة » !

« كنت في الماضي أعمل عمل موظفين ، وأعود الى البيت معصور الدماغ . و كنت ، في الامسيـــات ، اشعر ان دماغي لايمكن ان يعطي شيئاً ، فكنت اكتفي بسهرة سخيفـة وقراءة خفيفة . وآمل ، الآن ، ان يبقى لي من الوقت ماانفقه في انماء ثقافتي وتركيزها . سيرتاح رأسي لأول مرة فاتثقف في البيت ايضاً ، ولـكي ألحق بالقطار علي أن اعود فأبدأ من نقطة الصفر أو بعدهـا بقليل ، وعلي الا أموت قبل الثمانين . ان المرء خلال ثلاثـــين أو اربعين عاماً ، يمكن ان يتعلم ويعمل كثيراً . أشعر ان الفرصة قد سنحت لي بعد ان تجاوزت الثلاثين وأضعت زهرة عمري سدى. لقد لاحقني الفشل حتى كدت أظنه مرضاً مزمناً لاشفاء منه ، واني لاعجب كيف لم امرض بالسل ، و كيف لم يصبني سرطان الدماغ، لان ماعانيت منه اكثر الوقت كان قميناً بأن يطحنني .

« منذ شهر ونصف كنت على وشك الانهيار العصبي ، فتداويت بالتعزي . قلت لنفسي : استعفي من واجب تحقيق هدفي الثقافي،فلا ينبغي لي ان اكون مغروراً . . ان ماحسبت نفسي قادراً على تحقيقه ليس الا وهماً من الأوهام ، ومافشلي الا النتيجة المنطقيــة

لأوهامي .. وقد ارتضت نفسي ماقلته لها ، وارتحت وانا كسير الفؤاد .. ارتحت من العيش هنا والتفكير هناك .. ارتحت من الازدواجية التي وجدتني طيلة أيامي الماضية بين فكيها ، ولكني ارتحت وانا مهيض الجناح ، فقد عز علي جداً ان ازهد بكل ماهو جميل ، وعز علي أن امر بأية مناسبة ثقافية او فنية دون ان اهتم بها أو اقرأ عنها ، كما كنت افعل سابقاً .. صرت امضغ فشلي كما يقول الفرنسيون .. وماذا افعل ؟ انا غارق بالديون . »

تتوقف يوميات جوزيف،بعد هذا ، عن الاشارة الى اعماله اللاحقة ، فهو يكتب شعراً منثوراً مرة ، ويترجم قصيدة لناظم حكمت ، ويبدأ مقالة ويتركها .

وعشية عيد الميلاد يكتب يومية على طريقة جبران خليل جبران ، فيناجي المسيح قائلا : حملت ، ياسيد ؛ صليبك من دار بيلاطس الى الجلجلة[1] ، ونحن نحمله من المهد الى اللحد .. لقد دقوا المسامير في يديك ، وطعنوا جنبك بحربة ، واقترعوا على ردائك ، اما نحن فنسلب رداءنا احياء ، ويطفئون سكائرهم في عيوننا لكي لانرى الحقيقة ، ومن جنوبنا ينز الدم على حرابهم غير المرئية . لقد لوثوا كل شيء : الجمال والشرف والثقافة !

ويعود في نهاية هذه اليومية ليتحدث عن عمله في تلك الصحيفة فيقول : حتى الآن لم اعمل شيئاً ، في مجال الادارة نفسه. الموظفون

---

(١) المكان الذي صلب فيه المسيح .

يحقد بعضهم على بعض ، نصفهم لا يكلم النصف الآخر . الرجال من هذا النمط ، مثل نساء الصالونات ، ولكي ينجح المرء بينهم عليه ان يكون ذا خبرة واسعة بالنساء . كان يجب ان اتعرف الى مهنة الصحافة منذ زمن بعيد .. لا أظلم الصحف والصحفيين جميعاً ، لكني اتحدث عن هذه الصحيفة التي أعمل فيها بالذات ، فقد بدا لي انها تفعل مثل بنت الهوى : تتزوق ، وتكشف عن صدرها وساقيها ، وتغازل الجميع ، وتمنح نفسها لمن يدفع اكثر ، ولذلك سأتركها .. لن اعود الى عملي فيها بعد العيد » .

ثم يكتب يومية من نوع آخر ، بدون تاريخ :

« اليوم وقعت لي مغامرة مع امرأة في المصعد . كنت أراها فابتسم لها وتبتسم لي . هي التي تبتسم لي ، تشتهيني .. هذا واضح . ولن اتحدث عن شهوتي .. حسبت الزواج والهموم وكثرة النساء تضعف منها ، ولكن الكسرواني يظل كسروانياً ، وهذه مسألة أخرى .. المرأة جميلة ، مثيرة ، قحبة باختصار ، ولكن محترمة ، وانا احب هذا النوع من النساء .

ثم يورد بين معترضتين هذه الملاحظة : (هذا الانحراف في ذوقي سببه زوجتي : القديسة النائمة !) . ويتابع : كنت أسهر في الطابق الخامس ، وكانت المرأة موجودة . شربنا ، رقصنا ، وغنينا نظرت اليها : كانت عيناها تقول : خذني ! قلت : حسناً ! سآخذك .

ياجميلتي ، ولكن أين يمكن ان نفعــــل ذلك ؟ قالت عيناها : في بيتك ؟ قلت لا . وسألت عيناي : في بيتكِ ؟ لا .. في الشارع لا ، في الحرج بعيد ، في كسروان يكون الضوء قد طلع ، في الفندق يطلبون الهويات ، في الفنادق الكبرى نحتاج الى Devises بيروت فاضلة ، بيروت باكر ، وانا انحنى أمام هذه البكارة التي لا تعالج الابال Devises ، وانا لا املك الـ Devises ، والمرأة تنادي ، عيناها تنادي ، شفتاها تنادي ، صدرها ينادي ، الجلد المرتعش فوق اصابعها ينادي . آه ياجوزيف ، انت الذي دبرت اصعب امورك تفشل في تدبير هذا الأمر . غبي . لا ، لست غبياً . خائب . اعترف ، ولكن لست غبياً . والمرأة تنادي ، ياجميلتي صبراً ، والرأس يعمل ، وفجأة لاح الحل . منافع التكنولوجيا ياجوزيف . تلك هي ، وجدتهـــا . من الذي اخترع المصاعد ؟ حسناً ذات مرة قبلت امرأة في مصعد . والآن يمكن ان انام مع امرأة في مصعد . يالقيمة الدماغ الرياضي ! تعالي يا «ميشلينا» ، لسوف يكون لك سرير معلق . اخذتها وخرجت . دخلنا المصعد فارتفع بنا الى منتصف الطابق السابع ، وهناك فتحت الباب من الداخل فتوقف . كنت متعجلاً ، وكانت هادئــــة . شرعت تخلع ملابسها ، فقلت : لا يهم .. ليكن ذلك بسرعة ! فقالت : ولماذا ؟ واكملت .. ومن تحت ، وفوق ، بدأ اللغط والضجيج وكبس الـ APEL . اكبسوا ماشئتم .. المصعد يتعطل كل يوم ، ولغير ما فائدة ، والآن تعطل لفائدة ، ارحموا انساناً عصرياً اضطر الى ممارسة الحب

بيدائية انسان الغابة! انتظروا! واهتز المصعد تحتنا، فضحكت جيلتي، وتكلمت . . يا للفضيحة ! وضعت يدي على فمها فصاحت : هذا غير لذيـــذ بدون كلام . وجعلت تصرخ ، كانت لا تستطيع الا ان تصرخ لسوء الحظ ، ويزداد صراخها كلما اهتز المصعد ، وتقول : (يلذ لي ، يلذ لي IL me plait, IL me plait comme dans le Train كما في القطـار) فاخنق صراخها وأخنق ضحكي . . آه يا قديستي النائمة هناك ، يا زوجتي البليدة ! أنت تحلمين بمار شليطا ولا شك ، وزوجك يرقص مضطجعاً في الـ « TELEFRIQUE » .

هـذه خطيئة ؟ حسناً ، سأركب جميع الخطايا المماثلة ، ما دام قد صار لي « شاليه » او « علبة ليل » او فندق يتساهل مع الفضيلة بدون ان احتاج الى الـ Devises .

وتستمر اليوميات على هذا النسق الماجن ، وتحمل احداها هذه الملاحظة : (زوجتي لا تقرأ يومياتي كما يبدو ، والا لاستيقظت « القديسة النائمة » مرة في العمر على الأقل) .

* * *

القى فياض دفتر اليوميات جانباً ، ونهض يدور في غرفته . تأثر جداً لهذا الوضع السيء الذي يتخبط فيه جوزيف ، وعجب ان لايظهر ذلك على وجهه ، فهل هو متشائم حين يكتب ، ام انـــه يخفي مصاعبه حين يقابل الناس ؟ قد يكون حساساً جداً ، وربما كان يضخم المساوىء كعزاء عن الفشل ، ولكن بأية خطوط

قوية وصادقة يرسم لوحة الحياة الداخلية لمدينـــة بيروت ؟ ثم اية براعة يملك في التعبير عن آرائه،برغم مافيها من نزعة جبرانية واضحة؟ لبنانه شيء كبير وجميل ورائع، وانه ليتحدث عنه ويناجيه كصوفي، وحتى انه يضيف اليه اشياء لم ينسبها التاريخ اليــــه ، مثل التجلي للمسيح على احدى قممه ، غير ان لبنان في الواقع ، فاتن كما يقول..

« الآن فهمت لماذا يسكر جوزيف .. ربما اضحى الشــــرب عادة بالنسبة اليه . اما في البدء فقد كان محاولة للنسيان ، ومن العجيب ان هناء لاتفهم مصاعب زوجها ولا تشفق عليه ، فهل هي جاهلة تماماً بما يقاسي ؟ ولماذا لاتقنع بعيشة متواضعة وتترك التشبه بأخيه المليونير واخته « المودرن » ؟ واذا كانت هناء لاتوقف اندفاعها في تيار « الموضة » ، فلماذا لايثور جوزيف على هذه المهزلة ؟» .

اعترف ان بيت ابي خليل ادعى الى الراحة ، لانه اميل الى القناعة ، « ولكن في هذه الحال يصبح دور الطموح اقل تأثيراً. وعلى المدى اكثر تعويقاً للتطور .. من حق الناس ان يطمحوا ، وان يحلموا بمستقبل مادي افضل ، وعيب هناء انها لاتقيم وزناً للملاءمة المطلوبة بين مشروعية الطموح وضرورة الواقع.. جوزيف فهم هذا فتحول ، ولو على طريقته ، وهذا في حد ذاته شيء حسن بالنسبة اليه ، اما بالنسبة لي ؟ »

ظـــل طوال اليوم التالي قابعاً في غرفته ، شارد الذهن، يفكر في مخرج من وضعه الصعب . البيت الذي يعيش فيه أسوأ

من بيت ابي خليل . الجدران هناك عارية ، ولكنها متماسكة ، والعائلة تعيش على الكفاف ، ومن كفافها كان يأكل ، اما هنا فالمظاهر تحجب الحقيقة ، والجدران المزخرفة قد تتعرى في اية لحظة ، والحجز بالمرصاد اذا تأخرت الأقساط والديون ، وكل شيء زائف ، برغم الجوهر الطيب .

عند الظهر تحامل على نفسه وذهب الى قاعة الطعام . تناول منه قليلا دون شهية ودون ان يقول لهناء : « انا اعرف الحقيقة ! » كان الدائنون خلال اقامته القصيرة يقرعون الباب ، فتصرفهم هناء باساليب مختلفة ، ولاتجد غضاضة في ان تكذب ، وتتوسل ، وتتملق . لكن الدائنين سيعودون ، وسيزدادون في المستقبل ، ويزداد حرج جوزيف وارتباكه ، وكذب هناء وتوسلها وتملقها ، وسيكون هو شاهداً على هذا ، مشاركاً فيه ؛ طالما انه فم من الافواه الطاعمة من هذا الدين بحكم الضرورة .. وصاح « ملعونة كل الضرورات من الازل والى الازل »

غامر ليلا وخرج . اقسم لهناء انه ان يغادر الحي ؛ ورجاها الا تقول شيئاً لجوزيف . كانت به رغبة في الابتعاد عن الحي ، في الانفراد بنفسه خارج البيت ؛ في بث شكواه لانسان ما ؛ وفي التجوال على غير هدى .

وكانت طرقات الأشرفية ، المتعرجة ، المتداخلة ، تقوده الى حيث لا يدري . والناس يمرون به فيتساءل : هل يدري

الآخرون بحالي ؟ « ورأى أجير حمصاني يحمل صينية عليها أطباق فقال : « له عمل على كل حال » . وشاهد رجلا وسيدة أنيقة يتضاحكان ففكر بسعادتهما . ومرت به فتاة صغيرة تحمل لعبتها بيد وتمسك اباها بيد ، فقال لها في نفسه : « يا عزيزتي الصغيرة ، يا ملاكي ، لا تكبري بسرعة .. ظلي صغيرة » .. ومضى يدور وهو يستعرض الوجوه والحوانيت ونوافذ البيوت حتى تعب ، وحين وسوست له نفسه ان يقترب من بيت أبي خليل ويلقي نظرة على « فتاة النافذة » خجل ، واستشعر النقمة على نفسه لانه خجل ، ولأنه لايستطيع ان يعيش كالآخرين ، مع انه قادر على ذلك .

« خليل يعيش ، وأم بشير تعيش ، وجوزيف كذلك . لكل منهم مصاعبه وأسلوبه في مواجهتها . حتى والدي كان يعيش . أمي وحدها ميتة حية . « هذا الولد يشبهك يا نزهة .. أكلته الكتب ! » لكنني خيبت ظن أمي . أنا لا اشبهها .. لم اكتب مثل جوزيف عن اشياء لاتكتب مع أني عرفت مثلها .. رباه ! لو تقال الاشياء التي لا تقال ، كم كان الناس يبدون أسوياء ؟ كم كانوا بخير لولا النفاق ؟ منافق ؟ لا .. ولكني لست صريحاً ، المجتمع علمني أن أكونه ، أن أتظاهر بما لا أحب . كنت سخيفاً ، وكانت لي حماقاتي ، لكنها لم تكن عفوية كحماقات جوزيف . افعل كل شيء بحذر ، بتدبير ، بخوف من شيء ما ، بدون أصالة ، بدافع من الواجب . الفتى قبل الفتاة في المدرسة ولم يحذر او يتخوف من الطرد . وأبي

اثارته الالمانية في السرير ، والدنيا حرب ، والمدير قادر على شنقه ولم يفكر بالشنق . ولا أم بشير فكرت وهي تجمع الفساتين الحمر ، او تحسّب خليل وهو يلصق النشرات في اول أيار ، او تردد جوزيف أمام نداء العينين الى الأخذ .

كانت تصرخ: Il me plait, il me plait comme dans la Train

والمصعد يهتز ، والناس يضغطون ازراره ، وهي تعيش لذتها ، غير مبالية بشيء . انها تعيش ، وأنا لاأعيش ، اكتب قصصاً ولا اعيش حياة . عالة على جوزيف ، وجوزيف غارق في الديون . . مناضل ؟ حسناً ، ليس النضال داخل الجدران .. احمل صليبك وارحل .. هذا هو الطريق . »

عاد أخيراً الى البيت .. كانت هناء على نار .. تخاف أن يرجع جوزيف فلا يجده ، فينهال عليها لوماً وتقريعاً .. وحين صار فياض في الداخل قالت له :

– هذه اول وآخر مرة .. ندمت بعد أن سمحت لك بالخروج ، ماذا لوحدث لك حادث ؟

– وماذا يهم ؟

« كيف ماذا يهم ؟ » أرادت أن تشرح قلقها ، ومسؤوليتها ، وخطوره تصرفه ، فابتعد متجهاً الى غرفته يملؤه الأسى والهم .

اغلق الباب وراءه ، وتمنى ألا يدخل عليه أحد .

* * *

وقال له جوزيف بعد قليل :

– لك عندي بشارة .

– ما هي ؟ .

فأخرج رسالة وقال : « هذه هي » . تناولها فياض ونظر في غلافها .. كانت بدون طوابع ، بدون ختم ، وإذن فهي ليست من الوطن ، بل من صديق يراسله من بيروت بالواسطة .

شكر جوزيف، واعتذر اليه عن السهر ، زاعماً انه سيكتب، ولما صار وحده فض الرسالة وقرأها . كانت تصف حالة المشردين من أمثاله :

« الوجوه الشاحبة ، السادرة النظرات ، تطالعك في كل شارع .. لو رأيت الى اخواننا الآن ، لحسبت ان ينبوع الأمل غاض في اعماقهم حتى لم يبق الا السراب .. ينظرون الى الدنيا تتحرك من حولهم وهم واقفون .. العمل كل امنيتهم ، ولكن أين هو ؟ . ليسانسات بالعشرات تعرض كتذاكر الهوية على ابواب مدارس خاصة تمرست بترويض ذوي الحاجة . تقول لهم : « معكم ليسانس »؟ طيب مئة وخمسون ليرة في الشهر ، ثلاثون ساعة تدريس في الاسبوع ، عشرة صفوف، الف دفتر وظيفة .. ويدخل المعلم معسكر الاشغال الشاقة ، وتلفظه المدرسة في الصيف بلا راتب ، معصوراً حتى الثمالة ، كليمونة رقيقة القشرة .. وهؤلاء هم السعداء، وهم القلة . أما الآخرون الذين لا يحملون ليسانس في التعليم ،فانهم يلوبون جائعين

معذبين ، كل منهم يحاول أن يجد، في كل يوم ، عملا ما : طراش، دهان ، اجير لحام ، عامل بناء ، عتال في المرفأ . أي شيء من هذا القبيل ، ولكن هيهات ، فالرفض هو الجواب الدائم . وكل يوم يقومون بنفس المسعى ويلقون نفس الخيبة ، وكلما طلع نهار جديد حاولوا ايقاد نار جديدة ، ولكن من العبث اشعال سيكارة مبللة.. انها تتفتت ، ولا ينال المرء سوى دخان دنس » .

طوى الرسالة وأعادها بهدوء الى المغلف .. اجتاحته موجة من الحزن غمرت الموجة السابقة .. « كلما طلع نهار جديد حاولوا ايقاد نار جديدة » وأغمض عينيه ليتصور الباحثين ، كل صباح، عن العمل والأمل ، وتخيلهم سائرين مترنحين في شوارع المدينة الكبيرة، او واقفين معذبين في ساحاتها يحدقون في الناس والفراغ ولا يدرون ماذا يفعلون .. وفكر انه سيكون واحداً منهم ، يبحث بدوره عن اللقمة فلا يجدها ، ويضطر ، كلما طلع صباح جديد، الى اختراع أمل جديد ، الى ايقاد نار جديدة ، وتساءل وقد وضع رأسه بين راحتيه مقهوراً :

« كيف السبيل الى ايقاد نار جديدة !؟ »

— ١٩ —

ترك جوزيف عمله في محل المفروشات الخشبية والمعدنية فجأة . وهكذا جاءت الأزمة بأسرع مما قدر فياض . اليوميات

صادقة . موقف جوزيف المتهور ونزقه مع ارباب العمل واضحان، فالذي عمل في التعليم والمحاسبة والتجارة والصحافة ، ولم يثبت لأنه لايتحمل ، قد كان متوقعاً ألا يظل طويلا فيمعمل المفروشات الذي يملكه شريكان ، فاسيان وغبيان ايضاً . إنما لم يكن يتصور ان جوزيف سيغامر ، ويرضى البطالة ، وهو عنده ، والديون ، والأقساط ، والحاجات اليومية الضرورية تتكاثر ويزداد ضغطها . وحين ابلغته هناء ، وهما يشربان القهوة ، ان زوجها ترك عمله وراح يبحث عن عمل جديد ، سمع دقات جرس الرحيل تقرع قرعاً عنيفاً متواصلا .

وفي معرض التبرير ، قال جوزيف مساء ، ان ما فعله كان لا بد منه « لقد نال مخططي التنظيمي موافقة الخبير الذي عينه الشريك الكسرواني ، ولكن هذا ، وان احاط نفسه بعدد من الخبراء ، لم يكن يعمل الا وفق هواه . شرع ، منذ أن تسلم المخطط ، يشطب منه ، ويضيف اليه ، ويحوره حتى شوهه وطمس معالمه ، ثم ألقاه في سلة المهملات ، وقال : هذا المخطط لايسوى الورق الذي وضع عليه ، والخبير الذي وافق عليه لا يستأهل اتعابه ، انني اعرف كل شيء ، ولن يستطيع أحد أن يجري الماء من تحتي . . هذا المخطط وضع لمصلحة شريكي . »

سأل فياض :

– يشك في شريكه إذن ؟ .

فقال جوزيف :

- يشك بشريكه ، وبي ، وبالخبراء والجميع ، يجلس على ملايينه ويلقي علينا جميعاً نظرة احتقار . أما الشريك فقد صور له غباؤه انني ضـــده ، لمجرد إنني أمثل شريكه ، فراح يعاكسني ، ويقاومني ، ويضطرني الى ترك العمل إضطراراً .

- وقد نجح !

أشعل جوزيف سيكارة ، وسحب منها نفساً طويلاً وقال :

آه ياصديقي ، لاتتسرع بالحكم علي .. تركت عملي لأنني عجزت عن الاستمرار .. جعلني هـذا العمل أؤمن بالسحر وأصبح من أصحاب الطيرة .. : صرت أتشاءم من أشياء وأتفاءل بأخرى ، بينما الأمور تسير من سيء الى أسوأ .. كان علي ان أحارب على جبهة الشريك الكسرواني ، وعلى جبهة الشريك الأرمني ، وعلى جبهة الغباء ، وجبهة الشك ، وأبقى في حالة استنفار لمفاجآت دائمة ، اكثرها آت من تضارب الأوامر والآراء .. كـــدت أجن ، او أنتحر ، وأخيراً قدمت استقالتي وقلت في نفسي : « لنذهب ، الكسرواني والأرمني ، وأنا الى الشيطان » .

« وقال فياض في نفسه : أجل ، كان لابد من الذهاب الى الشيطان . ان مملكة الشيطان واسعة . »

وفي فضاء غرفته ، حين دخلها وأطفأ الضوء ، تعالت دقات الرحيل التي سمعها قبل قليل .. جعلت تدوي وتقترب حتى ظهر

الجرس وارتسمت طريق عليها ، كالإشارة ، صليب من خشب . وخيل اليه ان الدقات تهتف به :

– إرحل ! إرحل ! إرحل !

وقهقه فم كفتحة مغارة ، ونبتت لحيـة سوداء كذيل ، وإرتسم حاجبان كثان مقوسان ، وظهر شبح مقنع كما في الأوبرا الصينية وصاح :

– إلى أين !؟ إلى أين !؟ إلى أين !؟

واشتدت دقات الجرس :

– إرحل ! إرحل ! إرحل !

فاقترب الشبح ووضع يده على كتف فياض وقال :

– لاترحل .. لافائدة من الرحيل .. أنظر .. على الطريق صليب .. وهناك حجارة .. بهذه سيرجمونك .. وإلى أبعد حفرة .. هذه قبر . لن تصل أبـدآ .. انت تعذب نفسك سدى ، ولماذا تفعل ؟ أتريد تغيير الحياة ؟ وما الفائدة ؟ هكذا كانت وهكـذا ستبقى !

وضجت القاعة بدوي الجرس :

– إرحل ! إرحل ! إرحل !

فتحرك الشبح حتى صار قبالته وقال :

- حسناً . ارحل . ولكن قل لي الى اين .؟ ستنتقل من بيت الى بيت ، ومن عذاب الى عذاب ، وأخيراً ؟ العين الخفية تراقبك ، واللقمة المرة تنتظرك ، والكلمة التي تقولها ستضيع ، كالقشة في الريح ستضيع . ان حب الزارع هنا يقع على حجر ، وان نبت يخنقه الشوك .. الأرض دمنة فلا ينبت زرع .

وارتفع من باطن الارض سور أسود في الطريق ، فقهقه الشبح وقال : « امامك سور يا فياض . . وانت لا تستطيع هدم السور .. جرب ذلك « يا جوج وماجوج » قبلك بمئات السنين . . كانوا قوماً بعدد النمل ، وكانوا يلحسون السور من الصباح الى المساء، فيرق حتى يصير كقشرة البصلة ، ثم يأتي الليل فيعود كما كان : لا طريق ! أنا انصحك ، فاقبل نصيحتي . . ارجع . . تعالى الي ، انظر الى وراء : بيت فخم ، مكتب انيق ، فراش وثير وامرأة جميلة . . انت منذ شهور لم تضع يدك على امرأة جميلة . . لم تعانق الدفء في جسد حار ، ولا اطبقت شفتيك على شفتين ، ولا احتوت كفك غدة ملتهبة في صدر، او سمعت اذناك انة استسلام محموم.. الشباب لا يدوم، والعدل لا يرجع الشباب ، والحسرة نار بعد فوات الأوان .. انظر .. »

تطلع فياض فرأى امرأة .. من غير هذا العالم رأى امرأة. كانت توليه ظهرها ، في قميص حريري بلون السمن . . ثم انفتح قميصها من أعلى .. بان أعلى الجذع ، رخاماً موردآ بان اعلى الجذع،

وراح القميص ينفتح ، ولوح الظهر يستطيل ، وتوقف عند الحقوين ، ظل القمص معلقاً بالحقوين ، وخيل اليه أنه سيسقط عنها ، وان تمثالاً حياً عارياً سينتصب أمامه ، لكن المرأة استدارت ، ورأى الصدر فاتناً كالظهر ، والقميص ، من امام ، يستر النهدين ، ويدها تمسك القميص على النهدين، واليد الأخرى ، مفتوحة على مداها ، تتقدم نحوه ليلتف ساعدها الافعواني على عنقه ..

وقرع الجرس الكبير كما في ساعة الخطر او الزلزال ،وظل الجرس الكبير يقرع ، والغرفة تضج وتضطرب ، واصابعه تتلمس الجدار باحثة عن مفتاح الضوء ... ثم اختفى الشبح والمرأة وكل شيء ، ومن بعيد تناهت اليه ترانيم يصحبها عزف على الارغن :

« في ذلك الزمان ، جاء ابليس الى يسوع ليجربه ، فاخذه الى جبل عال جداً واراه ممالك العالم ومجدها ، وقال له : اعطيك هذه جميعها ان خررت وسجدت لي ، فقال له يسوع : اذهب عني يا شيطان .. وقال يسوع لتلاميذه : الحق اقول لكم : ان اراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني .. ان ابن الانسان لم يأت ليُخدم بل ليَخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» .

* * *

جمع فياض كتبه واوراقه وقرر ان يرحل .

اختبأ شهوراً وهذا يكفي . اكرمه اصدقاؤه

ورعوه . فعلوا ذلك تقديراً لأدبه الذي يكافح على نفس جبهتهم . وعليه الآن ان يبرر هذا التقدير .. ان يصمد في وجه الحياة ومصاعبها، ان يخرج ليلقاها .

تذكر رسالة صديقه عن الذين « يحاولون كلما طلع نهار جديد ، ايقاد نار جديدة » وقال: فلأكن واحداً منهم .. ان احاول ايقاد نار جديدة خير من اصطلاء نار الآخرين .. ان ابحث عن لقمتي خير من تناولها من صحون مضيفي .. ثم هاهي صحون مضيفي فارغة .. والشبكة العنكبوتية الدبقة تزحف نحوهم كقدر ، وفيما هم يجاهدون للخلاص ، يصبح وضعي لديهم كحجر مربوط في عنق غريق يصارع الموج العاتي .

« يانفس ! يا نفس ! يا ممتلئة من كل مكر خبيث ، يابنت ابليس ، يا عدوة كل بر .. لا تعوجي سبلي المستقيمة » .

سبله المستقيمة واضحة : ان يمضي ويعمل .. وعليه أن يفعل ، ويلجم كل وسوسة ماعداها .

— ٢٠ —

صاحت ام بشير وهي تراه :

– انت هنا وأنا ابحث عنك ؟ لولا الست هناء ما اهتديت اليك .. عند اختي لا يقولون اين انت ، وخليل غارق في مشاكل النقابة ، والغريب الذي سأل عنك في الحي عاد مرة اخرى ، فقال ابو

خليل : سيكبسون البيت .. ولكن فياض انتقل .. الحمد لله انه انتقل .

قال فياض :

– وانت ؟ كيف انت ؟ كيف العمل ؟ هل لديك زيجة جديدة . ؟

– جديدة ومحرزة .

– ومن العريس هذه المرة ؟

– انت . اتحسب حركاتك خافية علي .. امس كنت عندها .. آه ما اجملها .. ذوق استاذ !انا عشقتها . تصور ، امرأة تعشق امرأة .

قال فياض :

– أنا لا اعرف اية امرأة .

– اذن انا اخترع ، قل رأيتها في المنام . نعم في المنام رأيت فتاة سألتني عنك ، قالت لي : من هو الشاب الذي كان في بيت اختك ؟ وانكرت ان يكون في بيت اختي احد ، فظهر عليها الضيق . قالت : لا تنكري ، رأيته بعيني . كان في الغرفة لا يخرج منها ، وكان يقف وراء ستارة النافذة ، وسمعت في الحي همساً حوله ، وراقبته وادركت ان له مشكلة .. انا لاادري ما قصته ولكنني .. وسكتت ..

قال فياض مقاطعاً :

– وانت استنتجت من سكوتها انها تحبني .

– في المرة الاولى نعم .. ولكن بعد ذلك تكلمت اكثر .

– وماذا قالت ؟

– ولماذا تسأل ؟ اذا كنت لا تعرفها فلماذا تسأل ؟

لا جواب . الصمت اقرار، وهو الآن اقرار عذب واسيف. والاسف ليس من الخجل ، فالمرء حين يكون محبوباً لايخجل ، يشعر بزهو ، وفياض يمارس هذا الزهو مشوباً بحسرة . « ابلع السكين ولو جرحتك . قل انك لاتدري شيئاً ، انت أسوأ من سجين ، هذا يعشق من نافذته وانت فلا . السجن بيت السجناء ، وانت سجين بدون بيت ، ومن العقوق ، في شرعة الاخلاق ، ان يعشق المرء من نافذة جاره . لقد ثقبت « الأخلاق الفاضلة » للحي ، في بيت صديقك ،ولو علموا انك استخدمت نافذتهم للعشق لارتابوا في انك استخدمت بيتهم للعشق ايضاً ، وعندئذ ينبت قرنا الشك ويشوهان وجه من هم في مثل وضعك . المفروض انك مناضل ، والمناضل من حفظة الوصايا ، ولا حق لك في أن تلطخ الصورة . المسمار الذي نزعته من قلبك أعده الى مكانه . دع جرحك ينزف . اشرب كأس الخل . اشعل عود ثقاب واحرق البرعم . موّه الأمر على ام بشير طالما انه صار في ذمة الماضي .»

قال فياض :

- أسألك بدافع الفضول . أليس عجيباً أن تحبني فتاة بغير أن أعلم ؟

- الاذن تعشق قبل العين .. اما سمعت المثل ؟

- ولكني صاحب مشكلة كما تقول .

- أصحاب المشاكل محبوبون اكثر .

- فسري المسألة كما يحلو لك .

- أنا لا افسر بل انقل . قالت انها تحبك ، وحتى لو لم تقل فهي تحبك .. أتحسبني جاهلة ؟ تذكر مهنتي .. التي تزوج الناس تفهمهم على الطاير .

دخلت هناء حاملة القهوة ، فسكتت أم بشير وغيرت الحديث . بينا راح فياض يدور في الغرفة ليرتب أفكاره . قال في نفسه « لا يمكن التمويه على أم بشير بسهولة » . وأضاف : « لماذا أفشت الفتاة سري ؟ أهي تحبني حقاً ؟ وهل احبها أنا حقاً ؟ حسبت المسألة لهواً ، وحتى لو صارت جداً ، فما كان لها ان تتكلم .. بعيدة هي الآن . بعيدة أكثر من كل بعد ، ولن يرى أحدنا الآخر . طيفاً كانت ، وطيفاً كنت . حلم .. حلمنا ثم أدركنا الصباح ، ومن حسن الحظ ان الأحلام تنسى بسرعة . »

هناء وأم بشير يتحدثان ، يشربان القهوة . ماطعم القهوة؟ في الماء ألقي حجر . ولسوف يروق الماء ، وكرة اخرى يلقى فيه حجر ،

ويظل يشتهي ان يلقى فيه حجر .» في بيت أبي خليل أحسست ان زهوري تذوي فاستسقيت الغيب نقطة مطر . ثم جاءت نقطة المطر. المرأة ونقطة المطر . أعز وأغلى ، ولـكن البحور السبعة أمامك . عليك ألا تلتفت الى وراء . . بدون إمرأة أمض . « ست بدور » على الشواطىء الأخرى ، ومن يطلب إمرأة ، لايصطحب معـــه إمرأة . »

وصاحت به نفسه : « لابـد من إمرأة » وصاح بنفسه : « أفهم ! أفهم ! أنا لاأرفضها ، ولكن في مثل وضعي ، ماذا أفعل بها ؟ تسير في طريقي ، أم تميل بي الى طريقها ؟ هنـــاء أخرى ؟ « ياجوزيف ثلاجة ، غسالة ، سيارة » . ام فتنة كالتي راودته أمس: جذع عار ونهدان مسكران ؟ وأنا ؟ والدرب الطويل ؟ وحدي أم معي إمرأة ؟ صليب وإمرأة ؟ أم إمرأة بدون صليب ؟ أم صليب بـــدون إمرأة ؟ ايه ، يانفسي ! يانفسي ، لاتعوجي سبيلي المستقيمة ».

وقال لأم بشير بعد ان خرجت هناء :

ـ طلبتك لتدبير عمل لا زوجة . أرجوك ، ساعـديني في الحصول على عمل . طلبت ذلك من أصدقائي فرفضوا . وخليل ايضاً رفض . ربما كانوا على حق . ولكني لاأطيق البقاء . يكفي ،علي ان

أحصل على خبزي . سأذهب ، ولن تراني الفتاة مرة أخرى، قولي لها لم أره ..

* * *

ذهبت أم بشير واعدة بالبحث عن عمل . قال لهـــا : « أي عمل .. أريد فقط ان أخرج وأعيش » وقالت له : « سأبذل جهدي».. وتنفس بارتياح وقد أصبح وحيداً في الغرفة . لقد خطا خطوة تؤكد عزمه على الصمود ... حسم الموقف بعد طول تردد .

القسم الثالث :

— ١ —

إنسل فياض من غرفته في بيت جوزيف في الصباح الباكر . ترك حقيبته ورسالة على الطاولة ومضى .. لم يودع مضيفيه ولا قبل الصغيرتين او قال كلمة عما أنتوى . هو الآن « سليمان »، عامل بناء في ورشة بـ « كرم الزيتون » .. انتهى عهد « المدرس والكاتب » .. قطع المعبر البارد بين ما كان وما سيكون ، ووضع حداً للخور المعذب .

* * *

في صف طويل وقف بين عشرات العمال . المعمار الذي عرفته به أم بشير ناداه وسجل اسمه ، ثم أرسله الى الطابق الثالث لإنزال الأعمدة الخشبية والحجارة الى الباحة ، كانت الشمس قد أشرقت لتوها ، وخصل تتدلى من النوافذ وتتساقط على الأرض والادراج ، وبيروت تستيقظ على صفير البواخر وقعقعة الرافعات، ونسيم صباحي لطيف يهب من الشرق ،والبحر الأزرق اللانهائي يتمطى ، ورهبة من المجهول تتملك فياض وهو يمشي ليباشر العمل .

رفع عامل طرف لاطة ثخينة وامره : «احمل معي» فوضع كتفه ، مثل زميله ، تحت الطرف الآخر لهـــا ، وسـار باذلاً أقصى جهده كي لا ينوء بحمله .. كان يهتز ويضع قدمه بحذر خوف التعثر ، وبدأ يهبط الدرج العريض ، وقد لف ذراعه حول اللاطة ، واخذت هذه تضغط على رأس الكتف وتحفر فيه .. فلما صارا في الباحة قذفا ، بوقت واحـد ، اللاطة فوق كومة الاخشاب .علت ضجة صماء وثار غبار ، ونفض يديه وتنفس .. الآن يصعد فارغاً .. حتى الطابق الثالث يصعد فارغاً .. «لا بأس . حمل الاعمدة ليس بالأمر المخوف .. وأنت ايتهـا الشمس ، أراك الآن أبهى ، انني عامل بناء . »

وقال له زميله : حين ترفع اللاطة باعد مابـين قدميك ، ذلك يريحك اكثر . فعبر عن شكره بابتسامة بلهاء . ومن جديد اهتز جسمه تحت ثقل الحمل ، وتقوس ظهره وهما ينزلان الدرج . كان في الطرف الأمامي ، والثقل يميل عليه ، والعمود يحفر رأس الكتف ، والساعة السابعة صباحا ، وامامه عمل حتى المساء ، امامه عمل حتى المساء .

« يافياض ! يافيـــاض ! ياحديدة ألقيت في نار ، اصمد ، ولسوف ينصهر المعدن . »

وقال المهندس وهو يراه في بدلة جيدة :

- لماذا لاتلبس ثياب العمال ؟ أنت في عرس أم ورشة بناء؟.

لم يجب بشيء . تغابى كي لا يجيب ، فتركه المهندس وشأنه ، مكتفيا بلفت نظره الى مسلكه الشاذ ، بينما اعترف هو : « ابدو عريساً فعلاً .. ام بشير على حق في سعيها لتزويجي .. يجب أن أحصل على ثياب عمل .. غدا أحصل على ثياب عمل . »

توالى الصعود والهبوط ، احمر رأس الكتف ، تبقع ، التهب بنار ، فعمد الى الكتف الاخرى . راح يرفع ، وينزل ، ويطلع ، والأعمدة تضغط ، والكتف تحمر ، تتبقع ، تلتهب ، والغبار ، كطحين اسمر ، كشيب ملعون ، يزحف ليغير معالم الجبهة ويلوث الشفتين . مسمار ناتىء خدش العنق ، فسال دم وتجمد . تغطى بالتراب ، كالخدوش الاخرى تغطى بالتراب ، ثم كف عن أن يكون خدشاً ، فهو لاشيء أمام تسلخ الكتفين ، ونخزه لانخز امام النار الكاوية فيهما ، والمساء بعيد ، المساء بعيد لايزال .

ارتفعت الشمس ، فتندى الجسم بالعرق ، وتفصد الجبين ، وتشكلت قطرات وسالت .. ها هي اخاديد على الجبهة والخدين ، تبدو كالغضون وسط الغبار والقش ، والقميص يلتصق بالصدر والظهر ، وماء كالزيت يتفشى ، والساعة العاشرة بعد ..

جاء الأمر بالانتقال الى عمل آخر : رفع الاتربة والبيطون والآجر من الغرف ، ونقلها بعربات يد حديدية صدئة ..

قال العامل لفياض : « اترفش ام تجر العربة ؟ » وتناول الرفش صامتاً .. رأى ، وسط الصالون الكبير ، تلة من ركام ، ورؤوسا تتحرك كأشباح ، ومن حولها ينعقد الغبار ، وصاح به المراقب : « ابدأ من هناك .. من الطرف » ودفع الرفش وكبس عليه بقدمه ، فاصطدم بآجرة ، ولم يرفع الا قليلا ، فسحبه ودفعه فوق الآجرة ، وسمع صوت الحديد يحز على القرميد ، وجاءه صوت المراقب ساخراً : « مد يدك .. ارفع الحجر والقرميد وارفش التراب فقط ! » وكذلك فعل .. وقال له المراقب : « خذ المطرقة وحطم الباطون ، افرز الحديد عن الاسمنت . » فامتثل للامر ، وراح يعمل ويراقب الآخرين ، وكلما امتلأت عربة حلت اخرى مكانها .. وفي باطن كفيه برزت فقاقيع صغيرة ، ملأى بسائل اصفر ، ثم انفقأت ، واشتعلت فيها النار ، والساعة الحادية عشرة بعد ..

« فياض ! يا فياض ! يا حديدة تحت مطرقة حداد .. اصمد وسوف تتشكل منك اداة »

وقال له المراقب : « اترك المطرقة ، وجر هذه العربة . » وكانت ألواح خشبية ، كالصقالات ، ممدودة وسط الغرف وعبر الأبواب ، وعليه ان يدفع العربة فوقها ، ويذهب مع استقامة اللوح ، والا انحرف الدولاب وسقطت العربة ؛ وحين يلتقي لوح بآخر

تحدث فجوة ؛ وفي هذه الفجوة يغوص الدولاب ؛ وعليه ان يدفع لاخراجه .. عليه ان يسير بقوة حتى يقفز الدولاب عن الفجوة .. ان عامل البناء يفعل ذلك ، وأنت الآن عامل بناء ، وعقارب الساعة تزحف ببطء لتعلن انتصاف النهار .

* * *

جاء اوان الراحة .. ساعة كاملة للراحة .. وشتم العمال وهم يغسلون ايديهم : «لا نكاد نأكل وندخن حتى ننهض الى العمل .. ما أقصر ساعة الراحة . » فقال فياض في نفسه : « ومع ذلك فهي ساعة كاملة للراحة .. »

اشترى خبزاً واقراصاً من الفلافل وبعض المخللات .. فعل كالآخرين ومثلهم سار الى الباحة .. وعلى جريدة ، أو صرة ، وضع كل منهم زاده ، وشرعوا بالمضغ ، وكذلك مضغ هو ما اشتراه ، وشرب بعد ذلك من زجاجة ما فيها من ماء ، واتكأ الى الجدار في الفيء المنعش ، واشعل سيكارة ، وود لو يترك هكذا الى انقضاء الدهر ..

فوقه كانت تنبسط سماء صافية ، فاتحة الزرقة وصافية ، ونسمات تهب كأنها مدفوعة بمروحة ، وابنية شاهقة ، ترتفع من الهضبة الى البحر .. ابنية ذات طوابق ، وادراج ، ونوافذ ملونة ، وسكان لا يدري من هم ، ولكنه يعرف انهم موجودون ..الآن لا

تفكير . فيء وزرقة وطراوة، وجسم مكدود . السماء بعيدة، والسماء واسعة .. ابنيـة ، كأبراج بابل الابنية ، تلامس السماء الأبنية ، وظهور مقوسة ، تدب على الأرض وفي الخنادق وعلى السلالم ، صاعدة ، هابطة. وعروق زرق ، وجسوم صفر، وسياط، واهرامات ، وهامات ، ونمل ، وعقب حديدية ، ونمل ، ثم نمل .. وجسم يئن ، كبكائية يئن ، كأوف من اهوار العراق يئن .

« يا فياض ! يا فياض ! يا حجراً رفضه البناؤون ، أصمد ، لتصير رأس الزاوية اصمد » .

* * *

وقال له زميله العامل :

– هـــذه اول مرة تعمل فيها في البناء .؟

– تقريباً .

– وماذا كنت تعمل ؟

– في أعمال مشابهة .

– تبدو مثل الخواجة !

فقال عامل وفمه مليء بالطعام :

– الخواجات لا يعملون في البناء !

وعلت تمتمات أعقبتها شتائم ، وصاح المراقب من بعيد :

– الى العمل يا شباب !

وقال عامل :

ــ سنعود الى نقل الأخشاب . خذ هذا الكيس فاطويه وضعه على كتفك .

واخـذ الكيس وشكر زميله ، ثم سار صامتاً ، كالذين حوله ، كمن سبقوه ، كمن لحقوه ، كالذين بنوا الاهرامات ، وكالذين ماتوا لبناء الاهرامات !

ــ ٢ ــ

انقضى يوم العمل .. جبلة الباطون كانت الخاتمـة ، ومن بعدها تفرق الطابور يجرجر نفسه . ألقى فياض التنكة الفارغـة وتنفس .. الآن لا تفكير بسوى الراحـة . ان يقعد ويستريح ويظل كذلك قاعداً . الهواجس تراجعت وانتفت .. امتصها تعب الجسد . ولو كان له مأوى لهان الأمر ، بيد ان المأوى كان مشكلة ، ولا بد من ايجاد حل لهذه المشكلة .

مضى يطوف في الشوارع على غير هدى .. سلك الأزقـة الفرعية فيما الليل يهبط والمشكلة تتعقد . صمم على الابتعاد عن بيت أبي خليل وبيت جوزيف ، ووجد نفسه كمتشرد حقيقي بعد يوم من العمـــل المضني .. كان منهوكاً ، لا يقوى على السير ، فغامر ودخل أحد المقاهي الصغيرة ، واحس وهو يشرب قهوته في مكان

عام كهذا بعد انقطاع طويل ، كأنه يعود الى العالم من جديد ، وكأن جميع من حوله يعرفون حقيقته ، وينظرون اليه بفضول .. ولما مل الجلوس خرج يتسكع ويزداد قلقاً كلما أوغل الليل في زحفه .

كان عليه ان يقرر أين يقضي ليلته ، وقد أسف لأنه أضاع الفرصة ، فلم يسأل زميله العامل ان يذهب ويبيت عنده ، ورأى الناس يسرعون الى منازلهم ، حاملين الفاكهة ومختلف الحاجيات .. ومر أمامه ، قاطعاً الطريق بالعرض، كلب يتبختر ، فتابعه بأبصاره حتى انزلق من فجوة في سياج ودخل أحد البيوت ، فتنهد مستشعراً الحسد ، وواصل طريقه الى كرم الزيتون .

ولما لم يكن لديه ما يعمل ، ولا قرر أين ينام ، فقد صعد الى الرابية وجلس على طرف صخرة ، وراح يتأمل المدينة الكبيرة المشعشعة ، مصغياً الى الضوضاء التي تتصاعد من قاعها كدبيب الجن . تراءت له بيروت محصورة بين الرابية التي يجلس عليها وشاطىء البحر ، وخيل اليه ان أبنيتها قد تحولت الى خيول حجرية تزحف في كل اتجاه وبدون نظام . فهي تكبر وتكبر من كل الجهات ، وتتصل على امتداد الشاطىء ، وتفتح ذراعيها فتحتوي البحر . وبدا الجبل الموشى بالدروب المضاءة يتراجع خطوة أو خطوتين ، مفسحاً المجال لهذا الشريط من العمران العجيب الذي يؤلف الساحل .

وكانت الأنوار في الجبال ، تتراءى كالعناقيد ، وتتدانى الروابي من الماء فتجـاوره ، وتطل عليه بانخنـاء ، حتى ليخيل الى المرء ان في وسعه الجلوس على طرف الجبل وغمس قدميه بالبحر .

قال في نفسه : « كل هذه الدنيا وليس لي مكان أسند رأسي اليه ؟ ماذا جنيت اذن ؟ ولماذا انا معاقب ؟ » وتمثل ، وهو في غربته وبؤسه ، كل غرباء الدنيـا وبائسيها ، وود لو يمسح على رؤوسهم جميعاً .

وحوالي الساعة العاشرة نزل من الرابيـــة ، وانحدر في الوادي ، ثم صعد الى كتفه الأخرى ، ومضى الى أشجار الزيتون الهرمة التي كان يأتيها في الماضي ، فاقتعد جذعاً ، وقضى ليلته الأولى وهو يرتجف من البرد .

– ٣ –

لم يعلم جوزيف بشيء مما حدث . كان قد تسلم عملا جديداً في محل لبيـع البضائع غير الصيدلانية للصيدليـات . وكان صاحب العمل يترنح من ضربة الحرب الكورية ، اضافة الى انه مشوش ، لايعرف ماله وماعليه . وقد قال لجوزيف : « انت تعمل معي لانقاذي » . فاجفل جوزيف من هذه البداية ، واضطر الى تقبلها كواقع لاحيلة في دفعه . ومضت ثلاثة ايام لم يقم بسوى الشروع

بالانقاذ ، كابدال سندات بسندات ، وسماع كلام الدائنين القاسي ، وتحمل اللطمات من كل نوع .

بذل كل معرفته في حساب الفائدة وفائدة الفائدة، واستنجد بكل خبرته لتدبير مبلغ يسحب به سنداً مستحقاً ، فلم يجد سوى الاستدانة من جديد بفائدة مرتفعة ، وتحرير سند سوف يستحق بدوره فيضطر أيضاً الى الاستدانة لسحبه .

ولقد أخفى متاعبه هذه برغم انه كان موقناً ان حالة التاجر ميئوس منها ، وعليه ان يقدم دفاتره الى المحكمة ، والأسوأ من هـذا انه ليس لديه دفاتر قانونية ، والسجن ينتظره .

وقال جوزيف في نفسه : « لابأس ! لابد ان هناك عملا جديداً ينتظرني ، طالما انني اعمل عند رجل مفلس . » وكان هـذا التاجر مفلساً منذ زمن ، ولايملك الا قدراً كبيراً من التـدجيل الذكي اللابس لبوس الصدق. كان التاجر يصدق بأكثر مما يكذب، فهو غير سيء الخلق،ولولا الفوضى الاقتصادية والطمـع في الاثراء السريع لـكان بخير ، أما الآن فكل مابقي له هو اخفاء حقيقة وضعه المالي اطول مدة ممكنة .

وظهر لجوزيف من دراسة أعمال المحل ان صاحبه كان يستدين من هذا بفائدة تفوق قيمتها قيمة الربح ، ليسـدد الى ذاك دينا كانت خسارته ، في وقته ، اكبر من ربحه ايضاً ، وهو يجهل ماذا

كان يربح ام يخسر .. كان يتداول النقود ، قبضاً ودفعاً، بعشرات الالوف شهرياً ، وكان كل شيء على مايرام ، عندما كانت الحرب الكورية على مايرام ، ثم انتهت فجأة فحدث الارتباك ، ووجد نفسه بعد شهور عاجزاً عن تسديد استحقاقاته في مواعيدها .

والعجيب ان هذا الرجل الذي لملم مايعرفه عن التجارة من هنا وهناك ، كان طيباً بخلاف زملائه .. كان لايفتأ يردد أمام جوزيف باستسلام وانكسار : « يجب ان تساعدني على ترتيب وضعي ! » وقال له مرة : « اعرف اني في عجز . ولكن لا اعرف كم يبلغ عجزي » واضاف : « مارأيك لو اشتريت الانسيكلوبيديا بريتانيكا ، علي اجد فيها ماينفعني ! ؟ »

وظل جوزيف يهز برأسه ويبتسم لفكرة معلمه ، واعترف وهو عائد الى البيت انها فكرة وجيهة . وقال في نفسه : « ربما كنت انا ايضاً بحاجة الى هذه الانسكلوبيديابريتانيكا ! »

كان من عادته ، ومهما تكن متاعبه ، ان يدخل البيت بضجة تنبيء بقدمه . فهو يتكلم ما ان يلج العتبة ، ويذهب الى المطبخ فيضع مايحمل من حاجيات ، فاذا مالحت به الصغيرة الخرساء حملها وقبلها ومنحها فيضاً من حبه في محاولة لاشعورية لمؤاساتها .. ثم يتبادل مع هناء بعض العبارات ، او يقذف ، لسبب بسيط احياناً ، بعض الشتائم ، او يسأل عن بعض الاشياء ، ثم يتجه بخطوات عجولة الى غرفة فياض .

وكعادته قرع الباب على فياض فلم يتلق جوابا . وقالت هناء من المطبخ بنبرة اعلامية بحتة :

ـ الاستاذ ذهب ياجوزيف .

ـ الى اين ؟

ـ لاأدري .. فتحت باب الغرفة في الصباح فلم اجده .

ـ لم تجديه ؟!

ردد وهو يفتح الباب ، فلاحقه صوت هناء :

ـ نعم لم اجده .. يارب كم هو حساس ! بدا حزيناً جداً في الأيام الأخيرة .

توقف جوزيف وسط الغرفة واضعاً يديه في خاصرتيـه ، وراح ينظر غير مصدق الى الاشياء الكئيبة في الغرفة الفارغة . كانت رسالة على الطاولة ، والى جانبها علبة تبـغ نصف فارغة ، ومنفضة فيها اعقاب كثيرة .. وكانت الرسالة تقول :

« صديقي الطيب .

«قلت في احدى يومياتك ان كلاًمنا يحمل صليبه ، والفارق بين انسان وآخر هو في كيفية حمل هذا الصليب : هل ينحني تحته ويتجرجر ، ام يرفعه برجولة ويمضي ؟ سأجرب ان اكون من النوع الثاني .

« اقدر كل الظروف التي تحيط بي ، وقد اعتزمت ان

اخرج اليها واواجهها . لقد سئمت التواري والمصاعب تطرق على الباب .. اللقمة ستكون ابسط ، واصعب ، ولكنها ، من عرق جبيني ، ستكون اطيب وانفع .. الانسان كالماء ، اذا لم يجر ، يأسن ، فدعني اجري ، كساقية ضائعة ، ذلك افضل من البقاء راكدا ، كبركة تسرح فيها الضفادع .. انسانيتي نفسها غدت بحاجة الى اثبات ، فالتحلل يتهددها ، وعلى ان ادفع عنها الفساد .

« سأتصل بك حين تسنح الفرصة ، فان صحبتك لذيذة ، والعيش معك لايمل ، ولسوف اذكرك دائما ، والى اللقاء . »

حمل جوزيف الرسالة الى غرفة الطعام ، وقرأها مرة ومرة ، وجاء بزجاجة عرق وصب قدحا وآخر .. وراح يدخن ويدخن .. ثم تخدر دماغه وراح يتصور الناس اجساما تنوء بصلبانها .. بعضها يسقط ، وبعضها ينهض ، وتصور صاحبه يحمل صليبه في هذا الموكب الكئيب الحافل ، ويرفعه الى اعلى ، في نوع من التحدي الجبار ، ويسير في المقدمة ، داعيا الآخرين الى الاقتداء به ، لمواجهة العالم دون خوف من ألم او مسغبة .

— ٤ —

زعمت أم بشير لدينيز انها لم تر فياض .. ولانها لاتستطيع اخذ اية قضية بجد ، فقد ادركت الفتاة ان ام بشير لاتقول الحقيقة ، واعطتها انطباعا مهيأ ، وكان هذا صدمة قوية لفتاة

غازلها ، طوال مدة دراستها ، عدد غير قليل من زملائها ، ولاحقوها دون اكتراث منها . لقد اخرجت دينيز احد اساتذتها عن وقاره ليعلن لها ، في بطاقة دسها لها بمناسبة رأس السنة ، انه يهواها بكل جوارحه . وقد استثارت ، بعد المدرسة ، شهية كل ذئاب الحي ، وبينهم ذئاب ذوو مكانة ، ولهذا لم تكن تتصور مطلقا ، ان يوما سياتي ، تعرض فيه نفسها، او تقدم هذا العرض على صورة اشفاق، فيلقى رفضا قبيحا كهذا الرفض، من جانب شاب غريب ومجهول .. وربما وضيع ايضا .

« زعموا ان القلب دليل ، وهذا كذب .. ليس القلب دليلا دائما ، وقد يكون دليلا خادعا احيانا ، ولو ادركت ذلك قبل التورط لاحترزت من الاهانة ، ولولا صراحتي ، لما افضيت بما في نفسي لام بشير دفعة واحدة ، لقد كان علي ان اعرف ذلك ، وان اتجنب استدراج هذه المرأة التي اوقعتني في الفخ من الجولة الاولى .. والآن لم يعد لام بشير ماتفعله هنا ، ولن اشجعها على العودة مرة اخرى .. انها تكذب ، تزعم انها لم تره وقد رأته ، وتوحي الي بأن اتركه وفي هذا كل المكر .. كان خليقا بها ان تصارحني كما صارحتها ، ان تقول رأيته وحدثته فقال كذا .. وكان عليه ان يكون اكثر جرأة ونبلا ، ان يعلن رأيه بشكل آخر ، ينسجم مع ماتوسمته فيه من شجاعة »

دخلت غرفتها ، واغلقت الباب ، وكذلك اغلقت النافذة ملعونة انت ايتها النافذة . استلقت على الخوان ثائرة ، وظلت كذلك حتى هدأت اعصابها ، وزال الضغط من جراء الصدمة المفاجئة ، وعندئذ انشأت تبحث عن القناعة الضائعة ، وتبرر تصرفاتها بمايرضي كبرياءها. وراح عقلها يمدها بكل الحجج اللازمة لهذا التبرير ، بكل التأكيدات على انها لم تحبه وانما اشفقت عليه . وراحت ترتقي شجرة الرفض وعقلها يضع لها المساند، لكنها، في مساء اليوم نفسه ، هبطت على ذات المساند مع تيار العاطفة، واعترفت ، في نوع من الخضوع اللذيذ ، انها تحبه .

كان ظمأ الشوق قد اقبل في موكب الليل ليجعل من الينبوع السراب القاتل . وكانت تعرف ان ينبوعها اضحى اقرب الى الوهم ، وان لاماء ولا ارتواء ، ولكنها ، في محاولة للتعلل ، راحت تلمس الاعذار لتزيح الشك جانبا . وقالت في نفسها «لابد انه كتم سره عن ام بشير فتظاهر بانه لايعرفني» فقال عقلها : «صحيح» وقالت : «ربما كان مصيبا طالما ان له ظروفه الخاصة» فقال عقلها : «صحيح» وقالت : «ان ظروفه صعبة ، وربما كان في خطر» فقال عقلها : «صحيح».. وخفق قلبها بقوة وهي تذكر الخطر ، وتمنت ان ينجو وان يعيش .. «حتى لولم اره ، ارجو ان يكون في مأمن وان يعيش» .

تصورته كما رأته في النافذة ، بوجهه الشاحب الجميل ،

وعينيه الحالمتين ، ونظراته الاسيفة ، واستشعرت الندم على مابدر منها . ودت لو تمسح على رأسه بكل ما في صدرها من عاطفة الانثى ، وفي غمرة الاشفاق صاحت بدون كلام « لوكان يرضى لانتظرته مهما حدث » فسألها صوت من داخلها : « مهما حدث ؟ » فقالت باصرار « نعم مهما حدث » .

وقامت الى الشباك ففتحته . . . هناك ، في الشباك ، رأته . . لقد ذهب هو وبقيت صورته . . على الشباك صورته . . وانها لتراه اذ تراها ، ولسوف تحتفظ بها تذكارا .

واغمضت عينيها تسترجع الماضي . . وتذكر ما كان ، وكيف كان ، وكيف رأته لاول مرة ، وكيف رأته لآخر مرة . . ومن بعيد كانت فيروز تغني :

يا ها الشباك عالي انت وبعيد .

وع اسمك بغني الحب وبعيد .

— ٥ —

اتخذت ام خليل مجلسها على الحوان وراحت تلاحق المارة بنظرات متسائلة متوجسة . صار التفكير بخليل الآن كل شغلها ، وصارت سلامته كل املها ، وانصب ، بالمقابل ، غضبها على « المجامع » والنقابات ، وعلى المجانين الذين يلعبون بالنار .

كانت تقول في خوف واقتناع : «الحكومة هي الحكومة، عندها الشرطة والدرك والجيش ، وهي صاحبة الأمر و النهـي ، ومن عجبه يشتغل ، ومن لايعجبه يضرب رأسه بالصخر .. هـــذا الكلام قلته لخليل الف مرة ، افهمته ونصحته ، ولكن على من تقرأ مزاميرك ياداود ؟ يذهب ويجيء،ويعقدالمجامع،ويكتب العرائض، ويدور مع اصحابه على الصحف ، ويقابلون الوزير ، ويطالبون بحقوقهـــم ، ويقولون ان الوزير وعدهم ، والجرائد ناصرتهم ، والنقابات ايدتهم ، والنتيجة ؟ »

- فالصو ! قال ابو خليل .

- اي نعم فالصو .. ظـــلوا مياومين ، وظلت الاجرة ذاتها : اربع ليرات لاطالعة ولا نازلة ، ومن سنتين وهم يهـددون بالاضراب ، ظانين ان الحكومة تخاف،ولكن الحكومةلاتخاف، لو كانت تخاف ما كانت حكومة .. وبعد ذلك قرروا الاضراب، وانتخبوا لجنة ، وصار خليل من اعضائها ، فقلت في نفسي جاءت البلوى ، وصدق ظني .

قال ابو خليل :

- ظنونك السيئة تصدق دائماً .

- لان المكتوب يقرأ من عنوانه .. قلت لهالاضراب نار، فلا تحرق يديك ، فلم يسمع .. وهاهو الاضراب وهاهي النار !

تدخلت ام بشير الجالسة قبالتها على الخوان قائلة :

– لاتستعجلي .. نتيجة الاضراب لاتظهر بيوم او يومين .

– ومتى تظهر ؟

– الاضراب يطول احياناً .. اضراب عمال الريجي ..

قاطعتها زاعقة :

– اخرسي .. انقبري ،لاتتدخلي في شؤون ابني .. فلقتينا باضراب عمال الريجي .. كلما دق الكوز بالجرة ذكرت اضـراب عمال الريجي ، اغتنوا من اضرابهم ؟

– لم يغتنوا ولكنهم تثبتوا .. حصلوا على حقوقهم ..قولي على نصفها ، هـــذا قليل ؟

– والذين ماتوا ؟ والذين سجنوا وسرحوا مثل حضرتك ؟

– من لايدفع التسعة لايحصل على العشرة .

– وعلى ماذا حصلت انت ؟

– انا واحدة من المجموع .. نلت حقي .

– نلت لعنة !

– نلت حقي وزيادة .. التعويض و ٨ ساعات عمـــل في اليوم ، ماذا تريدين اكثر ؟

– قومي من وجهي .. لعنة الله عليك وعلى الاضرابات.

وتدخل ابو خليل :

– قومي من وجهها والا ضربتك .. (وبعد وقفة) لماذا لاتنضمين الى عمال الهاتف المضربين ؟

– أنا امرأة .. والاجدر ان ينضم الرجال .

– نحن ضد الاضراب .. ام خليل وانا ضد الاضراب .

– وزوجة خليل ؟

رفعت الكنة رأسها وابتسمت .. كانت هـــذه هي كل مشاركتها في الحديث . وقد بدت ابتسامتها عصبية ، حزينة ،وبدا عليها الخوف بما تسمع ، ولكنها رفضت ان تقول كلمة ضدزوجها، وتمنت لو يرتاح لسان حماتها .

ولما تعبت هذه امسكت . لم ينشط احد للمزاح حتى ولا ام بشير .. انباء الاضراب سيئة جداً،والجميع على شك من نجاحه، خاصة بعد ان اعلن الوزير انه اما ان يكسر الاضراب اويستقيل. ومع ان العمال رفضوا تهديداته ، وقرروا المضي في الاضراب ، والصحافة كتبت ، والمنظمات ايدت ، الا ان الجو السياسي العام لم يكن مؤاتياً .

وكان خليل يدرك هذه الحقيقة ، وقد ابدى رأيه قبـيل الاضراب ، ولكن العمال ، تحت ضغط الحاجة ونفاد الصـــبر ، قرروا القيام بالاضراب ، فمشى مع الاكثرية ، والقى بنفسه في المعركة . كان يحث العمال على الثبات ، ويطلب تأييد النقابات ،

ويراجع مع لجنة الاضراب الدوائر والصحف ، ويسير طويلا على قدميه ، بدون طعام او راحة ! فلا يعود مساء الا وقواه قد نفدت ، وهده الجوع والتعب . وكان عليه ، برغم ذلك كله ، ان يتظاهر بالرضا في بيته ، ويحاول تسوية شؤون عائلته وطمأنة والديه وزوجه .

ولقد تأخر اليوم الى منتصف الليل ، فوجد الجميع نياماً ، الا زوجه التي ظلت ساهرة لتبلغه وهو يدخل البيت ، ان الفران رفض اعطاءهم الخبز . قال لها ان الاضراب قد يطول ، وهو لايستطيع اعطاء الخبز بالدين على المعاش ، لأنه قد لايكون هناك معاش . وكتمت ذلك عن حماتها حتى لاتزيد مخاوفها .

– وكيف حصلت على الخبز اذن ؟

– الفران رفض فتدخل العجان .. قال له خليل جارنا وزبوننا ، ويجب ان نقف معه لا ضده في هذا الظرف . قال الفران انت حر في الوقوف معه ، ولكني لااعطي خبزي بالدين .. انا لست ضده ، اتفهم ؟ولكني اذا لم احصل الديون آخر الشهر توقف الفرن عن العمل . عندئذ قال العجان :

– انا اكفله منذ اليوم . وهكذا كان ..

– لابأس – تمتم خليل – المعروف لم ينقطع من الدنيا .

– والى متى هذه الحال ؟ سألته باستعطاف للاستعلام فقط .

– من يدري .. كل شيء متوقف على الاضراب .

– وهل ينجح ؟

كان في صوتها رجاء حار تندى له قلبه حناناً . ولكن بماذا يستطيع ان يجيب ؟ كل اضراب يعلن على اساس انه سينجح ، والاحداث سجلت كثيراً من الاضرابات التي لم تنجح ، وهذا واقع يعرفه جيداً ، ومع ذلك كانت الحصيلة العامة جيدة .

قال خليل :

– نأمل ان ينجح الاضراب ، وحتى لو لم ينجح فلن نخسر شيئاً .. اربع ليرات في اليوم ، بدون اجازات او ضمانات ، وبدون تثبيت ، اجر لا يكفي العامل وحده ، فكيف يصنع بعائلته ؟ ..

وسألها بعد قليل :

– ماذا اكل الأطفال ؟

– اعطيت كل واحد نصف رغيف .

نقر باصابعه على حافة الخوان الخشبي بشيء من عصبية :

« نصف رغيف ؟ كيف تتغذى جسوم الاطفال ؟ وهل يستطيعون مواصلة الدراسة ؟ اذا نجح الاضراب تحسنت الحال ، والا ساءت .. قد يجد الآخرون وضعهم اسهل ، بسبب من ان عائلاتهم صغيرة ، وقد يكون فيها من يساعد بعمل او دخل ما ، اما هو فالعائلة كلها متعلقة برقبته .

كانا يجلسان ، زوجه وهو ، في احدى الغرفتين ، وينـام والداه وبعض الاطفال في الغرفة الاخرى ، وكانا يتحدثان في العتمة لئلا تستيقظ العجوز وتعيد ديباجتها التي غدت قاسية وداعية الى الانفجار في هذه الايام . وكانت زوجة خليل قليلة الكلام كعادتها ، وقد انكمشت منطوية على قلق بالغ ، داعية له في باطنها بالسلامة والتوفيق ، ولم تأت بحركة حتى دعاها الى النوم ، وقبل ان تنهض انهت اليه هذا الخبر :

ـ فياض اختفى .

توقف عن خلع ملابسه وصاح :

ـ كيف ؟

ـ لاأدري .. جاء الشخص الذي كان يسكن عنده وقال لوالدك ان فيـاض غادر البيت ، وترك له رسالة تفيد انه ذهب ليبحث عن عمل .

لم يتم نزع ملابسه .. جلس ثانيـــة على الخوان ، واشعل سيكارة عب منها نفساً عميقا ... وزفر !

ـ ٦ ـ

في الورشة ، اسند فياض ظهره الى الجدار الناتىء بعد ان قرأ الجريدة وطواها بعناية . لم يقل شيئاً لأحد ، فهذا الخبر عن اضراب عمال الهاتف المياومين لايؤلف حدثا خاصا مثيرا بالنسبة

للآخرين . لاشك انه لفت نظرهم ، وتحدثوا عنه ، رابطين بينه وبين الوضع السياسي وموقف الحكومة ، وتمنوا جميعاً ان ينجح الاضراب ويحقق العمال مطالبهم ، لكنهم فعلوا ذلك كما يفعلون ازاء أي اضراب عمالي . انه تضامن روحي بين ابناء طبقة واحدة ، والمرجح ان نقابة عمال البناء قد ايدت بشكل ما ، لكن هم ، بصفتهم غرباء ، وغير اعضاء في النقابة ، ولأنهم يحاذرون الخوض في السياسة ، او التدخل في القضايا المحلية ، اكتفوا بقراءة انباء الاضراب والانطواء على تمنياتهم ، ثم انصرف كل الى شأنه ، وظل فياض يعاني القلق ويتلهف لمعرفة مصير المضربين ..

قال في نفسه : « خليل في نقطة الخطر من كل هذه القضية ، سيكون كذلك لأنه عضو في لجنة الاضراب ، ولأنه مناضل . لقد تمرس بذلك حتى بات يرى الاشياء طبيعية مهما تكن قاسية .. خمسة وعشرون عاماً واكثر ، من اجتماعات المغائر الى اليوم ، فأي نفس طويل ! واي صبر ! ام خليل لاتفهم ذلك ، تقول انه تمسح ، وفي الحق انه مفعم بارق المشاعر ، كريم النفس ، ولكنه جلود ، مؤمن بقضيته وواثق بنفسه . »

اشعل سيكارة دون أن يغير من موضعه . كان تعباً ومفكورا ، ويستشعر الحاجة الى تأييد معنوي يستمده من ذكرياته عن خليل ، ومن هذا الاضراب الذي ضجت الصحافة بانبائه . تصور صديقه في هذه الازمة يعارك على اكثر من جبهة .

تخيله جالساً معقود الحاجبين ، يستمع مرغماً الى محاضرات والدته عن « النار التي يلقي بنفسه فيها » وعن عدم جدوى نضالهم لأنهم « بدون رأس » . وتخيله يرنو الى اطفاله شبه الجياع ، ويتفرس في وجه زوجه الصموت الواجف ، ويتلقى من حين لحين ، تقريعات والده المغلفة بالمزاح الساخر ، ويصمد لذلك كله ، كما يصمد لتأزم وضع الاضراب وتهديدات التسريح ، وشكاوى زملائه المضربين ، ويحاول ان يبث الثقة في كل هؤلاء ، ويحملهم على الثبات والمقاومة ، تخيل كل ذلك وتأوه من أعماقه .

استأنف نقـــل الحجارة وهو يفكر بصديقه . كان يصعد الصقالة حاملا القرميد الى المعمار دون اهتزاز .. بات مطمئناً الى توازنه ، وخفت وطأة التعب نتيجة الاعتياد ، وزالت رهبة الأيام الأولى ومعها الحرج والتحسبات .. لقد استعاد ثقته بنفسه وبقدرته على الصمود .. الجزع الذي كان يدفعه الى التساؤل كل صباح : « متى ؟ » خف الآن . غدا متقطعا لايحمل معه ذلك الصراخ الصادر عن لهفة لاتمام كل شيء في اسبوع او شهر .. خرج قليلا من تحت الرحى ، بات المنطق يجد له قبولا كافيا لأخذ الواقع بما ينبغي من تقدير .. تطاول المعركة لم يعد عامل ترهيب بذاته ، كان سابقاً كجندي مكشوف امام العدو ، وكجندي محاصر

دون ذخيرة او غذاء ، وتغير الوضع قليلا . الجندي اخذاستحكامه، وصار له مورده من الذخيرة والغذاء ، وفارقه نسبيا القلق العصي الذي يلازم الناس وهم في بدايات الشدائد .

* * *

اعتزم بيع ساعته الثمينة ، وعند العصر عرضها على زملائه قائلا .

- ارجوكم ساعدوني في بيعها لاني بحاجة الى بعض المال .

- تستطيع ان تستلف من المعلم

- لااريد .

- يمكن ان تقترض حتى نهاية الاسبوع .

- لاأريد ايضاً .

- ولماذا تحتاج الى النقود ؟

- لأمر خاص .

فقال عامل شاب :

- عرفت .. تريد زيارة « وراء البرج » .

- اذن رافقني الليلة ! (قال عامل آخر ، ضامر ، طويل عرف بشهوانيته الجامحة) رافقني تجد مايسرك .. ثلاث ليرات تكفي ، وانا اقرضك اياها حتى القبض .

- انا لاافكر بالنساء .

ـ ولماذا لاتفكر .. عجوز ؟ العجوز نفسه يفكر .. لابد من امرأة .. كل شيء على حدة : عمل صعب ، اجرة قليلة ، القرش بليرة ، المستقبل مجهول ، كل هذا صحيح ، ولكن لابد من المرأة ، لأنه لابد من النوم .

قالهـــا والتمعت عيناه ببريق غريزي حارق ، وتخلع جسمه وضحك في سعادة واهتياج واردف :

- اذا ذهبت الى هناك (وغمز بطرف عينـه) مرة في في الاسبوع ، تنام الاسبوع كله مرتاحاً .. تتغلب على الشيطان ولا تعاودك الافكار الا في نهاية الاسبوع .. عندئذ تحلم من جديد ولكن احلامك تكون شهية .. ريقك يشط كجائع يتصور مائدة عامرة ولكنه لايضر .. يزيد في شهيتك بانتظار « الوجبة » اللذيذة القادمة .

ـ تفو ..

بصق احد العمال والتفت الى المتكلم قائلا :

ـ أي معدة هذه التي تجد مثل هذه الوجبة لذيذة ؟

ـ معدة جنابي . (قالهالامبالياً ، واضاف كمن يقرر حقائق مسلماً بها) ابصق ماشئت ، التقزز والمرأة لايجتمعان في نظري .. انا لاأسأل عن العمر والجمال والنظافة .. امرأة مهما تكن . امرأة ياناس ، وبعد ذلك اشتغل مثل البغل . اقاتل ، احارب ، انطح

الصخر ، احمله ، انشر الحديد ، الويه ، اقوى على كل شيء الا على شيطان المرأة . .

- ولذلك بعت ساعتك ايضاً .

- نعم بعتها .. انا غير آسف .. بدون ساعة يأتي النوم ، ولكن بدون امرأة . .

قال فياض محاولا ابعاد الشكوك :

- ولكن انا لاأفكر بهذا .. سأبيع ساعتي لوفاءدين علي .

- في هذه الحال يستطيع الدائن ان ينتظر .

- واذا كان لاينتظر ؟

- يده وماتطول . .

اعترض عامل اكبر سناً :

- كفى ! كل انسان يعرف خلاصه .. اذا كان «سليمان» يصر على بيع ساعته فليساعده منكم من استطاع ، وهذا أفضل من اللت والعجن .

- ٧ -

بعد العمل ، ذهب فياض وثلاثة من زملائه لاستئجار غرفة على كتف الهضبة التي تطل على سن الفيل . خرج اليهم المؤجر في المنامة استخفافاً بهم ، حتى أنه لم يتكلف دعوتهم الى الداخل ، بل

وقف على باب داره ، على عينيه نظارات وفي يده جريدة ، وعلى محياه امارات التعب الصحي .

وتكلم شاب منهم كان يسكن عنده فقال :

- هذا الشاب يعمل في ورشتنا ، وهو طيب ومؤدب ولايتأخر في دفع الاجرة ، فهل عندك غرفة له ياابو روكز ؟

- مااسمه ؟

- سليمان .

فتفرس فيه ابو روكز وسأل :

- هويتك معك ؟

- طبعاً ، ولكني لااحملها في الشغل .

قال الشاب الذي كان يسكن عنده :

- انا اكفله يامعلمي .

- انت اكفل نفسك .

- الا تعرفني ؟

- والنعم .. ولكن المستأجر يكون خروفاً عندالاستئجار ويصبح نمراً بعده .

قال الشاب :

- نحن لسنا من هذا الصنف يامعلمي .

- أنعم واكرم .. صنف ممتاز يا معلمي ، ولكن اسمع ! قولتك تتشاطر على غشيم ؟

كان الرجل يتكلم بسخرية ظاهرة .. يبدو عليـــه ضيق النفس وقلة الثقة بالمستأجرين ، ومع ذلك لا تدل ملامحه على قسوة أو شراسة ، فقال فياض :

ـ الحق ان واحداً يسوّد وجهه مئة .. ومن حق صاحب البيت أن يستوثق .. ولكني ، مع الأسف ، لا أحمل الهوية ، ولا أريد ان أمدح نفسي.. مادح نفسه كاذب .. ومن الخير أن أذهب وابحث عند غيرك .

ـ ومن يقبل ان يؤجرك غيري ؟

ـ أهل المروءة لا يعدمون .. وربك كريم .

عاد الرجـل يتطلع اليه من فوق العوينات ، وقال بنفس سخريته السابقة :

ـ فشروا أولاد المدارس .. لسانك حلو يا معلمي ، من أين تعلمت هذه الفصاحة ؟

ـ والدي علمني فك الحرف .

ـ لو أرسلك الى المدرسة كنت أفلحت .. معك أجرة الغرفة لشهر ؟

تدخل الشاب مرة أخرى فقال :

ـ يدفع أجرة أسبوع ونحن نكفل الباقي .. يشتغل في ورشتنا والدفع بعد ثلاثة أيام .

ـ الدفع سلفاً والا مع السلامة .

– وكم تريد ؟ سأل فياض .

– الغرفة صغيرة ومعتمة قليلا .. شفها وبعد ذلك نتفق على الأجرة .

قال ذلك و خل داره فوضع معطفاً على كتفيه ، وخرج ومعه مفتاح كبير ، ثم استدار حول البيت ونزل درجاً مرتجلاً من حجارة متنافرة ، يتلوى في انحداره على خاصرة الهضبة ، حتى انتهى الى حوش مسيج باسلاك تحت الدار الفوقيـة . وكان ظاهراً ان هذا ليس طابقاً ارضياً ، وانما هو كهف على شكل غرف محفورة في الجبل تحت الدار ، ولم يكن للغرفة التي اشار اليها سوى باب خشبي من الواح مسمرة ، وحين دخلها هبت عليه رائحة عفن جائفة ، فادار وجهه عفويا نحو الفتحة الوحيدة الي هي الباب ، وراح يشرح سبب العفونة :

ـ الغرفة ،منذشهور،بدون تهوية،والعائلة التي كانت تسكنها وخمة .. كب الماء تحت الزوجة لاتقوم،والأولاد غارقون في الأقذار، حولوا الغرفة الى زريبة .. فاذا كنت تحب النظافـة ، وغسلتها ثم تركت بابها مفتوحاً لمـــدة يوم واحد ، صارت رائحتها مثل .. المسك !

قالها وإبتسم دون مبرر .. قد يكون شعر بالمبالغة في كلمة المسك،فافلتت منه الابتسامة التي قابلها فياض بابتسامة مماثلة جعلت الرجل يقول :

- بلّوط ! هذا هو الموجود، فما قولك ؟

- موافق .. كم الأجرة !

- بسيطة مادمت وحدك ، وليس عندك أطفال ، فاني أخفض لك الإيجار ليرتين .. هات عشر ليرات ومبروكة .

أخرج أمين عشر ليرات وناولها الى الرجل دون ان يقول كلمة بحق الغرفة ، واعتبر الشباب ان مهمتهم انتهت فودعوا وانصرفوا .

ويبدو ان المؤجر أعجب بعدم مماحكة المستأجر ، فأراد مكافأته على نحو ما . . وبعد جولة في الباحة عاد اليه يقول وهو يشير الى خوان خشبي عتيق ملقى عند السياج :

- تستطيع ان تستعمل هذا الخوان كسرير .

- شكراً . . كم أجرته ؟

الخوان بدون أجرة (وبعد وقفة) ولو .. ماتت النخوة ؟ إذا كنت جار رضا فستجد مني ماتحب .

- ان شاء الله .

- واذا كان لديك فراغ فعندي لك عمل ليلي .. داعيك صاحب معمل مسامير . الماكينة هناك (وأشار الى غرفة في الطرف الآخر من الباحة وأضاف مزهواً :) وهي من اختراعي !

نظر فياض مستطلعاً، وقد شغلته مسألة معمل المسامير اكثر من الآلة المخترعة . قال فى نفسه : « وجدتها !. هنا يمكن ان أعمل

راحيا دون ان يكتشف أمري ». ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث وقال :

– هل يمكنني أخذ مفتاح الغرفة ؟

– طبعاً يمكنك .. تفضل .. غداً تنظف الغرفة وتنتقل اليها.

– ولماذا غداً ؟ انتقل الليلة .

– أنت حر ، ولكن هل تستطيع نقل حوائجك الليلة ؟

– ليس لي حوائج .. كنت أنام عند صديق ، وقد أثقلت عليه ، فغادرته وصرت أنام في الورشة .

– وهل كنت تنام في الورشة بدون فراش ؟.

– تقريباً

– والبرد ؟

تضايق فياض لكثرة أسئلة أبي روكز .. انطبع أنفه الكبير في ذاكرته فوراً ، وبدت عيناه صغيرتين نوعاً ما ، وشعره الرمادي خفيفاً وأبيض عند الفودين ، ولاحظ في كلماته جرساً واهناً جعله يتساءل : « لماذا يتكلم طالما ان ذلك يجهده » ولكي ينفي كل شك . أجاب بصراحة :

– على الفقير أن يتحمل .

أطرق أبو روكز في وجوم كأنما تذكر شيئاً .. ثم مضى الى غرفة المعمل فأخرج منها فراشاً من قش ، كان يوضع على الخوان فيما مضى ، وأعطاه كيسين من خيش ، وقال له بتأثر غير متوقع :

ـ استعن بهذه الأشياء على البرد .. لا بد ان تفرج •

وتركه ومضى يصعد الدرب المتعرج ، واضعاً يديه وراء ظهره دون ان يلتفت الى وراء مرة أخرى •

ـ ٨ ـ

قال فياض وهو ينطرح على الحشية القشية فوق الخوان :

ـ لقد أصبح لي مأوى أخيراً •••

صار في وسعه الآن ان يستلقي باطمئنان .. ان ينام ملء جفنيه ، بعد ان قضى خمس ليال في العراء ، على جذع الزيتونة الهرمة ، في مهب الريح ، عرضة للتوقيف والاستجواب •

فراشه قش ، ولحافه خيش ، وماذا في ذلك ؟ حر هو ، ونتن العفونة سيضعف ، وحتى لو بقي ، فهو محتمل . لقد كان الليل والبرد أفاعي ذات فحيح في ذلك العراء ، وكان يخيل اليه انه في بئر مع هذه الأفاعي ، وكانت تتلع بأعناقها اليه ، وتحدق فيه بعيون سنجابية ، ثم تنساب من حوله ، وتتسور حيطان البئر ، وتكر راجعة الى القاع ، لتعود مرة اخرى الى التسور ، والسنتها البيضاء تنضنض في حركة مقصّية •

لم يخطر على باله أبداً انه سينام يوماً في العراء ، ولكن ماذا يفعل الانسان حين لا يجد مأوى ؟ الى الشيطان كل ذلك الحذر والتواري ، فما دام في الغربة ، وفي ضيق لا يعرف متى فرجه ، فحتم

عليه ان يواجه الحياة بواقعية وشجاعة .. تحـدي الظروف يساوي الانتصار عليها .. « قتلتني التصورات الكئيبة بين جدران محبسي ، وهذا العمل كم ارتعدت وأنا أفكر فيه . عامل ؟ وهـل يمكن ؟ وهل أستطيع ؟ نعم يمكن واستطيع ، وها أنا عامل بناء ، وها أنا صاحب مأوى ، وغدا ، اذا بعت الساعة ، اشترى بعض الضروريات . »

* * *

في الغد بيعت ساعته بنصف ثمنها .

ـ المعروض مهان ، قال العامل الذي تولى بيعها .

ـ هذا صحيح .. ولك الشكر .

فسأل العامل الشهواني وعيناه تبرقان :

ـ متى نذهب ؟

ـ إلى أين ؟

ـ كيف إلى أين ؟ الى هناك .. (وغمز ضاحكاً)

ـ حاجتي ماسة الى النقود .

ـ ماسة أو غير ماسة ، لابد من زيارة ؛ سأعرفك على واحدة ترضيك .

ـ ترضيني ؟ وما شكلها ؟

ـ وهل ستتزوجها ؟

– وإذا كنت لااتزوجها ؟
– في هذه الحال لايهم الشكل .
– هكذا !؟
– أي نعم .. اغمض عينيك وقع ..
– وكيف أغمض عيني والفاكهة بالنظر ؟
– هذه ليست فاكهة.. الفاكهة بعد الطعام ، وهذه طعام اساسي ، خبز بدون ادام .. خبز يابس ، وبعد أن تشبع من الخبز اليابس ابحث عن ادام ، وعن فاكهة كذلك.. أنا نفسي افعل ذلك ، فبعد الزيارة ، أقف على البرج ، وأنظر عن يمين ويسار .. هناك الفاكهة الحقيقية ، آه .. على البرج الفاكهة الحقيقية ، وأمثالنا لا يذوقونها ، يرونها فقط بأحلامهم .. وأنا أراها كذلك .. في الليل تأتي الأفكار .. وقد تأتي الأحلام ، ولكني لا أكتفي بالأحلام ، اعتبرها من المشهيات فقط ..
– بعد كل هذه الشهية تحتاج الى مشهيات يا حيوان ؟
سأل العامل الجاد الصموت .
– ولم لا ؟ الثلاث ليرات تساوي ثلاث ذهبات ، وعلى الانسان أن يحصل على ما يقابلها.. عليه ان يكون مستعداً جيداً..
– لا لزوم للاستعداد.. المعدة القاطعة لاتحتاج الى شحذ..
– حين لا تعطي معدتك سوى الخبز الجاف ، يكون شحذها ضرورياً .

– معدتك قاطعة ولو القيت فيها بحصاً.. اغرب عن وجهنا لعنة الله عليك ، لو سمعك الراهب ترك الدير .

– ها هو (واشار الى فيـــاض) يسمعها ولا يتحرك .. اقنعوه بالذهاب معي تروه ضاحكاً غداً.. فتح الصدر ضروري لازالة الهموم .. جربوا ، فاذا لم تصدق نصائحي العنوني ..

قال فياض :

– نصائحك في محلها ، ولكني لا أحب الخبز الا مع الادام، ومع قليل من الفاكهة .. اذا وجدت .

– ذوق اولاد مدارس .. صدق أبو روكز .

– اولاد المـدارس ليسوا أحسن من غـيرهم .. المسألة انني تجمدت من البرد ، وأحتاج الى نقود لشراء غطاء .. بخاطركم.

* * *

كان الوقت ظهراً، وقد طلب فياض من المعلم اجازة نصف نهار لشراء فراش ينام عليه. انطلق من الورشة بثياب العمل، قاصداً ساحة البرج. كان فرحا وحزينا في آن.. « العجز أن يرضخ الانسان للخوف لا أن يخاف » وهو لم يرضخ، ومن حقه أن يسعد لأنه يسير في وضح النهار وقلب بيروت .

كانت نظراته النهمة تلتهم كل ما حوله ، كأنه يريد أن يتزود في يوم لعام كامل. المدينة من حوله تضج، والشوارع تقذف،

في حركة صاخبة ، انماطاً من البشر لا يمكن أن يوجدوا الا هنا . الشرق والغرب على لقاء دائم في هذه البقعة .

وقف على البرج وقفة قصيرة .. وبعد أن قطع الساحة التي تتواصل فيها حبال السيارات وتتسارع وتتشابك ويعرقل بعضها بعضاً ، قال في نفسه : « الحمد لله على السلامة ! » وفي وقفته تشبثت قدماه بحافة الرصيف ، ولم يسلم من الاحتكاك والدفع من قبل التيار البشري الزاخر .. شكل الأزياء كان عجيباً ، وكذلك شكل الوجوه .. وكان الارهاق بادياً على أكثرها ، ومن تحت المساحيق يطل التعب في الوجنات والعيون ، وينبىء الشحوب عن الافراط في السهر والتفريط بالصحة .

وفي وقفته تذكر حديث زميله عن « الفاكهة على البرج » وتلفت صوب الأزقة الفرعية المؤدية الى ما وراءه ، الى المنطقة التي يزورها الناس ، ويجدونها عامرة كسائر الاسواق ، وينتظرون دورهم في البيوت التي تقدم أجساداً فتية وجميلة ، او يتناولون « وجبتهم » على الماشي ، وقد يكتفون بالرائحة ، شأن المفلسين في سوق اللحامين .. تلفت الى تلك المنطقة بفضول ولكن بخشية ، ثم انتقل الى الرصيف الموصل الى التياترو الكبير ، حيث وجد نفسه في سوق عجيبة للمطبوعات : مجلات عربية وأجنبية ، تتراكم أكداساً ، وخليط عجيب من الكتب بينها أحدث ما اخرجته المطابع ، وبينها «مجاني الأدب » وقد قال له البائع مرأ : « لدينا رجوع الشيخ الى صباه ! » ..

وكان الزحام شديداً كما هو على الارصفة الاخرى ، وسيدة تقود كلباً ، وحمال يرفع سلا ضخماً على ظهره ويشق طريقه غير مبال بسوى اللحاق بصاحب الحمل .. وعلى رأس المنعطف المؤدي الى البسطة ، وجد لوحاً اسود عند بائع سكائر . كان فياض يعرف ان هذا اللوح، بالنسبة للسياسة المحلية، كلوحة الاسعار في البورصة، او نشرة الارصاد الجوية ، يحمل تنبؤات او توجيهات . وذكر انه مر من هنا قبل اعوام ، فوجد مكتوباً على اللوح « الصلح سيد الاحكام ،والصلح سيد الحكام »ففهم ان رياض الصلح على خلاف مع بشارة الخوري ، وأدرك ان«البسطة»تنذر«الكسليك»[1]. وقرأ فيه اليوم حكمة حيرته. فاللوح يقول : « الدهر دولاب .. لا عمك ولا خالك ! » فماذا اراد بائع التبغ بهذه العبارة ؟ ربما كانت زجراً لحاكم او لخصم ، تهديداً مبطناً بتبدل الأحوال ، موعظة اريد بها أن الدهر لا يبقى على حال ولا يبقى لأحد . وقد ارتاح لهذه البشارة بالتبدل . وقال من الخير ان الدهر دولاب. ثم واتته النكتة فأضاف « بائع التبغ ديالكتيكي ! » .

عند ساحة رياض الصلح لاح له مبنى البريد المركزي ، فاتجه اليه في خطوات سراع ، كمن يرغب في التخفف من حمل ، واخرج خمسين ليرة حولها الى صديقه خليل ، مغفلا اسم المرسل ، وقفل راجعاً وهو يمارس احساساً بالسعادة لهذه التضحية الصغيرة .. كان يذكر العشاء السري الذي حدثه عنه جوزيف ، وغسل اقدام

(١)من احياء وضواحي بيروت.

« التلامذة » ، ويود لو غسل هو ايضاً اقدام « التلامذة » على نحو مماثل .

عاد نشيطاً يقطع ساحة البرج وهو راض عن نفسه .. قال في ذاته : «قطرة ماء ؟ لابأس ، من القطرات السيل .. خطوة ؟اذا ازدادت الخطى في اتجاه معين صار درب . حسبي انني ، رغم سوء وضعي ، قدمت عونا .. غسلت قدما مستحقة . »

وبوصوله الى مقهى أبي عفيف القديم، هفت عليـــه رائحة عطرية من سيدة شقراء ، فلاحقها بانظاره حتى اختفت في الزحام . كان خصرها منحوتا بازميل ، فأي محظوظ في هذا العالم يضم هـذا الخصر المنحوت بازميل ؟ كانت المرأة جميلة بغير شك ، ولكنه ، في الحال التي هو عليها ، رأى كل جمال الكون في جمالها .. تكثف الحسن كله في نهديها وردفيها ، وعربدت الشهوة من جراء هـــذا المشهد في جسده ، فتوقف لايقوى على السير .. تصور زميله العامل الشبق يضحك فتبدو نيوبه تقطر غلمة ، وهو يتحدث عن «الزيارة » وفتح الصدر والنوم المريح ، وعوت غريزته الجائعة بشكل عطل فيه قدرته على المقاومة ، وعندئذ اتجه الى المنطقة التي تجنبها صباحاً ، وراح يمشي كالسائر في نومه ، فلم ينتبه الا وامرأة لحيمة ، قصيرة ، صارخة الاصباغ ،تعترض طريقه وتصرخ بلهجة داعرة : «تفضل !» . ولما اجفـــل وتملص ، اطلقت وراءه ضحكة فرقعت كمتفجرة في

الزقاق .. واذ ذاك خرجت من احد الأبواب الزرقاء المتقابلةامرأة اخرى نحيلة ، مقرفة ، وقالت :

– اترك هذه ... وتعال الي .. أنا على كيفك !

وعلى امتداد الزقاق تكررت المحاولة .. البائعات هنا أيضاً يتعلقن باذيال الشاري، وليس من فرق سوى بالبضاعة ، ومن العبث الافلات . وحين أفضى به الزقاق الى آخر ، وجد نفسه فيما يشبه الحي بحوانيته الصغيرة ، ومطاعمه ، ومشاربه ، وبيوته ذات اللوحات الاعلانية ، ووجوه نسائه المتهتكة أو الاسوانة ، ولكن التعبة على كل حال .. ولقد داخله شعور بالمقت ، ثم بالتقزز، وبادر الى انهاء زيارته باسرع ما يمكن ، فغامر ودخل بيتاً في الطابق الاول من الدرجة الرخيصة جداً .

كان الجو بارداً قليلا ، غير انه كاد يختنق بما أحس من حرارته و كثافته ورائحته اليودية الكريهة . ولم يكن اليوم ممطرا، ولكن ازقة الحي كانت مبللة ، ذات حفر وأوحال . ولم يدر أجاء الوحل من الأزقة الى البيوت أم من البيوت الى الأزقة . كل ماوعاه ان الوحل في هذه المنطقة كثير ، ومحصور بطريقة ما ، ومقبول كواقع لارغبة ، أو لاحيلة، لاحد في دفعه . فالحي ، حتى بوحله هذا ، جزء من اللوحة العامة ، ولعله أن يكون ، بالنسبة لاصحابه وزواره ، الجزء الضروري .

وكانت بيوت حجرية أو خشبية ذات طابقين أو اكثر تقوم على جوانب هذه الازقة ، ولوحات مصورة ، باسماء صاحبات البيوت ، يكثر فيها وصف الشقراء .. ومن سائر البيوت ، عبر الأبواب والنوافذ ، تسمع اغنيات دارجـــة متهتكة ، وتفرقع ضحكات جريئة ، ترافقها شتائم بذيئة ، وتنتشر رائحة بعض المحاليل المطهرة ، الحادة ، وتطل وجوه مبرقشة ببقايا أصباغها ، مخمورة ووسنانة . وقد سألت احداهن جارتها :

ـ كيف كان الشغل البارحة ؟

ـ وسط .

فارتعش فياض كأنه مس سلكاً كهربائياً « وهذا يسمى شغلا ؟ البغي مخلوقة آثرت الراحة على الكدح .. وبرغم الدوافع فانها امرأة رخيصة ، وأي رخص اكثر من أن تكون مبصقة لكل مخمور ، وتسمي ذلك شغلا ، وتضحك فوق ذلك !؟ »

وطرق اذنيه صوت ينادي :

ـ ماما !!

كانت فتاة حولاء تنحني من الشرفة ، ومن الطابق الأول ردت عليها امـرأة بدينة ، تقف كبعض النساء الاخريات على الباب ، مثقلة الذراعين والعنق بالحلي ، وعلى وجهها تعبير خلاعة وشراسة ، فادرك انها صاحبة البيت ، واحس بمهانة النداء ، فاسرع ليخرج من هذه الحماة ، لكن الزقاق كان مسدوداً في نهايتـــه ،

واحدى صاحبات البيوت تمسك بشعر فتاة وتسحبها على الدرج وتصفعها وتقذفها بكلمات لم يتصور قبلا انها تصدر عن امرأة .. كانت الفتاة صغيرة ، ممزقة الثياب ، مشعثة ، وصاحبة البيت البدينة تنقض عليها وعجيزتها ترتج وراءها ، وصدرها الضخم يندلق على كرشها . وقد ذكر الذين تجمعوا أن الفتاة حاولت الهرب من البيت ، فضبطتها صاحبته وجرتها في طول الزقـاق وهي تصيح : « ادفعي دينك اولا » والفتاة تجيب : « دينك لايوفى .. مصصت دمي ! مصصت دمي ! »

وانتهى المشهد بغياب المرأتين وراء الباب ، فتفرق الناس، وسار فياض منكس الرأس ، شاعرا أن وحل الزقاق قد ماع وسال ، وانه يحمل في كل انحاء جسمه لطخات منه .. وكانت اغنية « مابيسايل . شب واستحلى » تلعلع من فونوغراف قريب من أحد الأبواب ، وامرأة نصف متكئة على مصراع بابها وهي تصرخ بغنج « أنا على كيفـك ... على كيفك ! » ولحام غيب جذعه دخان المشواة يقلب الأسياخ وينـادي : « كلوا لحم واضربوا لحم ، يا أصحاب اللحم ! »

ولم يدر فياض أهو بؤس المكان ، أم بشاعته ، أم القرف الذي استولى عليـــه حتى الغثيان ، وحجب عنـه رؤية الشاب الذي كان يتقدم منه في خط مستقيم ، حين خرج الى طريق الدورة ماراً بالجميزة . كل ما ذكره بعد ذلك أن الشاب ، وكان اصلا من

طلابه ، هجم عليه محيياً ، سائلا عن الصحة والحال ، وفي نظراته قدر كبير من الدهشة والظفر .

هذا الشاب ممن يطاردون أمثاله ، فهل كان يتعقبه ام عثر عليه مصادفة ؟ . انه من طلابه ، وكان يوماً يتأدب في وجوده ، وربما كان يخافه ، فهل انعكست الآية ، واصبح على الاستاذ ، في هذه الوقفة ، ان يتأدب امام الطالب ، ويدفع له من عملته السابقة ؟ دنيا . . لم يكن يحسب ان هذا سيقع ، ولم يكن يقدر ان تنكره لن ينفعه في شيء ، وانه سيقع في المصيدة بمثل هذه السهولة .

الطالب يبتسم ، ربما لتبديد شكوك الاستاذ ، وهذا ينظر حواليه ليرى كم رجلا يحيطون به ، ويستعد نفسياً للمقاومة ... والدقائق تتابع في مجاملة منافقة ، قبل ان ينتقل احدهما الى حسم الموقف .

اقترح الطالب الدخول الى احد المقاهي ، فاعتذر الاستاذ ، واقترح المسير قليلا للتحدث ، فرفض أيضاً ، وحين سحب يده من يد تلميذه قطع الطريق ، الى الرصيف الآخر ، بسرعة وارتباك ، معرضاً نفسه للخطر ... راح يمشي مشياً عادياً اولاً ، ثم اسرع ، واسرع اكثر ، واستدار ليرى ما اذا كان الشاب يطارده ، ثم اندفع يركض في احد المنعطفات ، وخجل من فعلته فتوقف ، وركب اول سيارة صادفها الى الاشرفية ، وهناك نزل ليستوثق أن أحداً لا يلاحقه ، وطفق يدخل جادة ويخرج من اخرى لتضليل مراقبيه ...

وكان العرق البارد يلمع على جبينه ، ويقطر في شعر صدره ، وحلقه جافاً، وطعم مرارة في فمه .. كان كحاله عند وصوله بيروت لأول مرة.

— ٩ —

اقتنع الآن ان نصائح اصدقائه في محلها ، وأنه مطارد فعلاً، وان الشخص الذي يسأل عن بيت خليل يجد في إثره ، وكل ذلك يستدعي العودة الى الاختباء ، او العمل في مكان بعيد جداً عن الشبهة . ذلك ان الشاب لا يمكن ان تفوته ملاحظة ثياب الشغل ، ولسوف يبلغ عنه ويصبح استمراره في البناء مستحيلاً ، ولا مندوحة من لزوم الغرفة وقبول عرض أبي روكز لقطع المسامير .

« منذ الليلة سأبقى في هذا الوكر الذي يسميه مالكه غرفة. سأظل فيه حتى اتدبر أمري بشكل لا يجعلني عالة على أحد » فكر عند دخول الغرفة ان يغسل ارضيتها قبيل المبيت ، ولكن ما فيها من رطوبة كان يحيلها الى بئر ، فكيف اذا سفح الماء ايضاً؟ سيفعل ذلك في يوم آخر ، يوم مشمس ومن الصباح ، أما الآن فليتناول شيئاً من الخبز والجبن ويندس تحت الخيش، بعد ان تعذر عليه شراء الغطاء بسبب ما حدث ، وليفكر بهدوء في وضعه ، في كيفية احضار الحقيبة من بيت جوزيف .. وعلى ذكر بيت هذا الاخير، خطرت

له ، أكثر من كل الاشياء الممتعة ، الكتب التي رآهـــا في غرفة المكتبة فقال : « يا ليت لي شيئاً منها هنا ».

طُرق بابه ، بعد اشعال الضوء بقليل ، فخفق قلبه ، وقفز عن الخوان وهويسأل : من ؟ وجاءه الجواب: «ابو روكز !». دخل المالك ووراءه شاب ظل واقفاً على العتبة قال ان اسمه سركيس ، وعرف فياض أن سركيس هذا هو المستأجر الآخر الذي يحتـل الغرفة المجاورة ، ويعمل كما قال ، في الأدوات الصحية ، وان كان ذا خبرة في صناعة الحدادة ، ومن هنا اهتمام صاحب البيت به .

ولم يطل وقوف سركيس،فهو يأتي متأخراً ويذهب باكراً، وقد جمع بينهما ابو روكز ليتفقا على المكان الذى يضعان فيه مفتاح باب الحوش .. وبعد انصراف سركيس ، ظل ابو روكز قائماً وسط الغرفة ، كشيء زائد أو في غير محله . . بدا قلقاً ، يريد ان يذهب وان يبقى ، وينعكس على وجهــه التعب والتردد دون ان يحزم امره .. لعله ادرك من الغرفة ان الانسان ، حتى في القرن العشرين ، لا يزال نوعاً من وحش بفعل بعض الظروف .

- أين أغراضك ؟

- ليس لي أغراض .

- وثيابك ؟

- سأحضرها فيما بعد ..

– ولماذا لاتحضرها الآن ؟

– واين اضعها ؟

كان فياض يتكلم بهدوء ، وربما بلا مبالاة .. الواقع الذي يحياه لا ينفع فيه سوى ذلك : ولجهل أبي روكز بهذا الواقع فقد رأى في هدوء فياض نوعاً من بلادة لا تليق بشاب طويل عريض مثله. ولئن كان من غير المستحسن ان يصارحه بهذا الرأي ، فقد سمح لنفسه ان يعبر عنه ببسمة ازدراء طغت على شفتيه . وقال وهو يضع يديه وراء ظهره ، ويستدير ليخرج :

– كم عمرك يا ابني ؟

فرنا اليه فياض ، شاعراً بالم الطعنة والم الصبر عليها .

– لست طفلا على كل حال .

– ولست شاباً .. أسمح لي أن اقولها بدون خجل .

– قل ماشئت .. انت في وضع تستطيع أن تقول فيه كل شيء ...

– زعلت ؟

– معـــاذ الله .. ابي يقول : اذا لم يكن في البيت كبير ، فليكن فيه حجر كبير .. وانت كبير هنا .. وهذا من حسن حظي .

– حلو .. الظـاهر ابوك فيلسوف .. يا حرام . مدرسة البيت لاتعلم ، والا لأصبحت ...

ـ غير ما انا الآن .

ـ بالضبط ..

ـ وماذا تقترح علي لاصلاح نفسي ؟

ـ الاجتهاد .. العمل .

قال في نفسه : « جاءت اللحظة المناسبة .. اذا تأمن عملي هنا اصبحت في مأمن، وبما أني لا استطيع الذهاب غـــدا الى ورشة البناء، فلماذا لا أفاتحه في امر العمل ؟. من غـير الملائم أن اعرض نفسي، ولكن من الحماقـــة أن اضيع الفرصة ايضاً » .

ـ العمل في ورشتنا انتهى .

ـ وماذا ستفعل ؟

ـ ما يفعله سائر العمال .. أسعى للعمل في ورشة أخرى.

الموضوع الذي يمهد له ابو روكز فتح من تلقائه . من مدة وهو ينتظر مجيء العامل الذي ينيط به امر المعمل . وقـد توسم في فياض ما يرجوه من عامله المنتظر، فهو يسـكن عنده، وغريب ووحيد، وليس عاشقاً كسركيس !

ـ لماذا لا تشتغل عندي ؟

ـ الشغل عندك صعب ويحتاج الى خبرة .. قطع المسامير مسألة فنية .

ـ في هذه معك حق ! (اجابه مسروراً بفنية قطع المسامير) ولكن الانسان لا يأتي من بطن امه متعلما .. تدرب بضعة ايام

وبعدها تشتغل على العمياني . . تريد وإلا لا ؟ الارادة قبل كل شيء ، اذا كنت تريد فستتدرب بسرعة . . أنت نبيه ، شهادة لله ، ولكنك بحاجة الى مهنة . كيف أضعت شبابـــك سدى !؟ مع ذلك لم يفت الوقت . .

– صحيح . . لو وجدت المهنة المناسبة . . .

قاطعه ابو روكز منبهاً :

– لا توجـد مهنة مناسبة مثل الميكانيك ، فهمت ؟ عصرنا عصر صناعة ، وما هي الصناعة ؟ الميكانيك ، وفي الكتب يقولون : ميكانيكا . . والحال واحد ، الميكانيكا هي الميكانيك ، وما تتعلمه في الكتب في سنة تتعلمه عندي في شهر . . الممارسة كل شيء . . أنا لم أتخرج من « الصنائع » ومع ذلك اخترعت آلة ، وفشر المهندس الذي يخترع مثلها ، فهمت ؟ أنا عامل مثلك في سكة الحديد . . هناك تعلمت الحدادة ، اخذت سر الميكانيك ولويت رقبة الذين تخرجوا من أوروبا . . كان المهندس ، عندما تشكل عليه قضية ، يستنجد بي . .

– عظيم ، انت عبقري . .

– أنا مثل سائر الناس . . ولولا مرض القلب الذي ارغمني على ترك العمل لصنعت الأعاجيب . . تعال والق نظرة على المعمل . .

كان معمل المسامير عبـــارة عن غرفة متوسطة ، كهفية كسائر الغرف ، رطبة ومعتمة . وكان ينتـج نوعاً واحـداً فقط ،

هو المسمار المستعمل لتثبيت أشرطة الكهرباء على الجدران . يشتري ابو روكز اسلاك الحديد ، والآلة التي اخترعها تقطع الاسلاك الى مسامير ، وهذا كل شيء . ولم تكن كمية الانتاج معروفة ، وربما لم تكن هناك كمية اصلاً ، فالآلة تتوقف اكثر مما تشتغل ، وابو روكز ، كما يبدو ، لا يهمه انتاج المعمل بقدر مايهمه وجود آلة من اختراعه هو .

* * *

بعد اطلاع فياض على المعمل جاد عليه ابو روكز بمقعد خشبي ، حمله الى غرفته ، وهناك استأنف الاثنان سهرتهما التي دارت حول العمل والمعمل .

قال ابو روكز في يقين ومهابة :

– لو كان هذا المعمل في بلاد العالم لاعطى ذهبا ..

– الصناعة تحتاج الى تشجيع .

– وأي تشجيع ! المخترع في اوربا من اصحاب الملايين (وبعد وقفة) اتحسب اختراع آلة من الأمور السهلة ؟ لا تصدق هذا الكلام .. الميكانيك معقد ، يحتاج الى رياضيات عالية ، وأنا لم اتعلم رياضيات .. توصلت الى سرها بالممارسة .. صرت اضبط القياسات مثل احسن مهندس ، ولولا ذلك ما استطعت اختراع آلة مثل هذه . تقول لي انها ليست مثل الآلات الاوربية ، صحيح . ولكن

الآلات الأوربية كانت مثلها في البدء. الاختراع اولا والتحسين ثانياً..
السيارة والطيارة والآلة الحاسبة ، هل كانت في البدء كما هي الآن؟
التطوير يرافق العمل ، والعمل يحتاج الى مؤازرة ، الى حماية ..
قال فياض في نفسه : « عال ، هذا واحد من أصحاب الصناعة الوطنية وبينك وبينه نقطة التقاء . » وقال له :

– صدقت .. لولا حماية الصناعة ما تطورت .. ولولا استيراد المسامير ، كم كانت صناعتها في لبنان تزدهر ؟

– يرحم بيك ، تعجبني ، الحمد لله الذي رزقني جارا يفهم علي .. جربت الحديث مع سركيس (والتفت ناحية غرفته المغلقة واضاف) لكنه ، بعيد عنك ، حمار ، همه الوحيد ان يطلس شعره بالزيت ويجعله فوق جبينه على شكل رفراف ، ويجلس نهار الأحد ويدق بالدربكة وينهق ليلفت نظر ست الحسن (وغمز الى بيت مجاور) وهي تضحك عليه ، ومعها حق .. تصور ارمني ويغني بالعربي ، الغناء بالارمني حلو ، وست الحسن ارمنية ، ولكن سركيس لايغني الا بالعربي .. لالفظ ولا صوت ولا فهم .. المهم: لم استطع ان اتفاهم معه ابداً . ولد طيب ، عفريت ، شغيل . ولكن لايفهم بالاختراعات ، وحين ادخلته المعمل مط بوزه وكشر . هيهاي ! الخواجه سركيس يكشر على معملك يابوروكز ! ماشاء الله ! ومن أين حضرته ؟ يقول : من زحلة . فشر . من « مجدل

عنجر ، وحياتك ، ومع ذلك سمعته يقول : تبهدلنا . الجرو تبهدل ، ياحبيبي ! كأنه من النَوْرَك[1] .

– قد لايحب الشغل في معمل مسامير ، طبائع الناس تختلف .

– يمكن ، ولكن الذوق ضروري ، اقول له : هذه الآلة من اختراعي ، فيمط بوزه ويكشر ، هيهاي ! لو صادف اديسون امثاله لبقينا على السراج .

– جهل ، المخترع انسان عظيم ، وفي اوروبا يقيمون له التماثيل .

– وعندنا يمطون له بوزهم .. لاتبعد ، هذه مرين (ماري) ، زوجتي ، تمط بوزها ايضاً ، ولم تأت ولا مرة واحدة وتلقي نظرة على الآلة .. لا كرامة لنبي في وطنه وبين اهله .. هذه هي الدنيا ، قولك تتصلح ؟

اجفل فياض من السؤال .. راوده الشك في ان يكون ابوروكز على معرفة بقصته ، فتعمد ان يجيب على لسان والده كما يفعل دائماً :

– الدنيا تمشي الى امام .. هكذا يقول والدي .

– يه على كسرتنا .. وحاسب قولته فلسفة ؟

---

(١) اختصار كلمة نيويورك عند بعض سكان جبل لبنان .

– والدي اختبر الحياة ، قال لي : كل شيء سيكون احسن .

– وهذه ليست فلسفة ايضاً .. الفلسفة ان يقول كيف سيكون أحسن .

– نعم، سمعته مرة يقول : اذا طلب ابنك خبزاً لا تستطيع ان نعطيه حجراً .

– تفسيره ؟

– اذا طلب الناس شيئاً حصلوا عليه .

– هم .. حلو .. والدك متنور ، وكلماته لها معنى .. (ومع ابتسامة ونظرة تفحص) ولك لا يكون والدك (...) المهم ! انا امزح معك ، ملعون سركيس وسيرته ، اين كنا واين صرنا ، اتركنا في قصة المعمل ، الخواجة فيليب مستعد لاخذ كل انتاجنا ، وانت وشطارتك ، اجرتك المقطوعة ليرة ونصف ، وفوقها خمسة قروش عن كل كيلو يباع .. قليلة ؟ سأترك لك المفتاح .. ابدأ العمل من الغد .

– لا مانع .. سأنظف المعمل ، وامسح الآلة ، وارتب العدة .. واعجبك .

– لا تمدح نفسك .. اشتغل وانت ساكت ..

– معك حق ..

– ولا تشاكل هذا الحمار (ولم يذكر الاسم باعتباره

معروفاً) وحتى « مرين » لاتسمع كلامها .. ضع رأسك في الشغل وقل يا الله ، العمل على الآلات يحتاج الى تركيز ، وانا لا اتدخل إلا عندما يطرأ عطل .. هذه شغلة الميكانيكي .

– سترى مني مايرضيك .

– اذن تصبح على خير .. نم باكراً وقم باكراً .. النوم الباكر ضروري للعامل .. انا لا أنام الا ساعة أو ساعتين ، قلبي يخفق كمنفاخ ، والطبيب نصحني بالراحة وعدم التفكير ، وانت ترى اني مرتاح ، ولولا الآلة مافكرت بشيء .

– والآلة لاتفكر بها .. اتركها واسترح .

– ياريت .. الآلة ولدي .. أنسيت أنني أنا الذي اخترعتها؟ قل يلعن تلك الساعة ، فكرة الاختراع سيطرت على عقلي .

– أما قلت لك أن المخترع فنان .؟

– يحرس دينك .. بشرفي ، حامل البكالوريا لا يفهم مثلك .. كلماتك بلسم ، غذاء روحي ، سأنام مرتاحاً هذه الليلة ، تصبح على خير .. انتبه لعملك ... ركز تفكيرك في الآلة ، ولا تشاكل هذا ... الحمار !

القسم الرابع :

- ١ -

ذات صباح ، تلقت دينيز ، رسالة تحمل هـذا التوقيـع : « جارك السابق » ولقد فوجئت بها الى درجة الذهول ، واستسلمت الى فرح اللحظة العجيبة التي تختصر الحياة ، وتغمر وجود الانسان بفيض الهنيهة التي هو فيها ، كأن لازمان بعد ، ولا مكان .

« جارك السابق » ؟ وماذا بعد ؟ « رسالتـك يا جاري ، ياربيعي ، ماذا تحمل الي ؟ »

وقالت في نفسها وهي تضمها الى قلبها : « ليتني ابقيها دون قراءة . » وفي غرفتها اغلقت النوافذ ، واشعلت مصباح السـرير ، واسبلت جفنيها وتنهدت : آه ، ما اجمل قضاء العمر في حلم لذيذ !»

فرحتها ان رسالته ، كشخصـه الغريب ، اقتحمت عالمها اقتحاماً .. لم تكن تتصور ان ذلك سيحدث، ثم فجأة كتب اليها .. فجاة بُعث ما كانت تحسبه في الراقدين : حبها . واذن كان ضلالاً كل مافكرت فيه ، وهذا الذي بلغها انه اختفى لايزال موجوداً ،

يذكرها ويكتب اليها .

ضغطت على الرسالة فوق صدرها ، وداعبت الورقة كأنها تداعب الرأس .. وودت من اعماقها ان يستريح الرأس ، ان يجد فرجاً من ضيق ، ان يغفر لها قسوتها وشكها وضعفها .

« صديقي !

« هذه الليلة فكرت بك كثيراً ، وايقنت ، عندما طلع الفجر ، ان حبي — الذي لم يكتسب كينونته برضائي — يستأهل السهر الى مابعد الفجر .. احبك أنا ، ومهما يكن ، وحسب الحب انه يقتل الدودة التي تقرض في القلب ، ويهب العذاب الذي بعضه ملح الحياة ، ويقرب المسافة بين العقل والجنون ، ويحيل ماهو طبيعي ، كامد ، الى ماهو غير طبيعي ، مشرق ملون .

« في الحكايات ان شيخاً وشاباً سارا في طريق .. وحين بلغا جبلاً ، قال الشيخ للشاب: تحملني أم أحملك ؟ وابتسم الشاب ، فقال الشيخ : لا تبتسم يا بني ، فلست بقادر على حملك ولا قصدته ، بل أردت : تحدثني أم أحدثك ؟

« ولقد تحدثنا ، نحن أيضاً ، عبر نافذتينا .. كنت معذباً بالزمن . كان الزمن ببطئه ، هو الطريق الجبلي الوعر ، وكانت وحدتي وحشة قاسية على ذلك الطريق . كنت شيخاً في بعض جوانب نفسي ، وبحاجة الى من يردني الى الشباب .. كنت محاصراً

بذكرياتي وبحاجة الى انأنساها .. كان الماضي مصدراً للحسرات، فكنت أبحث عن الحاضر . وأطللت من شبابك العالي ، من كوة الأفق ، فصار أنس ، وحديث .. وتسارع الزمن .. اصبح تسلق جباله أسهل ، وانجرفت ، مدفوعاً بفرحة هذا الانس ، في عاطفة لا أدري ما اسمها . حباً تقولين ؟ أحلى ، أكثر شفافية وغرابة ، وقد تكون أكثر طرافة ، وأشد فتنة بسبب من ذلك .. ولكم تمنيت ، في وحدتي ، لو تأتين يوماً الي ، لو تجلسين الى جواري ، لو اسمع صوتك ، لو أبادلك كلمة . ان دروب الحياة ، حتى السهلة منها ، وعرة اذا قطعها الانسان منفرداً .

« قنعت ، بعد ذلك ، بالحديث ولا كلام .. كنت قادراً وراغباً في تحطيم الجمود من حولي ، واقتحام الأبواب اليك ، ولو سألتني ماذا تريد ؟ لقلت لك : ان أنقب « الأخلاق الفاضلة » التي توجب ان يتم كل شيء في الخفاء ، وتحول دون لقائي بك ، هنا ، في غرفتي . ولقد فكرت ان آتي اليك ، ان أدخل بيتك ،غير أني عابر طريق،وعابر الطريق لايحق له ان يدخل بيوت الناس ويستسلم الى الراحة . قصاراه ان يطلب جرعة ماء ، أو ينشد فيئاً تحت شجرة ، ثم يمضي .

« وكذلك مضيت .. أنا في مكان لا أدعوك اليه .. لا تأتي ، لا أريد استغلال الحب ، أنا اسبح ضد التيار .. وليس في وسعك ان تفعلي مثلي ، لا أريد ان أخدعك في امري .

« وداعاً يا صديقتي .. ليحرسك الله ، ولتنسكب كل أفراح الدنيا في قلبك ، ففي ذلك سروري وعزائي . »

* * *

حين طوت الرسالة ودستها تحت وسادتها ، كان جارهـا السابق قد غدا فارساً من القرون الوسطى ، بيده سيف ، وفي عنقه صليب .. أصبح الآن على ذات الصورة الرومانتيكية لعالم الكتب والأفلام ، وباتت مستعدة لأن تمنحه نفسها وجسدها وتتبعه الى حيث يريد .

تراءى لها أقوى واجرأ من الجميع ، في نظراته يشتعل التحدي ، وفي قلبه طموح الى عالم ماجد ، وفي نفسه غنى ، حتى ما يريد شيئاً مما يريده الناس ، ولا يقبل ما يقبلونه ، ولا يحترم ما يحترمون أيضاً .

لم يكن الرجل فيه ما يفتنها ، بل سر هذا الرجل ، كونه متميزاً ، يسبح ضد التيار ، له غاية أخرى ، وحياة أخرى ، وعذاب يجعله خليقاً بالحنان ، وشجاعة تضعه على حافة الموت دائماً ، وحب يعلو على المدائح الرائجة لصغار العشاق .

ولكي لا يضيع « هذا الرجل » ، قررت ان تبحث عنه ، وان تستعين في بحثها بأم بشير ..

ولكن أين أم بشير ؟

في معمل المسامير ، حيث لا فارس ولا سيف ، كانت البرودة ترشح من الجدران الرطبة، وتبعث الشمس المحجوبة بالغيوم، وجهامة الحديد الصدىء ، والعتمة الدبقة ، الانقباض الشديد في النفس . كانت تشيع رائحة العفونة في فضاء الغرفة ، ويتدلى العنكبوت من الزوايا ويتمدد شباكاً للذباب فوق موجودات المكان. وقد اكتشف فياض جرذاً ميتاً ومنسياً في مصيدة ، ووجد قطعاً من الخرق الملوثة بالزيت لاصقة بالأرض ، وعلياً فيها زيوت معدنية سوداء متخثرة تغرق فيها حشرات صغيرة مقرفة .

وحين جلس ليعمل زكمته رائحة العفن التي لم يستطع إزالتها طوال أيام . وقال في نفسه : « هذه الرائحة لا بد ان تزول ما دام الباب مفتوحاً والصيف قادماً » كان بوده ان ينظف المعمل أولاً ، الا ان ابا روكز طلب منه ان يعنى بالآلة دون سواها . مسحها وزيتها ، وتدرب عليها تحت اشرافه فصار قادراً على العمل بمفرده ، وقادراً كذلك على تحمل ضغط الغثيان والتقزز الناتجين ، لا عن نتن المكان وحده ، بل عن الصداع والتوتر العصبي من جراء دوي الآلة الرتيب : تريك !. تراك !

وحين ذكر عمله في البناء، بدا له كالعمل في تسليك الحرير. يكفي انه في الهواء الطلق ، لا تصحبه هذه الطقطقة الحادة التي

توشك ان تثقب طبلتي أذنيه . هنـاك كان جسده يتقوس تحت ثقل الأحجار أو الخرسانة ، وكانت راحتاه تتلمثان ، وخاصة في الأيام الأولى ، بالدمامل الصفراء الكاوية أكثر من الزيت المغلي ، اما هنا فتهرس روحه مطرقة كبيرة على سندان ضخم .. دماغـه يتصدع ، ينخرز بألم ضرس ملتهب . وحين تعنف طرقات الآلة ويهتز الغشاء الرقيق لطبلة الأذن منذراً بالتمزق ، يبدأ مثقبان حفرهما في الصدغين ، وتتوتر جملته العصبية ، وتنقلب امعاؤه وتتلوى ، فارزة سمومها ، ويأخذ دوار شديد يزيغ البصر ، وشرارات حمر وبيض تقدح في تواتر على الجدار المواجه ، ويحس بأنـــه سيقذف ، ليس بامعائه وحدها ، بل بروحه أيضاً ، ويسبح بعرق بارد كالموت نفسه . لقد صاح مرة : «ايها العالم ! ايها العالم !. انت لا تدور على محور الفلك ، ولا تدرج على درب الزمن .. أنت تسير مدفوعاً بالأكف الشقية الدامية لصانعيين الأمجاد ! »

وها هي كفه تتهاوى أعياء في كل ساعة .. الآلة وحدها تهدر قاطعة بين فكيها الرهيفين ، لا المسامير الميتة ، بل الأعصاب الحية ، أعصابه هو الذي تحولت الاشياء حوله الى عيون هازئـة وافواه صارخة : اهرب ! اهرب ! اهرب !

كان يعرف انه اذا هرب مرة فلن يثبت أخرى ، اما ان يصمد الآن او لا يصمد أبداً .. وهو يريد الصمود ، يريده من كل قلبه ووعيه ، وفقط لو ان هذا الدوار ، وهـذا الصداع ، يتوقفان

قليلًا .. لو انه يجد وسيلة لتبريد دماغه ، للسيطرة على أعصابه التي تفتتها الطرقات .

ايقاف الآلة سيحمل ابا روكز على المجيء .. « وسيضحك ويقول : كم عمرك ؟.. والعمر يا ابا روكز لا دخل له هنا . العادة كل شيء ، ولا بد لي ان اعتاد ، فالذين يعملون في ظروف كهذه بشر مثلي ، والفارق الوحيد انهم اعتادوا .. اجتازوا الامتحان بنجاح » .

وقال في نفسه : « لن أوقف الآلة .. لتظل تدور ، وتهدر ، وليظل الدوي الثاقب يحفر في صدغي ، واسوف أعاود العمل ما ان يزايلني الدوار ، وتهدأ نوبة الغثيان » .

انتزع نفسه من دائرة المطارق وهو اصفر الجبين ، زائغ النظرات وفي رأسه طنين وحمى . كان صنبور الماء في الباحة ، فاسرع اليه مستنجداً كأنه يفر من لهب النار ، وفتحه ملهوفاً حتى آخره ، ووضع رأسه تحته ، وترك الماء يسري في ظهره وصدره ، حاملًا البرودة والانتعاش الى كل خلية في جسمه المحموم .. رفع رأسه وتنفس ملء رئتيه ، ثم اعاده مرة اخرى الى الماء . رفعه واعاده ، واحس بالفرج ، وباشراق الوعي ، فترك الماء وراح يتجرجر في الباحة ، ثم رجع الى المعمل ، وانطرح في ركن منه واطبق جفنيه .

والطريق المسدود في وجهي ليس مسدوداً بفعل القدر .. المجتمع

سده لاني تمردت عليه .. المجتمع يريد الكل على شاكلته ، وبابه مشرع وعريض للمنافقين واللا اباليين والذين يتسلقون قاطرة الحياة دون تذكرة .. المجتمع متسامح مع الجميع الا الذين يتمردون عليه . »

استجمع قواه ونهض مصمما على الاستمرار . وزيادة في التحدي راح الى الماء البارد فسكب منه على رأسه ، وعاد دون ان ينشفه . لسوف يجعل هذا الرأس يقاوم مهما كاف الامر ،وسيضطر اعصابه الى التماسك .

وراحت الشمس ، من وراء الغيم ، تتسلق قبة السماء ، ثم انحدرت الى الغرب ، وزاد انحدارها .. وزاد عدد المرات التي قام فيها الى المـــاء ، لكن المسافات بينها اخذت تتباعد ، وفي آخر النهار استطاع ان يتنفس الصعداء .

في غرفته العارية ، تناول ماعنده من طعام ، وآوى الى فراشه دون ان يفكر في شيء . مخيلته التي كانت تنشط ، عند الرقاد ، لتفرض عليه صوراً من كل الانواع ، بدت واهنـــة ، عاجزة تماماً الليلة ، والفراش الخشن استحال الى سرير وثير ، احتوى الاعضاء المكدودة بذراعين مخمليتين .. وما ان اطفأ النور حتى انثالت الظلمة ، وهجم النوم ، وهمدت الحركة كلياً في الغرفة التي خلت من طيوف اليقظة . ولم يشأ ابوروكز ان

يفرض السهر على فياض ، لأنه كعامل ، يعرف ماتعني تجربةاليوم الاول من عناء .

وحين استيقظ في السحر ، سمع في بيت خشبي ذي طابقين عزفا على الكمان ، كان صوت ابح خشن ، فيه بعض الشجو ، يرافق الكمان فى ترتيل كنسي . العزف ليس جيداً ، واللحن في الاصل للارغن وليس للكمان ، ولكن ظماه الروحي ، وسكينة الفجر ، جعلا للحن وقعا سحريا في نفسه .

ومن عجب ان النافذة كانت مفتوحة ، والنور مضاء ، فوقف على عتبة غرفته ينصت ، ويتطلع ليرى ماهناك . وبعد ان انتهت المعزوفة ، اقترب من الشباك المطل على الوادي رجل في نحو الستين من العمر ، ابيض الشعر ، غريب الهيئة ، يحمل كماناً ، وقد احنى قوسه للسماء كما يفعل الفارس بسيفه عند التحية ، وارتد الى الداخل ، ولم يلبث ان اطفأ الضوء . وساد الصمت الا من بقايا النغم المنداح في الاثير ، والمتلاشي رويداً رويداً في السحاب .

كان رأسه قد صحا تماماً ، والنوم العميق قد اعاد اليه نشاطه ، وكانت الطبيعة تتجلى في ثوب من براءة الطفولة وعذوبة الخفقة الاولى . بدت له جميلة ، مهيبة ، كريمة ، تحتوي في حنان جميع الكائنات . فلما عاد الى فراشه استشعر القدرة على احتواء العالم الذي ضاق به امس ، وقال في نفسه : « الحياة

لا الطبيعة هي التي تحتاج الى بعث .. لقد عتقت الحياة ،وهي تحتاج الى تجديد » .

ثم استعرض صبوات الناس الى هذا التجديد ، من جمهورية افلاطون الى المدينة الفاضلة ومملكة السلام السماوي ، فوجد ان ذلك كله كان احلاماً طوباوية مضى زمنها ، وان الشيء المهم ان يكف الناس ، في سعيهم لتجسيد صبواتهم ، عن ادارة خدهم الايمن .

واذا فكر بالنغم الابتهالي لجاره العجوز ، وجده صبوة من هذه الصبوات ، شكلاً من التعبير عنها ... نداء جميلاً الى السماء لتسعد الذين على الارض .. وربما كان الاجدى ان يوجه في قالب آخر ، ولكن مجرد توجيهه ينم عن الشعور بالحاجة اليه ، والرغبة في التعبير عنه .

– ٣ –

عاد خليل الى البيت يجر اذيال الخيبة والفشل . اخفق اضراب عمال الهاتف ، وانتقم الوزير من لجنة الاضراب فسرحها . لم تبق سوى بضع كلمات تظهر حيناً بعد حين في الصحف ، وبعض عرائض تقدمها هذه النقابة او تلك طالبة اعادة المسرحين .

وكان خليل على يقين ان المسرحين ان يعودوا ، لأن

الوزير كان ينتظر فرصة كهذه ، ولو ان الظروف لم تقيض له هذا التسريح لأوجده ، او لأوجد الشواغر ، بأي شكل ، ثم ملأها مقابل وعود انتخابية ، او قايض عليهـــا زملاءه فلبّى طلباتهم ، مقابل المعاملة بالمثل . اما مصير المسرحين فقـد تقرر : الشارع !

هذا المصير برغم سوئه ، لم يكن جديداً ولا مأسوياً بالنسبة لخليل .. واذا كانت والدته قد صاحت وهي تتلقى النبأ : « الله لايرحمه .. احترق وحرقنا . » فانه هو ، كان مستعداً لعدم المبالاة ، لولا وضعه العائلي الصعب والافواه الجائعة المنتظرة في البيت . وقد بدا امام جزع زملائه على قدر من الاستهانة يحسد عليه . وفيما كان هؤلاء يتلومون او يشتمون ، كان هو يفكر في نقاط الضعف ليصار الى اجتنابها في الاضراب المقبل . قال مؤكداً : « بعد فترة تبدأ المحاولة من جديد .. ليس في يد العمال سوى سلاح الاضراب ، وسيستعملونه حتى ينتصروا » .

كان حزيناً ولكن متماسكا . يحني جذعه الأعلى قليلا ، ويضم كتفيه تحت سترته ، ويفكر باحسن شكل لمواجهـــة العاصفة . لو نجح الاضراب لما كان بحاجة الى كلام . اما وقد فشل ، فان صحة الموقف صعبة الاثبات ، وعليه ان يلوذ بالصمت .

البيت غارق في وجوم ، وتراكض صغاره وتعلقوا به . البنت الكبرى ظلت جالسة في الشمس ، وقد نكست رأسها حين

رأت خيبته . وكانت صفرة تشيع في وجنتيها الناحلتين. لعلها من انعكاس الشمس الغاربة ، أو من اثر الجوع والبرد ، وقد جرح منظرها قلبه ، لكنه لم يتوقف في الحديقة ليكلمها ، بل سار الى الداخل ، وانحط على الخوان .

وبسبب من عناده وثقته بنفسه وأفكاره ، تعود ألا يرضخ للاخفاق .. كان يعرف كيف يستشرف آفاقاً جديدة ، غير ان الجوع كان قد اتى ، لا على نضارة الاطفال ، بل على قدرتهم على الحركة ايضاً ، وكان هو جائعاً ، وليس لديه تبغ ، ولهذا بدا كل ماحوله كئيباً ، قاسياً اكثر مما يحتمل .

المبلغ المجهول صنع في وقته بهجة للعائلة .. وقد احس خليل ان هذا المبلغ الصغير الذي جاء في وقته ، اثمن من اعطيات الوجود ، واعتبره رمزاً معنوياً كبير الاثر ، ولكنه ، واأسفاه ، نفد منذ ايام ، وبلغت الديون المتراكمة حداً امسك معه الجميع ، بمن فيهم الفران ، عن اعطاء العائلة مايؤكل منذ امس ، وقد ذهبت أمه لتستدين وهي تحني رقبتها ، وتلعنه وتلعن افكاره كلها .

وكان يأمل ان تعود بأي مبلغ ، ولتلعنه مقابل ذلك ماشاءت .اللعنة لاتساوي شيئاً . حياتهم نفسها هي اللعنة الكبرى ، فماذا يخشى بعد ؟ ولكن الأم عادت صفر اليدين ، وعاد الأب كذلك ، وهبط الليل ، وانسحب الأولاد من الحديقة ، وتعلقوا باذيال أمهم يطلبون طعاماً .

خيم الصمت عميقاً وقد امسكوا جميعاً عن كلام يكلف جهداً غير موجود . وامام الحضور المأسوي للعائلة الجائعة ، وربما القانطة من الفرج القريب ، كان الوجود الذاتي لكل منهم قد اندغم في الوجود العام ، فأحسوا انهم سقطوا في المعركة معـا ، وان عليهم جميعا ان يتحدوا ضد خصمهم : المجتمع ، وبدوا كـأنهم شركاء متضامنون امام المصيبة . وحتى ام خليل ، التي همت مراراً ان تفتح فمها وتنفجر ، تراجعت وقد غمرها حنان الامومة حيـــال مرأى وحيدها المطرق ويده على خده .

كان خليل منكسراً ، تعباً ، جائعاً ، يرى عـدوه بشكل أجلى . انه امامه ، غول كريه وقادر ، وهو مؤمن ان هذا الغول سيسقط يوماً ، ولكن متى يأتي ذلك اليوم ؟ متى ينتهي الظلم ؟ انه لايستطيع ان يتصرف بشكل غير لائق ، ومن واجبه ،بصفته ربا للعائلة ، ان يفعل او يقول شيئاً ، الا ان الفعل والكلام غـير مجديين هذه الليلة ، هذه الليلة على الأقل ، فليصمت ، وليحـاذر ان يستثير الاعصاب والعواطف المكبوتة والمتوفزة من حوله .

طرق الباب بلطف ، طرقة زائر غريب . كان جوزيف هو الذي جاء . لقد حضر فياض في غيابه ، فأخذ حقيبته ومضى ، دون ان تستطيـع هناء ابقاءه ، ولم يقل لها سوى انه في حال جيدة ، وانه يشتغل .

وقالت زوج خليل ان فياض يشتغل عامل بناء ، وينام في

غرفة مثل القبر ، ولكنها لاتعرف اين ؟ وام بشير التي اخبرتها لاتعرف ايضاً .

صاحت ام خليل :

ـ ياولداه !

فقال ابو خليل :

ـ عشنا وشفنا !

وتأوه جوزيف وتمتم :

ـ « بروفسور » وينقل احجار !؟

فاجابه ابو خليل :

ـ وماذا يهم ؟ انه يبني الهيكل !

فاستفسرت ام خليل بكثير من الاهتمام :

ـ أي هيكل هذا ؟ هل يبنون كنيسة ؟

قال ابو خليل :

ـ دور الكنائس لم يأت بعد .. الجماعة على طريق الجلجلة[1]

اسر خليل في نفسه : « والدي صار لاهوتياً على حسابي »

بينما اجاب جوزيف في نوع من المباهاة :

ـ طوبى لمن كان على يميني .

فاحتد ابو خليل مستثاراً بهذه الطمأنينة المتحدية :

---

(١) المكان الذي صلب فيه المسيح

- أي يبن هذا استاذ ؟ المسيح نفسه بشّر برسالته ثلاث سنوات ثم تقرر مصيره ، اما هذا (واشار الى خليل) فانه يبشر من ثلاثين سنة ومصيره مجهول .. كل يوم نقول وصلنا ويمضي اليوم فنقول هذا الاسبوع ، وهذا الشهر وهذا العام .. العمر ، كما ترى، انقضى وهو يتعذب ، فمتى يصير مايقول ؟ هو حر ، واحسبه على حق ، ولكن من يستمع للحق ! ؟

قالت ام خليل مقاطعة :

- ليس لهم رأس .. لانائب ولا وزير ..

فصاح بها :

- اسكتي انت .. (والتفت الى جوزيف) تقول سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه هذا الحق ، وانا معك ؛ ولكن كان عليه ؛ وهو يعرف ان الطريق طويل ؛ ان يسير وحده ؛ لا ان يتزوج ويجر هؤلاء الاطفال الجياع وراءه .

واحتج خليل في محاولة لتأكيد سلطته كرب عائلة ؛ بينما راحت امه تبكي وهي تردد :

- جياع ! أي والله جياع ؛ منذ امس لم يأكلوا شيئاً !

قالت زوج خليل مدافعة عن زوجها :

- ياويلتاه ! انفضحنا ! اكلوا ؛ من قال انهم جياع ؟

وارتبك جوزيف شاعراً بضرورة التأييد المعنوي على الأقل ، ثم عدل عن الكلام وفكر ان يكتب يومية نارية هذا المساء . وفي

هذه اللحظة دخلت ام بشير حاملة سلة وضعتها عند الباب ، وصاحت بزوج خليل :

ـ إلحقيني الى المطبخ .

ـ خير انشاء الله ـ سأل أبو خليل ـ عرس جديد ؟

ـ اعراس !

ـ التخت جاهز .. ضابط الايقاع بدون عمل ، والسعر ملائم جداً .. اغتنمي الفرصة .

ـ الاستغلال مامن عادتي .. في بعض الاحيان ارفع السعر بنفسي .

ـ جئت في وقتك اذن .

ـ وجئت بالعربون ايضاً (ومدت يدها الى صدرها) هذه خمسون ليرة على الحساب ؛ والفرح ؛ العقبى لاولادكم ؛ يوم الاحد المقبل .

فقال خليل ، بعد ان تراخى التوتر قليلا :

ـ أحسنت .. وماهي اخبار فياض؟ هل يعمل حقاً في البناء ؟

ـ اختفى من ورشة البناء ايضاً .

ـ ومن اخبرك ؟

ـ المعمار الذي يعمل معه .

قالت أم خليل ثائرة :

ـ مجنون !

والتفت مغضبة الى ابنها واضافت :

– خطيئة فياض في رقبتك ، أتسمع ؟ في رقبتك انت !

فقال خليل هادئاً ، كمن يصدر حكماً واثقا من صحته :

– خطيئته في رقبتنا جميعاً !

– ٤ –

طال انتظار دينيز ، ولم تأت ام بشير لزيارتها . حين يكون لديها عرس لاتفكر بسوى حفلة الزفاف ، ويكون الفرح فرضا وشرطا اساسيا ، وقد تتساهل في اجرتها نفسها ولا تتساهل في اقامة الفرح ، وكان ابو خليل يشجعها قائلا : « هذه عادة ابائنا واجدادنا » وقد قبض الخمسين ليرة كعربون ، وضمن لنفسه زجاجة عرق ، واستغنى عن حفلة الغداء برغم الالحاح .

وكانت دينيز قد سألت عن ام بشير في بيت ابي خليل ، فقالت ام خليل لكنتها : « زبونة جديدة ! » واكتفت الكنة بابتسامتها الحيية ، مسرة في نفسها : « اذا تزوجت دينيز على يد ام بشير ، حصل « التخت » على اكبر مبلغ في حياته الموسيقية » ذلك ان دينيز ثرية ويتيمة ، وليس لامها سواها ، وكل الاملاك والاموال ستؤول اليها ، وزواجها سيكون حدثا سعيدا بالنسبة لجميع الاطراف .

وكانت دينيز قد قالت للكنة : « اذا جاءت ام بشير ارسليها الي » وهاهي ايام تمر وام بشير لاتظهر ، حتى قالت ام خليل : « اخاف ان يكون العرس قد فرط ! » فقال ابو خليل : العربون صار في الجيب على كل حال !

* * *

غاصت دينيز في فراشها الوثير هذا الصباح وهي تتمطى وتتمدد دون ان تجد همة او حاجة للنهوض . امها ذهبت من الصباح كعادتها اكثر الايام ، فهي رابعة ثلاث في طاولة بوكر تستنزف المال الموروث، وتمتص التفكير الجنسي المعذب لارملة شابة .

وقد اعتادت دينيز الاتسأل امها عما تفعل ، وتركت الام لبنتها الحرية في انفاق وقتها كما تريد ، وكانت هذه تنفقه في النوم والمطالعة والسينما ، وقد هيأتها تنشئتها الهشة للاستسلام الى عالم خاص ، خيالي ، من نسج القراءات الرومانتيكية ، ومن تأثير الافلام وما فيها من فروسية ومغامرة وخروج عن المألوف .

كانت تضيق برتابة حياتها حين تفح الافاعي في جسدها ليلًا ، وفي هذا الوقت تأسف لأن فياض لم يأت اليها عنوة كما فعل الراهب الشاب بسيدة البيت في رواية « الاحمر والاسود » . ليأت مهما يحدث ، وليقتحم عليها غرفتها ، وينفض غطاءها .. لينقض عليها كنسر وليتركها بعد ذلك مدماة ... انها

لاتتمسك بالفضيلة ، ولكنها لاتريد نقيضها الا كما في « افلام القرصان » .

قالت في نفسها : « لوجاءت به ام بشير يوماً لكافأتها بما لاتحلم .. وتمطت ودب نزوة جامحة يسري في مفاصلها.. وارسلت كفها تمسد الحرير فوق الردف وهي مكبة على وجهها ، وضغطت صدرها على الفراش ، واطبقت جفنيها وتصورت كيف يكون ذلك ، لوجاءها الفارس الذي يحمل سيفاً وفي عنقه صليب ، الفارس الذي رسالته تحت وسادتها ، القادر والراغب في ثقب « الاخلاق الفاضلة » التي تتطلب ان يتم كل شيء في الخفاء .

استعادت عباراته واحدة واحدة : « حسب الحب ان يقتل الدودة التي تقرض في القلب ، ويهب العذاب الذي بعضه ملح الحياة ، ويقرب المسافة بين العقل والجنون ، ويحيل ماهو طبيعي كامد ، يومي ، الى ماهو غير طبيعي ، مشرق ، ملون » « تمنيت في وحدتي لوتأتين يوماً الي » .. « ان دروب الحياة ، حتى السهلة منها ، وعرة اذا قطعها الانسان منفرداً » « عابر الطريق لايحق له ان يدخل بيوت الناس ويستسلم الى الراحة ، قصاراه ان يطلب جرعة ماء او ينشد فيئاً تحت شجرة ، ثم يمضي » « انا في مكان لأدعوك اليه .. لاتأتي . انا أسبح ضدالتيار . »

وقالت في نفسها : « اين هو اذن حتى لاأستطيع الذهاب اليه ؟ ودربه ماهي ؟ يسبح ضد التيار ولا يطلب سوى جرعة ماء

او في شجرة ؟ ام بشير قالت انه كاتب ، فهل يطاردونه لأنه يكتب ؟ وماذا يكتب ؟ هل ينقض « الناموس » ؟ وهل انا ، في نظره ، بجدلية جديدة ؟ لقد مضى عهد الجدليات .. انني اريده هنا في سريري ، في حضني ، فلماذا لا يأتي !؟

— ٥ —

بعد ظهر السبت اختتم فياض اسبوعه الأول في المعمل . عبأ المسامير في أكياس الاسمنت ، وحملها الى كتف الوادي، حيث سيارة النقل تنتظر . كان عليه ، مقابل المسامير التي يحملها في طلوعه الى السيارة ، ان يحمل في نزوله الى المعمل ربطات الأسلاك التي جاءت بها .

وكان أبو روكز ، الذي لبس ثيابه اللائقة كصاحب معمل ، يتحدث خلال ذلك مع السائق ، ويجد ، عند وصول فياض حاملاً المسامير أو انصرافه حاملا الأسلاك ، من اللزوم توجيه سؤال أو نصيحة اليه ، كما يجد السائق من الضروري إرسال صيحة او شتيمة ، او النهوض لمعاونة فياض على وضع الأكياس في السيارة ، او انزال الربطات منها ، فاعلا ذلك بعصبية لا مبرر لها ، تحمل معنى الشطارة او الاستخفاف ، أكثر مما تحمل الرغبة في المعاونة .

وقال وهو ينفض يديه بعد ان ابتعد فياض :

= من اين هذا الزبون يامعلمي ؟

وأضاف قبل ان تضيع الفكرة منه :

– ياحرام على الشباب (وفتل شاربه) يوم كنت في سنه، كنت آكل الدنيا .. اينك ابو روكز ! شباب اليوم من نايلون .

– من نايلون ؟ اكثرت ..ولكن أينك (استدرك بسرعة) المعمل في أسفل الوادي ، والانسان يعجز عن الصعود فارغاً ، والمسكين يصعد وينزل حاملا .

– وإيش فيها يامعلمي ؟ شغل والا لا ؟ (قالها وعاد يفتل شاربه ويضرب على كرشه الصغير) .

– شغل ؟ (تساءل ابو روكز وقد شاعت في صوته نبرة هزء) نعم شغل يابو سبع ، ولكن الحرب بالنظارات سهلة، حاسب الصعود والنزول شربة ماء ؟ الإنصاف حلو !

– بس تأخرنا . لو كانت الطريق توصل الى المعمل !

– هذه مسألة أخرى ، قل هذا الكلام لحكومتك .. لو كان بيت نائب او متنفذ ، كانت الطريق وصلت اليه من زمان ، لكن معمل .. من يهتم بالمعامل يابو سبع ؟ .

أجاب السائق وقد أنهى حمولة السيارة وإنصرف لإغلاق بابها الخلفي :

– من يحط ينط يامعلمي . الدنيا (وأشار بيده إشارة البلع) « شرالوب » وحلال على الشاطر .. عافية على بيضه !

ولما جلس وراء المقود وبجانبه ابو روكز استأنف حديثه بحماسة أكبر .

– لاتسأل الواحد من أين جئت بالمال ، اسأله : عندك مال ؟ اليوم لاأحد يسال عن مصدر المال بل عن وجوده .. عندك حارة[1] ؟ حلال على بيضك ،ماعندك ؟ لاتسوي بنسة ، الناس تسأل عن الحارات لا عن مصدرمالها .

– كلامك صحيح يابو سبع .

– صحيح وبس (انتفخ وضرب على المقود أمامه) ماسكرنا ، ولكن شفنا الذين سكروا ! ماعمرنا حارات في رأس بيروت وشارع الحمرا والروشة ، ولكن شفنا اصحاب هذه الحارات ! من أين جاءت أموالها ؟ « شرالوب » وحياتك « شرالوب » .. ولا داعي للسؤال ، حلال على الشاطر ، عافية على بيضه ؛ عافية .. (وأدار المقود بحركة مفاجئة أجفلت أبا روكز ؛ بينا أطل هو من النافذة وبصق شاتماً إبن الكيت والكيت ؛ ثم أدار المقود بحركات لولبية متتابعة ؛ وإنساب بين السيارات الذاهبة والآيبة ، وهو لايفتأ يمد رأسه خارج سيارته ويشتم ؛ حتى خشي المغبة ابو روكز وصاح به :)

– إيش صاير عليك يابو سبع ؟ على مهلك . !

(١) الحارة عند اللبنانيين هي البناية الكبيرة بعدة طوابق .

– على مهلي ؟ (وضحك) هذا « بيك آب » يامعلمي» .

– « بيك آب » وتسرع بهذا الشكل ؟»

– وتسميها سرعة ؟ (قالها وخطف المقود الى اليمين ، ثم كر به الى اليسار ليتجنب عربة يد على مقربة من الرصيف ، وأضاف :) هذه سرعة ؟ كنت مرة في عرس أوادم بقرنايل ، وأنت عارف الطريق ، ضيق وخطر ، والخواجات في سياراتنا ونحن نسير بالصف .. طلعت روحي .. « دوبلت » على عشر سيارات وحياتك ! . نشرت عرض السواقين الذين أمامي ، طلعت عليهم وسحبت .. حزرك ؟ بسرعة ١٢٠ كيلو وشرف أبو روكز ، وصلت قرنايل والموكب بعيد كيلو متر عنها .

– عفريت .. كل همك تدخل ضيعة العروس قبل موكب العريس .

– ياليت ! أصول العرس ان تدخل السيارات وراء بعضها .. لذلك انتظرت الموكب على باب الضيعة .. نوفزت .. ورحت أنشر عرض السواقين من جديد .

– عال ، تنشر عرضهم إذا سبقوك ، وتنشر عرضهم إذا تأخروا عنك ، وتريد طريق قرنايل ميدان طراد .. ليش هذا الجنون ؟

– شطارة !

– هيهاي !

- أي نعم شطارة ، وعادة ، ولكن عن اذنك ، حاسبني وحـــدي بهذا الشكل ؟ لا وحياتك ، كل سواقي لبنان مثلي .

- ياحرام على لبنان .. كان منتزه وصار كراج ..السيارة بظهر السيارة ، والسواقون مجانين ، ياحفيظ ..

- قل ياماتو .. حوادث السير لاتنقطع ، ولكن السائق اللبناني عديم الاخ ، ينسل بين السيارات مثل الأفعى بين الأشجار، صحيح وإلا لا ؟

- صحيح . (قالها ابو روكز بضجر ، ثم أرسل هـــذا التحذير) إنتبه ! تمهل حتى تمر السيارة القادمة .

كان « البيك آب » قد دخل طريقاًفرعياً ، محفوراً لإصلاح المجارير ، ولا يمكن المرور فيه إلا لسيارة واحدة ، وقـد بدت في الطريق الآخر منه ، سيارة تكسي أخذت تزمر محذرة . وقال أبو سبـع :

- الطريق لي يابو روكز .

- ولكن التاكسي وصل الى منتصفها ..

- وإيش علي منه ؟ مثلمـا دخل يرجع (ومد رأسه من نافـــذة السيارة وصاح بالسائق الآخر :) ولك إيش ؟ ضاربك العمى ؟ .

فأخرج سائق التاكسي رأسه من نافذة سيارته وأجاب ؟ :

– انا (لفظها : اني) ضاربني العمى والا انت ؟

– لك العكروت !

قالها ابو سبع وهم بفتح الباب ، فامسك به ابو روكز .

رد السائق الآخر :

– من العكروت ولك ؟ (وهم بالنزول بدوره ، فامسك به الركاب) .

– انت العكروت ولك (اجاب ابو سبع ، والتفت الى ابي روكز قائلاً :) اتركني اشطبه .(١)

قال ابو روكز وقد امسكه جيداً :

– جننت ؟ اتركه يمر .. العمى ، عندك اولاد .

– لايهم ، لازم يتشطب حتى يتربى (واخرج رأسه من النافذة مرة اخرى وارسل هذا الانذار) :

– ولك ترجع والا لا ؟

كانت سيارة التاكسي قد وصلت اليه ، فنزل منها السائق وصاح :

– لا ، ماراح ارجع .. اذا كنت رجلاً شرف لعندي .

وفي اللحظة التي توقع فيها ابو روكز ان ينتتر ابوسبع منه

---

(١) اضربه بالسكين .

ويهجم على خصمه ، وقد اغمض هو عينيه نصف اغماضة لكي لايرى الدم ، صاح ابو سبع وقد فتح باب « البيك آب » :

ــ ولك انت ؟ زوزو !؟ يحرق دينك ! ظننتك غريب !. طيب اعط اشارة ... (واستمر في الكلام وهو يتراجع بسيارته مفسحاً الطريق للتاكسي الذي قال سائقه ساخراً :

ــ اي انت تركت المجال للاشارة ؟ تنفّشت مثل الديك !. قطعت الطريق ورحت تتعنتر !! آخذ شحطة ؟

قالها وهو يمر به ، ولما تجاوزه صاح :

ــ سلم على معلمك !

ــ تسلم زوزو .. رح .. موفق (وملتفتاً الى ابي روكز) زوزو من جماعة فرعون !

ــ وانت !؟

ــ من جماعة الحاج ..

وبعد ان خرج ابو سبع من الزقاق ، سأله بدوره :

ــ وانت يامعلمي !.. من جماعة من ؟

فاغمض ابو روكز عينيه وقال :

ــ من جماعة الله !

في هذا الوقت، كان فياض ينقل ماتبقى من ربطات الاسلاك التي حملتها السيارة . خطر له ، وهو ينظر الى قاع الوادي ، ان ان يدحرجها فتذهب لتسقر حيث تشاء . تملكه روح العبث . وكان قميناً ، لولا عيون المارة ، ان يتوجه الى بيروت ويمد لها لسانه .

وليس في ذلك ما ينتقص من قدر بيروت عنده ، فهو يسميها « رئة البلاد العربية » . ويعجب لها عجباً لا ينقضي . لكنه ، لسبب ما ، كان يحس انه ضائع فيها ، ولن يجد ابداً سبيلاً الى العيش .

وهاهو قد وجد .

المصاعب ليست جدراناً من فولاذ ، وحتى لو كانت يمكن ثقبها بطريقة ما ، وقد ثقب جدار مصاعبه ، ولا بأس عليه اذا استشعر ، في ختام الاسبوع ، ان ماكان يتصوره قاسياً قد صار ليناً .

اشعل وابور الكاز ، وصنع فنجاناً من القهوة . وكان اطيب فجان منذ زمن . ورفع على النار تنكة الماء لكي يغسل رأسه ويديه ، ثم فكر ان يغتسل كله ، وكان الحمام ، الذي اشار اليه سركيس ، هو المرحاض ، وعليه اذا اراد الاغتسال ، ان يفعل ذلك هناك . وقد تذكر بقولة سركيس « تبهدلنا » وضحك ،

فالاغتسال في المرحاض بهدلة من غير شك ، ولكنه خير من الوساخة .

وبعد الحمام اعد كوباً من الشاي ، وجلس يرتشفه على مهل ، مفكراً بالكتابة التي انقطع عنها منذ مدة . كذلك فكر بوجوب استئناف صلاته ببعض الاصدقاء ، فهو في هذا الحجر اللعين ، اشبه بالمقطوع عن العالم ، ولولا اخبار ابي روكز وجريدته التي يتركها احياناً في المعمل لما عرف من اخبار العالم شيئاً .

فتح حقيبته ليخرج أوراقه فهبت عليه منها رائحة التذكارات الجميلة . سقطت من كنزة صوفية زجاجة عطر صغيرة . ابنة عمه حبكت له هذه الكنزة وارسلتها له من الوطن . ولم يفتحها لأنه لم يكن بحاجة الى أناقة . كان يعرف ان في حقيبته « كنزة » ولم يتصور ان فيها زجاجة عطر ومن النوع الذي يفضل .. رؤية هذه الزجاجة بعثت فيه تأثراً حنوناً فقال في نفسه : « اذن لم ينسوني الذين هنالك ؟ وماذا تقول أمي؟ لقد ابلغتها انني في بيروت ، فهل منعوها من المجيء إلي ؟ ظني انهم منعوها ، وانها تحت المراقبة .. أمي تحت المراقبة !.. وفي الليلة التي فارقتني قالت : من يدري متى نلتقي ؟ وقلت ان نفترق يا أماه ، فنظرت إلي ولم تقل شيئاً . كانت تعلم ان العاصفة مقبلة . وكطير النورس احس بها قلبها ، ولكنها لم تقل شيئاً . أمي منذ زمن لاتقول شيئاً ، لعلها يئست مني ، ولعلها يئست من واقعها ، وسمعتها مرة تتشكى : « حالتنا لاتطاق ! » وفي الحي

تتصدى لمن يتكلم عنا بسوء. قالت لهم: لأجلكم يضحي ابني والآخرون، فقال واحد منهم: « لأجل نفسه! » وعندئذ بكت، وقالت لي: «تصور! انهم لا يجدون ما يأكلون، ومع ذلك .. » فقلت لها: لا تقسي عليهم، «انهم لا يعلمون ماذا يفعلون» فنفرت ورددت: «نعم، نعم، هذا صحيح.» واذ كانت تكتشف تحولاً في الناس تبتهج وتقول: « أتعرف فلاناً، او ابن فلان، هذا منكم، وهذا منكم، وفلان وعائلته » فأمر لسرورها وأقول: اليوم هؤلاء وغداً غيرهم، وفي المستقبل الكل » فتسألني: « وحين يصير الكل معكم: يتحقق الشيء الذي تعملون له؟ تتزوج وتعيش مطمئناً وينتهي هذا العذاب؟ أرى لك اطفالاً كما لاخواتك؟ » وأقول: ينتهي عذاب الجميع، ولكن هذا لا علاقة له بالزواج والأطفال، الزواج ممكن في كل وقت، والاطفال كذلك « ولماذا لا تتزوج إذن؟ » لأني لم أحب بعد! « ومتى تحب؟ »: والدي أحب عني وعنه. وتضرب على صدرها: «لاتذكرني بذلك، والدك لم يحب، أفعاله ليست حباً، دناءة .. تزوج يابني .. دعني أرى لك اطفالاً . »

وكاد يحقق امنيتها لو لم تتبدل الحال، لو بقي في الوطن. الآن اصبح كل شيء من الماضي. وحتى لو عاد فقد لا يتزوج تلك الفتاة. وابنة عمه التي اشتغلت كنزة الصوف، ودست فيها زجاجة العطر، هل كانت تفكر بـــه أيضاً؟ حين كان معلماً تلقى منها رسالة .. تجاهل آنذاك ما وراءهـا. انه لم يفكر بهـا الا قليلا ..

وها هي الكنزة وزجاجة العطر ، وها هو يكتشف بعض معـــاني رسالتها ، « وتراها كانت تحبني ؟ ولماذا اكتشف ذلك متأخراً ؟ وكم من الاشياء يكتشفها الانسان متأخراً ؟ »

لو عـاد مرة لشد على يديهـا وشكرها بكلمات من القلب . سيكون قـــادراً على محبتها أكثر . اشياء كثيرة سيحبها أكثر . البيت ، والحديقة ، والقطـة العجوز ، والحي والشوارع والناس . سيصغي الى حـكايات والده ، ويشم رائحة السرير النظيف ، ويقبل عنق والدته المغضن ، ويذهب الى تلك المرأة .. ويطلب من أمـه اصنافاً من أكلها اللذيذ ، ويذهب معهـــا الى زيارة كل الأقرباء ، سيمكث الى جوارها اياماً طوالاً ... نعم أياماً طوالاً .

تصاعدت عواطفه وأشواقه حتى نسي السبب في فتحه الحقيبة . كل ما فيها كان يذكره ، على نحو ما ، بشيء من وطنـه : القميص ببائعه ، والبدلة بخياطها ، والحذاء بصانعه ، والمناديل بالأيدي التي اشتغلتها ، وكيس الحمام بوالدته ، وربطات العنق بأصدقائه ..

واستغرقه التذكر فلم ينتبه الا والليل قد هبط في الخارج، وفي ذاته انثال اسى رقيق، ولكي يستعيد بهجته ، خرج الى الرابية، مجلسه في الأمسيات . كان الوادي تحته رصاصي الخضرة ، ودروب كثيرة ، رئيسية وفرعية ، معلقة بين القاع وقمم الجبال ، تظهر جلية على خريطة الطبيعة كأنها أسلاك من نور وهاج تمتد وتتعرج وتتقاطع

وتزحف صعوداً ونزولا كما في اعلان بانورامي كبير مضاء بالنيون. وفي نقطة عالية، عالية جداً، تسطع كوكبة من أنوار، كأنها مجمع منارات. كان يعرف ان هذه «بكركي»، ولا يدري لماذا خيل اليه، انها بارتفاعها هذا، تشكل المنبر الارضي الأكثر ارتفاعاً في العالم، وان الواقف عليها لا يحتاج الى رفع الصوت، ففي مقدوره أن يطال السماء بذراعيه، ويضع فمه على أذنها ليفضي اليها بكل أسرار الأرض كما قال جوزيف.

ومع هبوط الليل، وامتداد حبال مصابيح السيارات، بدا قاع الوادي المؤلف من سن الفيل وما جاورها، اوسع مما هو في الحقيقة وأبهى، وما أن تصاعدت منه ومن الأديرة المتناثرة على هضابه وخواصره، أصوات الأجراس، في عشية الأحد، حتى غمر الدنيا خشوع وانبهار.

رغب الليلة في زجاجة بيرة. لو قبض أجره لاشتراها وشربها على كتف الوادي.. ليس له من يشرب نخبه، فليكن نخب الحياة التي يكافح متاعبها.

حاجة أخرى رغب فيها الليلة: أن يذهب الى ماوراء البرج ليأكل «الخبز الناشف»، لكنه قنع، بعد أن عاد الى غرفته، بالتفكير الرغبي، وراح يحلم، في يقظته، بسرير عريض، وثير، وجسد ابيض ممتلىء، وكلمات هامسة لا يسمعها سواه.

كان يرى الحلم ضرورة ويسمح لنفسه أن تحلم أحياناً ، بل يحثها على أن تفعل ، وأن تفعل ذلك على هواها ، ويسميه تعويضاً. ولقد تساءل ، وهو في حاله الموقتة ، عن قوة احتمال الذين في مثل حاله بصورة دائمة : « أي صبر !؟ أي غناء نفسي !؟ أي نكران ذات !؟ » انه يفهم الحرمان مفروضا ، أما ان يكون اختياريا ، وطويلا ، فهذا يحتاج الى سمو رفيع ، الى رياضة روحية تجعل المناضلين والقديسين في مرتبة واحدة ،بل ان القديسين لايجدون من العسر ما يجد المناضلون ، ولا يفتقدون حتى خصلة الشمس كما يفتقدها هؤلاء .

حسبه إذن أن يكون حواريا . . ان يتقبل هذا الحرمان بالصبر لابالرضى، وبالارادة المدفوعة باليقين ، لابالعفوية. وحين يكون في وسعه أن يدفع الحرمان ، ولو بشكل متقطع ، فلن يتوانى : وبانتظار ذلك لابأس بالأحلام ، وحتى بالداعرة منها ، على ألا يكون فيها شطط ، ولا تحجب عنه طهر الوجه الذي أطل عليه يوماً من النافذة .

الوجه ذاك ، مازال ماثلاً في خاطره وسيبقى .. عجباً للحب ! كيف يستحيل صلاة داخلية على اسم الغائب ، وعجباً لها كيف احبته وهو في هذا الوضع ... « ولكن هل تعلم انني في هذا الوضع ؟ » ان ذلك يحتاج الى جواب واضح ، كما يحتاج الى جواب

واضح وحاسم السؤال الذي يطرحه نفسه عليه بالحاح : «هل الذين في مثل وضعه يحبون ؟ »

في بيت أبي خليل أصدر حكمه الأول : علي ألا احب .. وفي بيت جوزيف استأنف قلبه الحكم ، وكاد يربح الدعوى لولا انه ذهب ليعمل في البناء فوجد ثمة مبررات كافية لرد الاستئناف ، وهاهو ، بعد نجاحه في تجربة التحدي ، يستشعر في قلبه تميزاً جديداً ، غير ان التمييز اضحى بدون موضوع .. فقد ألغى ، في رسالته اليها ، الدعوى كلها ، اصبحت دينيز ، كغيرها ، طيفاً وذكرى !

سمع وقع خطوات في الخارج . كان ابو روكز قد عاد ، حاملاً اليه اجرته . وقد سأله فوراً :

– مارأيك بزيارة لضيعتنا بزمّار ؟

– ممنون .. في المستقبل إن شاء الله .

– اذن نذهب غداً الأحد نقدس .

– غداً انا مشغول !

– وايش شغلك ؟ قالوا للحلوة من متى انت في القصر ، اجابت من البارحة العصر .. وانت ماسخنت بعد في الحي ، صار لك معارف ومشغوليات .. ام هذا الحمار لعب بعقلك !؟

– معاذ الله .

- انتبه .. لاتقل على وجهي لحسة لبن .. حط رأسك في الشغل، واسمع نصيحة اكبر منك ، القداس ضروري .

- ضروري ، ولكني مشغول .

- أجل شغلك ليوم ثاني .. المداومة على القداس تفتح الرزق وترضي الله والناس .. كيف ستعمل إذن في السانتوس ؟ تقول لابن عمك ، إذا دعاك الى القداس ، أنا مشغول ؟ يا حبيبي ، يقول عنك : كافر ! لا ، لا تتعلم الكسل والعادات السيئة ، جهز حالك للقداس ، وبعده نطلع الى الضيعة فنحضر سيامة ابن ابو شحادة شماسا .

« يا أبو روكز ! ياأبو روكز ! يامعلمي ! ياجاري الطيب ! أنا لا أستطيع الظهور في الأماكن العامة ، ولن أذهب الى « السانتوس » كما زعمت لك، ولا يوجد ابن عم لي هناك، أنا مختبىء عندك ، واسمي فياض لا سليمان ، ومهنتي مدرس لا عامل بناء ، وليس بامكاني أن أذهب الى الكنيسة أو الضيعة ، ولا أن انزل الى البرج .. فكيف غاب عنك كل هذا ؟ وكيف اخترعت أنا هذا المقدار من الأكاذيب ؟ ما كنت أريد أن أكذب ، صدقني لم أكذب ، ولا أحب الكذب ، ولكنك تسألني، وتلح في السؤال، وتعذبني ، وتعقد وضعي ، فلماذا لا تدعني وشأني !؟ »

كرر أبو روكز سؤاله :

– اي ، مارأيكما ؟

– لدي شغل .

– انت حر (اجابه بجفاء) لولا اجرتك ماجئت . . الا تريد اجرتك ؟

– كيف لا ؟

– تعشيت ؟

– نعم . .

– ليلة الاحد لايتعشون بسرعـــة . . يشربون كأساً مع الطعام ، الاوادم يشربون كأساً مع الطعام . . فتعال نشرب قليلا ونأكل من الموجود .

– قلت لك اكلت .

فبدا الضيق على ابي روكز وقال بحسم :

– ولك ابني .. الانف العالي حلو في بعض الاوقات لا في كلها .. رجعت من السوق بسرعة .. اشتريت العرق والمـــازة وقعدت انتظرك ، وبعدك تتبغدد علي ؟

– العفو . .

– بلاها ! اتركني من الديبلوماسية .. خذ حسابك وتعال بسرعة .. لك عندي بشارة .. بشارة كبيرة ياسليمان ، لاتقال الا مع الكأس .. الحقني ..

على المائدة ، كانت حال ابي رو كز كحال رجل ينتظر ان تدب الخمرة في المرأة التيمعه كي يشرع بمد يده اليها . . انهيرغب، ويرقب ، وينتظر ، ويصبح هو ، لاالمرأة ، عرضة للانفعالات قبل ان يرى البادرة المرتجاة ؛ وقد تتأخر ، وقد لاتصدر ابدا ، وعندئذ يبدو عليه الضيق ، ويضطر الى تذوق طبخته قبل ان تنضج .

ابو رو كز ينتظر ان يسأله فياض عن البشارة . . وهـذا لايريد ان يقفز الحواجز كلها ، حتى لاتزداد مداخلات ابي رو كز واسئلته ، ولهذا يتصرف بحذر ، حريصاً على ابقاء شعرة العلاقـــة الرسمية . وحذره أفسد الجو ، فاضطر ابو رو كز الى الكلامبدون ان يسأله . قال له بصورة مفاجئة :

ـ مارأيك في السفر الى كارا كاس ؟

ـ كارا كاس ؟

ـ نعم ، الى فنزويلا . . بلاد البترول والذهب .

ـ ومن لك فيها ؟ هل تعرف احداً هناك (قالها فياض بشيء من تلهف ، فاندفع ابو رو كز موضحاً ومعاتباً :)

ـ ولك ياسليمان ! حاسب معلمك من صيعة صغيرة ؟ انك حق . . « العود في ارضه نوع من الحطب » ونحن في ارضنا خشب . . لو تغربنا لاختلف الامر . . (وبعد وقفة) ابورو كز ، ياسليمان ،

له معرفة بواحد درويش في كارا كاس . . وهـذا الدرويش وزير داخلية فنزويلا ، كأسك !

بدا علي فياض ، عفوياً ، انه غير مصدق . . وحـين دق كأسه بكأس ابي روكز ، تساءل في ذات نفسه : «معقول !؟» وهذا التساؤل بالضبط ، هو ما كان ابو روكز ينشده ، وربما دون وعي ، من وراء اصطناع المفاجأة . لو كان الأمر معقولاً لما كانت هناك خطورة ، ولـكان هو ، ابو روكز ، انساناً كسائر الناس ؛ يعرف شخصاً في المهجر ، ولانعدمت القيمة التي يعطيها لنفسه من وراء هذه العلاقة .

مخترع ، وصاحب معمل ، وذو علاقة بوزير داخلية فنزويلا . . انها اسباب تجعل المرء ، وخاصة اذا كان في حرب مع الصحـة والزمن ، يمارس لذة الحضور والتفوق ، ويجد متعة في ان يلقى من يمارس شعوره هذا عليه . .

وفيما هو يسكب بعضاً من العرق ، ومضت في عينيـه التاعة شوق عابرة ، رفت على وجه « مرين » البدينة الجالسة قبالته ، ولم تلبث ان انزلقت من كتفيها الضخمتين ، وصدرها البرجي ، الى فخذيها المنتفختين كركيزتي جسر ، وارتدت خائبة فانطفأت . . لاشيء من هذه النـاحية يتـكافأ مـع سرور الليلة . قـد يعانق كيس اللحم هذا ليلا ، ولكنه سيفعل ذلك بقرف ، لان صاحبته عاطلة عن حلاوة الروح والجسد .

« لاتفكير الآن في هـذا . . ومادام سليمان موجوداً ، تنعكس على وجهه ردود المفاجأة ، فاستمتع يابابا روكز بذلك ، وابلغ عاملك ، ومستأجر وكرك الكهفي ، والشخص الاكثر قابلية للفهم في مملكتك الجاهلة ، النبأالسعيد الواردمن كارا كاس . »

ـ وصلت برقية من اختي اليوم !.

ولما لم يجد تطوراً في دهشة فياض اردف :

ـ اختي ام وزير داخلية فنزويلا .

ـ هكذا !؟

ـ اي نعم .. ابنها من الحزب الابيض ، وله مكانة كبيرة ، ونفوذ في التجارة والسياسة .

ـ وكيف صار ذلك ؟

ـ لاتسألني .. من جد وجد .. من اربعين سنة تزوجت اختي وهاجرت .. هل قرأت « المجاني »؟ وردت فيها هذهالحكمة : « تغرب ففي الغربة سبع فوائد » واختي تغربت فحصلت على الفوائد السبع .. اما نحن فكما ترى .. الخلاصة ، اختي هذه التي لم ارها منذ اربعين سنة واصلة بعد غد ، فهل تعرف ماذا يعني وصولهـا ؟

ـ الاخت حلوة !

ـ على رأسي ، ولكني اتحدث الآن كصاحب اعمال ، كأملك !

لاحظ فياض ان معلمه لايشرب ، وهذه الـ « كأسك » علامة تعجب في ختام جملة مهمة ، والتشديـد على كلمة « صاحب اعمال » يشكل تعويضاً حسناً لمريض القلب هذا .

انزلق « كيس اللحم » عن المقعد. وتدحرجت « مرين » نحو غرفة النوم في حركة تفصح عن لامبالاة بالنار التي تلهب زوجها.. وقد تكون ، في هذه اللحظة بالذات ، ماء غير مقدس يلقى عليها ، وهذا ماجعل الزوج يسأل ممتعضاً :

- الى أين يامرين ؟

- نعسانة !

- هم .. (وبعد ان ذهبت التفت الى فياض سائلا :) هل تنوي ان تتزوج ؟

- لا .

- لماذا ؟

- لم افكر بذلك بعد .. لن اتزوج الآن .

- لاتتزوج ابداً .. كذب الذي قال : «وراء كل عظيم امرأة !» المهم .. مصير المعمل متوقف على وصول اختي، فاما كل شيء واما لاشيء ..

- ان شاء الله كل شيء .

- هذا متوقف عليك .

- علي انا !؟

ـ نعم ، اذا اظهرت المعمل بالشكل اللائق ، ضمنامشاركة الرأسمال الفنزويللي !

ـ لم افهم المقصود ..

ـ هيهاي ! ولك ياسليمان ، اللبيب بالاشارة يفهم ، لاتجعلني احطك في صف سركيس ومرين .. كلمة المعمل واضحة .. حين نقول المعمل، نقول الآلة .. الآلة هي كل المعمل ، بكل مافيه حتى انت ،أنت الذي تشتغل عليها صرت جزءاً منها،فاذا توقفت توقفت، صحيح والا لا ؟

ـ صحيح .

ـ اذن يجب الا تتوقف الآلة ، وخاصة عند زيارة اختي للمعمل ، فهمت ؟ شحّم الماكينة ، زيتها ، شد البراغي، افعل كل شيء، احصر انتباهك كله حتى نضمن موافقتها ... البرقية تفيد انها تصل الاثنين ، وطبعاً ما راح تزور المعمل في اليوم التالي ، ولكن زيارة المعمل مقررة في البرنامج ... وبيني وبينها مراسلات بهذا الشأن .. اذا كنت لا تذهب معي غداً فاسترح ، ويوم الاثنين ، شوّفني شطارتك .. اما انا فمضطر للتغيب غداً ، سأحضر سيامة ابن بو شحادة شماساً .. وربنا يقبل ، ويتمم على خير ، ويبيض الزرزور وجهنا .

قالها وتنهد كمن يحمل هماً من جراء ذلك .. وكان واضحاً ان موضوع ابن بو شحادة يشغله منذ ايام ، لا لان ابو شحادة جاره

فقط ، بل لانه ابن ضيعته كذلك ، وحين يسام واحد من ابنائها كاهناً او شماساً ، فالشرف ، في حساب الوجاهة ، يعود الى أهل الضيعة جميعاً .

وكان ابو شحادة قد جاء اليه يستشيره عدة مرات . وفيما يبدو ، لم يكن في الاحتفال ما يشغل ابو روكز سوى قضية الزجل ... فبعد سيامة الشماس تقام مأدبة في الضيعة تحضرها وفود القرى المجاورة مع قوّاليها[1] لتهنئة الشماس والاشادة بأسرته وقريته وضيافته ، وبكل المكارم ، الموجودة وغير الموجودة ، التي يردها القوالون ، بسبب من العادة أو الخمرة أو الأريحية الطارئة ، الى القرية وأهلها ، وعلى هؤلاء ان يردوا التحية بأحسن منها ، ومن هنا أهمية دور قوال الضيعة ، وقد اوصى ابو روكز جاره قدام فياض :

– لا تنس الزرزور[2]

قال ابو شحادة وهو يفتل شاربه ويعقفه الى أعلى :

– عندنا زرازير !

فصاح به مغضباً :

– بلا تجليط[3] .. عندنا زرزور واحد وبلا جناح ..

---

(١) القوال : الزجال .

(٢) اعتاد اللبنانيون ان يلقبوا زجاليهم باسماء الطيور فيقولون : شحرور ، أو حسون ، او زرزور الخ ..

(٣) التجليط : التضخيم والتبجح .

ولكن ايش في اليد ؟ شيء احسن من لا شيء ، اسقوه بمقدار حتى لا يسكر وينعقد لسانه ، وايا كم والحماس الزائد ، ردّية[1] بردية ، وبدون قدح اذا صار تعريض ، وبدون رصاص وقتلى ، اتركوا الضيعة بسلام هذه المرة احتراماً للمناسبة .

– والجرس وجرن الكبة[2] يا معلمي ؟ سأل ابو شحادة .

– هذه مضمونة يا بو شحادة . (وبعد وقفة) ايش صار؟ خلت الضيعة من الرجال ؟

كانت رجولة رجال الضيعة لا يتطرق اليها الشك في نظر ابو روكز، بخلاف قضية الزجل ، وقد سأل فياض الآن من قبيل الاطمئنان :

– برأيك الزرزور يبيض الوجه ؟

قال فياض :

– بدون شك .

فهز ابو روكز رأسه وأجاب :

– والله أنا عندي شك ، يدي على قلبي يا سليمان .

---

(١) الجواب في الزجل .

(٢) دق جرس الكنيسة ورفع جرن الكبة ، ألعاب قوى في قرى لبنان .

طلع النهار التالي ضاحكاً ملء شدقيـه ، وكانت الشمس حارة الى درجة اضطر معهـــا سركيس الى زحزحة طاولته من الشمس الى الفيء . بدا مهندماً اليوم، حليقاً ونظيفاً كما لم يره فياض طوال الاسبوع . وامام الطاولة التي وضع عليها زجاجة عرق وبعض صحاف المازة ، جلس على كرسي جلسة زهو مشروع ، مواجهاً نافذة الجيران ، وفرد منديله على ركبته ، وركز « الدربكة » عليها ، وانطلق يضرب ويتغنى بما حضره من ألحان .. افتتح حفلته بأغنيات خفيفة لصباح ، وحين أتى دور أغنية « ع العصفورية» دفعه لحنها المازج الى مضاعفة قوة الضرب ، فأطل عليـه ابو روكز من الشرفة وقال بلهجته الساخرة :

– حلو يا سركيس ، حلو !

قال سركيس :

– تفضل معلمي شاركنا .

– عشت .. نقرك حلو وصوتك أحلى .

– ماشي الحال .

– الحال ماشي معك ، ولكن مع الجيران يا سركيس ؟ الناس تصلي وانت ...

– وانا أصلي يا معلمي !

ـ هكذا ! ؟ صلاتك مقبولة اذن .

ـ من فمك لأبواب السماء ..

ـ او لشباك الجيران .. موفق !

استغل سركيس وقفته الاضطرارية هذه لتصفية كأسه واملائها من جديد . كان عليه ، فعل الحاوي الخائب ، ان يغير الصفير ، فانتقل بغنائه الى الارمني ، ثم الى التركي ، ومع ذلك لم يطل رأس افعاه من وكرها ، فقدر انها غائبة ، واعطى لنفسه اجازة ونهض يدعو جاره فياض الى مشاركته في الوليمة الصغيرة.. وكان فياض يود ، لولا تلفت الرائحين والغادين الى سركيس وغنائه ، ان يشاركه الفرحة.. ولم يلح سركيس عليه ، فهو يريده مشاركاً فعلياً ، يغني معه ، ويصفق على ايقاعه ، وقد يكون التصفيق ، الذي يغطي ضعف الايقاع ، هو المطلوب من الدعوة ، وليس فياض بالشخص المرجو لهذه المشاركة ، لانه ، كما قال سركيس: « جرذ لا يخرج من وكره » وعلى هذا كان الاعتماد على النفس كل ما بقي ، فعاد الى دربكته ،وارتفع صوته بأغنية شائعة ، مطلعها « طلي من الطاقة » وكان ، بسبب من لكنته الارمنية ، يلفظها « طاكة » ويستعيض ، عند جهله أو نسيانه الكلمات ، بالنغم يتمتم به ليضمن استمرار الأغنية ، أو ليمهد الى انتقال سريع الى أغنية اخرى على ايقاع واحد هو : دم .. تك .. دم تك ..

وحوالي الظهر اشتد الضرب وعنف ، فأطل فياض من الباب ليرى السبب ، واذا وجه يبتسم في النافذة .. لقد خرجت أفعى سركيس من وكرها اخيراً .. وكان هذا سعيداً ، وعلى استعداد للضرب حتى المساء ، مع المغامرة بمخالفة تعليمات ابي روكز الذي ذهب الآن الى القداس ومنه الى الضيعة ..

كانت الفتاة تبتسم بجرأة ، وتنظر باتجاه فياض ، وقد افصحت حركاتها عن هزء واضح بـ « ضابط الايقاع » الذي كان مستعداً لأن يفخت الدف في سبيل كلمة ثناء .. وتذكر فياض حق الجيرة ، فانسحب الى الداخل لكي يفسح المجال للنظرة المستقيمة ، المباشرة ، بين سركيس وجارته .

وطفقت ، من قاع الوادي ، تدوّي أصوات النواقيس والاجراس ، وارتفعت من البيوت المجاورة ايقاعات اجران الكبّة ، وظهرت ، في الشوارع والنوافذ ، الاشكال الانيقة والجميلة للفتيات وسيدات الحي ، ولم يبق صامتاً ، هذا اليوم ، سوى الآلة في معمل المسامير ، وفياض الذي اصبح ، كما قال ابوروكز ، جزءاً منها .

كان عليه ان يرتضي الواقع ، ويقبع في غرفته حتى المساء . ولتزجية الوقت ، طفق يذهب ويجيء ، ولا يدري كيف وقع نظره ، عبر الباب الموارب ، على « أفعى » جاره . كانت قد

انتقلت من الغرفة المواجهة لسركيس ، الى الغرفة المواجهة له ..
ولاحظ انها نفس الغرفة التي رأى فيها العجوز يحني قوس الكمان
محيياً السماء في وقت السحر ، واستنتج من ذلك انهـــا ابنته ،
والمرجح انها دخلت الغرفة لترتيبها ، برغم ان احداً لايظهر في
نافذتها سوى العجوز الذي يبدو مجنونا وعاقلاً في آن . كان
سركيس منصرفاً الى ضربه وغنائه ، بانتظار الاطلالة الثانية من
« النجمة » التي هو كل جمهورها ، وابوروكز في الضيعة يشارك في
حفلة الشماس ، وفياض يدور في غرفتـه مسترقاً النظر الى هذا
الوجه الجديد في النافذة الجديدة . كان « الجوع » الآخر يعذبه ،
فلماذا لايخـــدع غرائزه ، بالنظر من وراء بابـه الموارب الذي
لايشك مخلوق في انه يقف وراءه ؟

قرر ان يفعـل ، وهو يبتسم لفكرة خطرت له : ان
يكتب قصة عن « الحب من النوافذ » .. وحين انبطح على سريره ،
في الزاوية المعتمة ، كانت هي تقف وسط الغرفة ، وقد نزعت
فستانها ، وبقيت في القميص الحريري الأسود ، المدور الفتحة ، على
طريقة صوفيا لورين في ابراز مرمر الساعدين والظهر .

أحس برعدة في كل جسمه ، وبخجل من كل نفسه . انه
أمام تجربة مثيرة ومشينة . أغمض عينيه وفكر : « انهض أم
أبقى !? » استشعر العجز عن النهوض ، والعجز عن كبت غرائزه
التي استثارها المشهد فجنت وسيطرت . الرادع العقلي صار في خلفية

وجوده ، يأتيه تحذيره كالصدى ، بينما غدا صوت الجنس نفيراً في أذنيه . كل رجائه تعلق في ذهاب الفتاة ، وكل رجائه انعقد على بقائها .. ضميره كان يضرع اليها ان تكف عن خلع المزيد من ملابسها، وحسه كان يستجديها أن تفعل.. ان تنزع ثيابها ، وأن تنزعها بأناة ، ببطء شديد ، وهي تتثاءب ، وتدور، وتتملى جسدها اليافع في المرآة ..

فاتنة كانت .. صرتها بدت له اجمل كأس ، وقياساً على الاطراف العليا : الزندين والكتفين والصدر ، قدر روعة مفاتنها ، وتنازعته رغبة جامحة قاتلة في أن يرى بقية جسمها ، ولكنه ، في موضعه ذاك ، كان يرضى بأي شيء ، وحتى برؤية اليد التي ارتفعت الى الرأس تعبث بالشعر ... ثم اختفت اليد ، واختفى الشعر ، واختفت صاحبته ، وتوقف سركيس عن الضرب والغناء ، اما لأنه مل .. أو لأنه عقد هدنة مؤقتة مع النافذة الفارغة !

— ٩ —

عاد ابوروكز بصورة مفاجئة ..

أطل ، قبل ان يدخل البيت ، على الباحة التحتية ، فوجد سركيس قد طوى عدته واغلق بابه ، فهو اما نائم او في السينما .. وحتى لو كان موجوداً فلا خير فيه ، ولا يمكن ، بأية حال ، ان يحدثه بشيء ، او يقص عليه طرفاً مما جرى .. و«مرين»في الضيعة ،

لم تأت معه ولم تعلم برجوعه ، وهو، مع وجود المزاج الطبيعي ، يتعذر عليه النوم ، فكيف ودمه يفور واعصابه تهتز !؟

خلع طربوشه ، وركز عصاه في الزاوية ، وتناول مفتاح المعمل وهبط ونيدأ ليدرس ، على الطبيعـــة ، الترتيب اللازم قبل وصول اخته من فنزويلا .

في البـاحة تنحنح متعمداً وعينه على باب فياض .. هو واثق انه في غرفته . قد يكون نائماً ، وحرام ايقاظه ، وعلى ذلك انصرف الى وضع برنامج استقبال الاخت المنتظرة ، وتحديد المطالب كي لاتباغته بالسؤال عن آفاق تكبير المعمل ، والمال اللازم ، فلا يجد القدرة على الجواب الواضح .

ومن الغرفة المقابلة كان فياض يتابع خطى معلمه ، ليعرف اذهب ام لايزال ينتظر .. بدأ يحب هـذا العجوز المريض ، فحياته كلها معلقة بهذه الآلة التي اخترعها .. انها الشيء الوحيد ذو القيمة في حياته ، ويخيل اليه ، ان كلمة واحدة ، كلمة انـكار أورفض لهذا الاختراع ، كافية لتقضي عليه .. وما عسى ان يكون رد الفعل في نفسه ، لو كانت شقيقته القادمة من كاراكاس هوجاء فصارحته بالحقيقة عن معمله واختراعه ، وقالت له انهما لايسويان شيئـاً ؟ وما الاثر الذي سيخلفه في تلك النفس المتعللة بالرجاء صموت الآلة عن ايقاعها الرتيب ، الايقاع الذي هو ، بالنسبة لأبي روكز ،

نوع من صلاة ، مثل عزف الكمان وضرب الايقاع بالنسبة لجاريه الآخرين ؟

فتح فياض بابه وخرج ليلقى معلمه جالساً في المعمل يدخن ، وقد استبد به غضب ظاهر .. ربما كان تعباً فعزف عن الصعود الى الضيعة ، واكتفى بحضور القداس في بيروت ، وربما اختلف مع زوجه أو لاحظ مالا يرضيه ، ولكن هيئته الكامدة تشير الى وقوع كارثة .. فماذا جرى ؟

شجعه ان في وجه ابي روكز تعبيراً يقول: « اسألني ! » ولما سأله أجاب :

- واصل من الضيعة رأساً !

- انتهى الاحتفال ؟

- حفلة السيامة انتهت .. اما حفلة الضيعة فلا .. ياحرام ! ضيعتنا تبهدلت يا سليمان .. امـا قلت الك يدي على قلبي ؟ الذي خمنته صار .. وهذا الكلب بوشحادة ، سود وجهنا .

- وماذا فعل بوشحادة ؟

قال ابو روكز ساخطاً :

- ماذا فعل؟ وتسألني ؟ جعل نفسه قوّال الضيعة .. اقسم انه لم يدع الزرزور .. من زمان يتحين هذه الفرصة .. عادد نفسه من القوالين ، الكلب !

بعـد ذلك قص ابو روكز ماجرى :

« عقب القداس طلعنا الى الضيعة ، وهنـاك بدأت التهاني والاناشيد ، وقام الشبـــاب بدق الجرس ورفع الجرن .. اولاد الضيعة بيضوا الوجه من هذه الناحية .. زنرد ماشاء الله ، وحتى لو فتح باب المصارعة وثني الزند كنت مطمئناً ، ولكن الزجل ! قلت في بالي الله يستر يا بو روكز . وسألت عن الزرزور فلم يفدني احد بشيء. .وسألت بو شحادة فقال : «اطمئن!» .. الكلب قال اطمئن، وأنا اطمأننت ، وضعت رجلي في ماء بارد، فلما صار وقت الطعام، وجلس الضيوف الى الموائد وشربوا كأساً وثانياً وثالثاً ، جاء دور الزجل ، ونهض القوالون فاسمعونا قولاتهم .. شيء حلو.. اكرموا الضيعة .. زينو عنقها ، البسوها قلائد كما يقولون ، ووصل الدور الينا .. نظرت حولي فلم اجد الزرزور .. لم يظهر له اثر ، وعلى زاوية الطاولة المستطيلة ، من الجهـــة الاخرى ، رأيت بوشحادة واقفاً .. مطرقاً في الأرض ، وقد « فنجر » [1] عينيه الحمراوين ، فحزرت مايدور بباله ، بل عرفت حيلته كلها : اغفل دعوة الزرزور ليخلو له الجو .. رحت اشير اليه ، انظر صوبه ، اتنحنح،فلم يلتفت الي،تعمد الا يلتفت الي، وافرغ كأسه كما يفعل القوالون، ومثلهم رفع اصبعه في الهواء ، وصفق الحضور،وقلت : ياساتر! انتظر الجميـع .. وتنحنح بوشحادة وقال :

(١) فنجر : فتح عينيه على اتساعها حتى جحظتا ..

طاولات وطاولات ..

فصاح الناس : طيب بو شحادة !حلو !.. كانوا يشجعونه ، يسايرونه باعتباره صاحب الدعوة ، وكانوا ،في سرهم ، يضحكون عليه ، يضحكون على الضيعة .. جعل الضيعة مضحكة ، الكلب !.

سكت ابو روكز اثر خفقان مفاجيء في القلب تقاص له الوجه ، فسأله فياض :

- اي .. وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك كانت الكارثة .. كرر المطلع :

طاولات وطاولات

وصفق الناس ثانية .. انتظروا .. ولكن قريحة بوشحادة جفت فلم يستطع إكمال البيت .. اطرق من جديد ، وطال اطراقه ، واعترتني رجفة .. الملعقة وقعت من يدي ، فلم اقو على البقاء .. وجدت نفسي انهض وامشي .. ومن طرف الباحة سمعته يقول :

طاولات وطاولات ما احلى مد الطاولات !

ياحبيبي ! ضحك الحاضرون عليه وعلى طاولاته .. خزانا خزاه الله .. اخزت الضيعة ياسليمان .. توارت من الخجل وتواريت معها .. ركبت اول سيارة صادفتها وقلت للسائق :

- الى بيروت !

اضاع جوزيف الباقي من توازنه طوال الايام التي اعقبت زيارته لبيت ابي خليل . بلغ اعجابه بخليل وتأثره لحال العائلة حداً كبيراً ، وضاعف اختفاء فياض من ورشة البناء هذا التأثر، فانفعل وثار وسخط ، وقال في نفسه : « لاكتبن يومية تمجـــد الكفاح بالكلمة والعمل وبجرد الشعور بالظلم ، وتكون ، فيما بعد ، نواة لمقال انشره في الصحف » . وسارفي الشارع وهو يقلب هذه المعاني ، ويجهز الكلمات ، ويحترق بنار داخلية تطل في نظراته تحدياً يصيح بالمارة : « هاانا ذا على نفس الطريق ، فاصلبوني ان استطعتم .. ايها الناس ! نحن لاجلكم نتقبل اسفنجة الخل ، فانهضوا وادفعوها عنا ، انهضوا ، كافحوا حتى الموت او النصر ، سيان الموت او النصر ، المهم هو الكفاح ، فما بالكم خائفون متبلدون ؟ »

وكان المارة لايأبهون له .. يمضون لشوؤنهم كأن شيئاً جديدا لايحدث ، ولا يتوقع ان يحدث ، وكأن « العوسجة الملتهبة » لاتحترق في المكان المقدس ، وجوزيف يفكر على هذا النحو : « لماذا لايفهم الناس ، دفعة واحدة ، حقهم ويدافعون عنه » . وقال في نفسه : « هذا خليل ، من ثلاثين سنة وهو يناضل ، وهذا فياض ، وهذا (وتردد ثم اضاف) انا .. وفي المدينة ، وفي

القرية كثير من امثالنا .. في كل شارع ، في كل حي ، ثم لاشيء، لاالمظلومون يتحركون ولا الظلم يتزحزح ، فهل علينا ان نصبح مئة سنة اخرى حتى نزيل الوقر من آذان الناس ؟ »

تبدت له « القوة الخفية المسيطرة » كابوسا رهيبا تتحرك المدينة تحت وطأته ، وتراءى له الناس وفي عنق كل منهم انشوطة طرفها في يد غير منظورة .. كل واحد في عنقه انشوطة ، حتى هو وخليل وفياض وامبشير ، وكل واحد يجاهد لقطع انشوطته وتحرير رقبته ، والانشوطات تشتد ، وتضغط ، والناس يسيرون في الاتجاه الذي حدده قدر اعور . يسيرون ببطء حتى لاتشد الانشوطة ولا تضغط . بعضهم يقاوم ، لايبالي بشد الانشوطة وضغطها . وبعضهم يستسلم لها ، وصراع غير مرئي ، بين السواعد والانشوطات ، وساحة معركة فيها جثث مخنوقة ، وانشوطات فارغة ، ورقاب تحررت ، واخرى لاتزال مغلولة ، وناس في الساحة ، وناس على اطرافها ، بعضهم يبكي ، وبعضهم يئن ، وبعضهم يكشف عورته او يضحك ، وآخرون يخفون انشوطاتهم ، يدورون في اماكنهم ، وغيرهم يمزقونها باسنانهم ، وغربان في الجو ، وديدان على الارض ، وغبار كثيف يحجب صفحة السماء ، وجوزيف يعيش اللوحة كرسام تضج في رأسه الشخوص والألوان ، ويسرع الى مكتبه قبل ان تخمد نار الحماسة التي اوقدتها مأساة خليل وفعلة فياض .

وفي البيت حضّر اوراقه واقلامه واغلق الباب دونه وشرع يكتب .. وبعد ساعات خرج بشعر منكوش ووجه مصفروغادر البيت مسرعا .

* * *

في اليوم التالي ، بعد العمل ، عاود الكرة .. حبس نفسه ساعات ، واحرق كمية من السيكارات ، وشرب كثيرا في المساء ، وجمع حوله كدسة من الكتب ، وقلب صفحات من كل كتاب ، ونام مقهورا لأنه لم يتوصل الى افراغ أفكاره بالقالب الأدبي الذي يريد .. « اللوحة الرسم لا الكتابة » كذلك قال وهو ينهض ، والقى بالقلم وصاح : Je prefère la Peinture واضاف مؤكداً قناعته « Oui je prefère la Peinture » وفي المساء ، احتجاجاً على اخفاقه في كتابة اليومية النارية ، اشعل النار في يومياته كلها ، وقال : « الى الجحيم ، لا حاجة ، بعد ، الى الكلمات، لدينا منها مايكفي ، العمل هو الذي يجدي » . واعترف وهو يتعذب : « فياض وجد طريقه .. تخلى عن كل شيء في سبيل ان يكتب .. وخليل قاد اضرابا فاشلا ، ولكنه سيقود اضرابات ناجحة ، اما انا ! ؟ » كان مستعداً أن يموت الآن ، في هذه اللحظة ، ولكن في هذه اللحظة لاسواها ، ولأنه لا يستطيع ان يفعل ذلك ، فقد استشعر تعاسة قاتلة ، وبدا ساهما ، مغضباً ، ساخطاً على الحياة .

ورأته هناء على هذه الصورة فاجفلت ، ولكي تسرّي عنه استجمعت شجاعتها وسألته :

ـ ماذا جرى لك ياجوزيف .. بماذا تفكر ؟

فحدق فيها مستثارا وقال :

ـ افكر بعبد الحليم !

فابتسمت وقالت :

ـ لاأصدق !

وعندئذ وجد المبرر لكي ينفجر فصاح بها :

ـ يابنت « هيك وهيك ! » .. هاتي الانجيل لاحلف !

— ١١ —

تفرغت ام بشير من واجبات العرس ، وعادت تظهر في الحي بحثا عن صيد جديد .. وهدأت اعصاب جوزيف قليلا ، وصار يكثر من التردد على بيت ابي خليل ليسأل عن فياض ، وقد عجب من ان خليل لايجد في الامر كارثة مثله . قال له : « كنت اتوقع احد امرين : ان يظل فياض راكداً فينتن ، أو يواجه الواقع فينقذ نفسه .. استاذ !؟ وما أهمية ذلك ؟قيمة الانسان في ذاته لا في لقبه » . فقـــال جوزيف : « ولكن فياض غير معتاد ! » . ورد خليل بجسم : « سوف يعتاد ! »

لم يقتنع جوزيف بهذا المنطق . حاصر ام بشير بأسئلته دون جدوى ، وكانت هذه لا تعلم اين فياض ، ومع ذلك تتظاهر بأنها تعلم ، وقد كفت عن اثارة أم خليل ، وقدمت دون مباهاة مساعدة متواضعة للعائلة ، وقد عثر خليل ، اكثر من مرة ، على قطع نقدية وعلب سيكارات في جيبه، وادرك ان أم بشير تفعل ذلك خفية ، وقال والده انها تسلفهم على العرس المقبل ، فأجاب : « خالتي اكرم من ذلك . »

وذهبت أم بشير الى ورشة البناء ، وسألت المعمار والعمال ، وتوصلت الى معرفة اين يسكن فياض ، وقررت ان تكتم السر ، لكنها في نفس اليوم أفشته لخليل ، فقال هذا : « اياك ان تخبري أحداً .. اذهبي اليه وتفقديه .. اذهبي مساء ، فأنت لا تثيرين شبهة أحد » .

قالت ام بشير : «لكني لا أفهم .. لماذا هو وليس غيره ؟ لماذا يطاردونه بالذات ؟ ماذا فعل ؟ »

– لم يفعل شيئاً .. الصحافة زعمت ان نشاطاً خارجياً يجري في لبنان ، ولان النشاط لا بد له من قائد ، والقائد لا بد له من اسم ، فقد أوردت اسم فياض .. والشيطان وحده يعلم لماذا أوردت اسم فياض .. المسألة خطأ ، ولكن أين من يصحح الاخطاء ؟ ربما لانه كاتب ، والكاتب له شهرة ، والشهرة تخلق

ضجة .. انهم يريدون احداث ضجة .. هذا كل ما في الأمر ، فهمت ؟

– وأنت .. ماذا تنوي ان تفعل ؟

– سأسعى لتأمين مكان له .. انا قلق عليه .

– وماذا لأجلك أنت ! ؟

– لا شيء .. سرحوني وانتهى الأمر !

– والعمل ؟

– ابحث عن عمل ..

– والعائلة ؟. الا ترى أولادك يموتون من الجوع ؟

– أراهم ..

وران صمت ثقيل ، قبل ان يقول خليل بأسى :

ـ يا خالتي لاتكوني مثل امي . . لا اريد تذكيري بالجوع والاولاد . . أنا ابحث وأتألم ولكني لا اعثر على عمل . . وهذه ليست المرة الأولى ولا الأخيرة . الشكوى لاتفيد ، واصلاً ، لماذا الشكوى ؟ يموتون ؟ ما اظن ، وحتى لو ماتوا . . فكري أنت . . لو خاف كل أب على اولاده ، وكل والد على أهله ... لولم تكن الاضرابات ، لولم ينتشر دفياض . . لولم يمت الناس ؟ فكري . . كان العامل ، في الماضي ، يفنى ولا يحصل على تعويض . . كانوا يلاحقونه ، وكان بلا قانون عمل ، بلا حماية . . وزوجك الذي مات ، ماذا دفع لك صاحب

الشغل بعـد موته ؟ يكفي .. لا لتذكريني باولادي ، لن ابكي لاجلهم مثل النساء ..

قالها منفعلاً ونهض . كان يبدو الضيق عليه من تكرار الاسطوانة ، ولا يريد تقديم تبرير او اعتذار لأحد. وامسكت ام بشير عن الكلام هنيهة لتتخلص من وقع الكلمات . انها ليست ضد خليل ، وكانت تريده فقط ان يتكلم ، ان ينفس عن صدره ، ولكنه عنيد كتيس ، وجباراً كثر من اللازم . فياض ليس كذلك . وجوزيف يأخذ ويعطي ، والارض الواطئة تشـرب ماءها وماء غيرها ، اما خليل فيغلق باب الحديث بسرعة ، الخوري نفســه يتساهل ويقول : « هذا الزواج غير ممكن » وبعد كلمتين يصير ممكناً ، وخليل لا يتساهل ، لا يشكو ، لا يظهر عليه .. ولو جاءه ضيف في هذه الساعة ، في هذه الساعة بالذات ، لأبتسم له ، وأقنعه انه بخير ، وان كل شيء على مايرام ! .

وقالت له وهي تهم بالانصراف :

- لو كنت لا اعرفك لقلت انك بلا قلب ..

فتطلع اليها وقال :

- القلب في الصدر لا على الشفاه .. لا تغيري رأيك في .. المجي لنـــا عن عرس .. سنتساهل بالاسعار .

فتساءلت في نفسها :

ـ عرس ! ؟ و في مثل هذه الحال ؟

واضافت في شبه تاكيد :

ـ مئة عرس ايضاً .. أقسم انه يشترك في المظاهرات بنفس السهولة التي يشترك فيها بالاعراس .. أدمن ابن اختي على العذاب !

ـ ١٢ ـ

معمل المسامير درأ عن فياض الشبهات ، فهو يزعم لأبي روكز انه ينتظر اوراقه التي سيرسلها ابن عمه من البرازيل. وحين يغيب للتمويه يدّعي انه كان في البرج او رأس بيروت أو الدورة ، ولم يكن ، في الحقيقة ، يغادر « كرم الزيتون » .. والخطر الوحيد كان من جانب سركيس ، فيما لوتطفل عليه بالاسئلة والسهرات ، ومن حسن حظه ان هذا كان مشغولاً بـ « أفعاه » .

وحين قُرع بابه هذا المساء اجفل ... أخفى أوراقه ، وشد أعصابه حتى لايبدو عليه أي ارتباك . وفي اللحظة التي انشق فيها الباب سمع هذه الصيحة :

ـ ارفع يديك !

وارتعش وتراجع ، ولكنه لم يلبث ان هتف فرحاً ومدهوشاً :

ـ انت !؟

كانت هذه ام بشير ، وقد اجابت ضاحكة :

– ومن كنت تظن ؟

– اي شخص الا انت .

– ولماذا ؟

– لانك لاتعرفين مكاني (وداری امتعاضه وتابع :) كنت أنوي الاتصال بك ، وها انت سبقت .. اهلاً ..

– ومن قال انني لاأعرف مكانك ؟ لقد حرصت على عدم الحضور ، وعلى عدم اخبار أحد ، ومن اجلك تحملت الكثير .. ابوخليل يعتبرني مسؤولة عن اختفائك ، وشريكة فيه ، وخليل يلح علي لأبحث عنك ، وجوزيف كذلك . مجانين ! أم بشير طفلة ! لا .. اطمئن .. خبرني عنك . هنا تعيش !؟

– كما ترين .

– هنا تنام ! ؟

قالتها وخفقت براحتيها على خديها ، واجالت بصرها في الغرفة العارية ، وقالت :

– وتقضي كل وقتك فيها ؟

– لا ، أقضيه في الطابق العلوي .. هذه غرفة الخادم !

قالها وضحك وهو يقدم اليها الكرسي الوحيد عنده ، ويجلس قبالتها على طرف الخوان .

– وماذا تشتغل ؟

– في معمل المسامير .

ـ محاسب ؟

ـ عندنا لاتوجد محاسبة .

ـ مراقب ؟

ـ ولا مراقبة .

ـ عامل اذن ؟

ـ نعم (وبسط لها كفيه الخشنتين) عامل في قطع المسامير ..

ـ والعمل صعب ؟

ـ مثل العمل في البناء .. الصبر والتعود .. وبعد ذلك يهون الأمر .

ـ آه . استاذ ويقطع المسامير ؟

ـ استاذ ويظل بدون عمل حتى يموت من الجوع .؟

ـ ولكنك كاتب ..

فحاول افهامها أن الكتّاب يعملون أيضاً كي يعيشوا ، لكنها لم تقتنع . « استاذ ويقطع مسامير ؟ عكروت يا زمن ! » ام بشير لم تكن تتصور هذا ، أبداً لم تكن تتصوره . قررت فورا أن تخفي عنه وضع خليل . هي الضاحكة عبست لمرأى الوكر الذي يعيش فيه . وقد عجبت كيف يرضى بهذا الوضع، ولاحظت، وهي تتفرس فيه ، شعرات بيضاء في فوديه ، وظلال اولى لغضون تتشكل في جبينه فأسرّت : « لقد كبر ! . بسرعة كبر ! » وقالت في

نفسها : «آه الحياة! أنها لتبدو غيرمفهومة أحياناً ». حين حملت العلم في اضراب عمال الريجي كانت تظن ان ذلك الاضراب كل شيء، وان الدنيا بعده ستكون بخير .. ولما لم يأت الخير، راحت تتساءل : « متى يأتي ؟ » ومنذ عشرين عاماً وهي تكرر السؤال ، ومنذ عشرين عاماً لاتجد الجواب.. الاضراب ذاك ذكرى بعيدة... ولكنه بالنسبة اليها نيشان غير منظور ، وهي تحترم هذا النيشان ، وتريد الوفاء له ، ولكن الى متى يتعذب الناس ولا يأتي ذلك اليوم الذي يتحدثون عنه ؟ واذا كانت هي ، بحسب احساسها، تحمل نيشاناً ، فكم نيشان يحمل خليل وفياض وامثالهما ؟ وماهي ، بالمقابل ، فائدة هذه النياشين اذا كانت عائلة خليل جائعة ، وفياض ينام في بئر كهذه .؟

قدم اليها فياض كوب الشاي قائلاً :

ـ لاتحرقي اصابعك .. ليس لدي صحن .

ـ اصابعي محروقة خلقة .. الشغل احالها الى عيدان !

(وابتسمت لتخفف عنه واردفت) قل لي، كيف تفعل اذا زارتك آنسة ؟

ـ قبل التفكير بزيارة آنسة ، هل هناك آنسة ؟

ـ اوانس لو اردت (ونظرت في الغرفة وقالت) اما الآن فالمسألة صعبة .

قال فياض ضاحكاً :

– إلا ان تكون الآنسة عمياء القلب .

– عمياء أو مفتحة .. انت لا تؤاخذني ، اغلقت الباب .. زواجك صار من رابع المستحيلات .

– لأني فقير ؟

– لأنك مجنون كما قالت أم خليل ..

– المجانين اولاد ناس ايضاً ، ويستحقون الشفقة .. فهزت رأسها وقالت بأسى :

– وأي شفقة !

وخرجت من عنده وهي تتساءل : «هل ادمن فياض ، مثل خليل ايضاً ؟ » ولكنها سرعان ماقالت :

– خليل لا يشبه أحد .. فياض مازال طرياً بعد .

– ١٣ –

نسي ابو روكز محنة الزجل وسوء السمعة التي جلبها أبو شحادة للضيعة في يوم سيامة ابنه شماسا . وصول اخته من فنزويلا شغله عن الجميع ، فهو يلبس بدلته من الصباح ، ويأخذ « مرين » معه ، او يذهب بمفرده ، ويقصد بيت اخيه حيث تنزل اخته ، فيقضي النهار كله ، وقد يقضي السهرة أيضاً ، في حديث عن لبنان ، وفنزويلا ، والعائلة ، والأيام ، والمعمل اذا سنحت الفرصة .

ورغم الشوق الذي لم يبتل للاخت العائدة بعد اربعين عاماً، فان انزعاجاً خفيفاً راح يستشعره من يوم الى يوم ، اذا ذكر ان اخته في بيت اخيه وليس في بيته « ليكن اخي صاحب منشرة وصاحب مال ، اما أنا فمخترع ! » وقال لفياض ذات صباح :

– تعبت من الذهاب والمجيء ، وتعب اخي من اللت والعجن .. يقضي يومه وهو يتحدث عن المنشرة ، كأنه يتحدث عن جنرال موتورز .. أنا ساكت .. سأترك المعمل يتكلم !

لم يجب فياض .. ربما كانت المنشرة لاشيء، بيد أن المعمل، مع الاحترام لأبي روكز ، لاشيء ايضاً . الخدعة التي يصنعها لصاحبه هي كل اهميته ، ولعلها ان تكون اهمية كبيرة ، ولعل بعض الناس ، فيما تبقى لهم من رحلة العمر ، يحتاجون الى خدعة من هذا النوع ..

وقال ابو روكز لفياض في صباح آخر :

– اليوم يومك !

كانت عيناه الصغيرتان ، المتعبتان ، تنشطان وتومضان ، وحماسة فتى تتلبس جسمه وروحه معاً، وقد زايلته نزعته الساخرة، فهو جاد ، يقظ ، يتحدث عن الاشياء بوثوق وقلق متمازجين :

– لي صديق كان في « النورك » فسألته عن الاميركان فقال : هؤلاء قوم عقولهم في عيونهم .. عندنا يقولون : عقولهم في اقفيتهم .. المهم ، يحكمون على الاشياء من الظواهر .. واخي

صارت من هذا النوع ، فاذا توقفت الماكينة مرة واحدة امامها ، عجزت الملائكة عن اقناعها بقيمتها .. فهمت ؟

– لن تتوقف انشاء الله .

– اذا لم تنتبه توقفت .. انت لم تتمرن عليها كفاية .

– اقول لن تتوقف .. كن واثقاً .

وحوالي الظهر وصلت أخته . استقبلتها « مرين » بزغرودة خنقها ابو روكز في حلقها .. « الزغاريد للريف لا للمدن .. للمزارعين لا لرجال الصناعة ! » . وكانت أم شحادة تساعد مرين في المطبخ ، وتطوع بو شحادة ليخدم على المائدة (بعد ان اعتذر لأبي روكز وصالحه) وقد اشترط عليه ألا يفتح فمه ، فقال بو شحادة :

– ردّية واحدة يامعلمي .

– ولا نصف ردّية .

– عبارة ترحيب نثرية .

– لا نثرية ولا شعرية .. سد بوزك وبس !

فاعترضت « مرين » من المطبخ :

– لا تقس على بو شحادة .. عنده ردّية حلوة .

– من نوع الطابلات ؟

– لا .. من نوع الكراسي (قالت ام شحادة وهي ترق الكبة) .

فأقفل ابو روكز الموضوع بجزم :

ـ لا طاولات ولا كرامي .. صناعة ، الكلام محصورة في الصناعة !

وبعد الغداء ، وقبل ان تغادره شقيقته ، تلطفت فسألت عن المعمل ، فدعاها الى الزيارة ، ووقف معها ، كتمهيد ، على الشرفة ، لتلقي نظرة على منطقة المعمل ، وتسمع صوت الآلة ، يدوّي في رتابة نغمية حرص على شرحها ، اظهاراً لما فيها من دقة ، استطاع ، برغم افتقاره الى الوسائل ، ان يضبطها ، فجاءت «لاتفرق ميليمتراً على مليون ! » .

وفي باحة المعمل توقف مرة اخرى ليطلعها على « الاقسام الخارجية » واشار الى غرفتي سركيس وفياض فقال : « مساكن العمال » ثم دعاها الى الدخول قبله الى المعمل ، حيث كان «القشاط» الكبير ، الطويل ، يملأ نصف الغرفة ، ويدور مع محور المحرك في هدير وطرق متواصلين .

وأدرك فياض ، من انسداد النور الخارجي ، ان الضيفة المنتظرة صارت في الباب . كان عليه . بحسب تعليمات ابوروكز ، ولضمان دوران الآلة ، ألا يرفع بصره عنها ، وعندما حيته الزائرة ، اكتفى ، بحسب تعليمات ابو روكز أيضاً ، ان يحني رأسه لها ، وسمعها وهي تصيح بشكل مباغت دون مقدمات :

– تقبر أختك يامسعود !.. تسلم يدك يا اخي ..تسلم...

فتمتم ابو روكز وقد تأثر جداً :

– لولا مرض القلب ...

وعادت هي تقول بصوت عذب مغناج رغم الكهولة :

– برافو يامسعود ! برافو ! ولك ايش هذه النباهة ياخي !؟ انت مخترع !؟ مخترع كبير ! سجلت الاختراع على اسمك !؟

اومأ ابوروكز برأسه ان لا ، فابدت دهشتها :

– وليش !؟ الا تخاف ان يسرقوه ؟ هذا اختراع ، لو كنت في اميركا اغتنيت .. ماذا قالت الجرايد ؟

– لم اطلع الجرايد عليه بعد .

– يه ، يه ، كيف اهملت الاعلان ؟ الدعاية كل شيء ، الاعلان نصف النجاح ، ثلاثة ارباعه .. عندنا ، في اميركا ، الاعلانات تملأ الصحف ، تغطي برامج الراديو والتلفزيون ، توزع على المصلين في الكنائس ..

– حملة الدعاية تحتاج الى مال (قالها مذكراً اخته بواجبها الاساسي) .

– معك حق .. تقبر اختك ما انبهك .. برافو !. برافو ياخي ، موفق ..

ولسبب ما ، لعله الرغبة في الدخول الى الحديث المالي ، او الخشية من توقف الآلة ، تقدم ابورو كز واغلق المفتاح الكهربائي متوجهاً بالكلام الى فياض :

– استرح قليلا يابني (وملتفتاً الى اخته) اقتربي من فضلك .. انظري ، هذه هي القطعة الاساسية في الآلة .

قالها وغمز خفية ، ففهم فياض ، وبادر الى شارة صغيرة ، هي عبارة عن ارزة لبنان ، صممها وسكبها ابورو كز استعداداً للزيارة . وتقدم فياض ، بعد ان مسح يديه ، وعلقها على صدر الزائرة ، وترك الشرح لمعلمه الذي قال :

– شعار المعمل !. نقدمه للضيوف والزوار .

أمسكت بالارزة ، ورفعتها الى اعلى ، واحنت رأسها قليلا ، وقبلتها ، وبكت .. وعندئذ بلغ التأثر أشده بابي رو كز ، فادار وجهه ليخفي دمعة الشكر والسعادة على هذا التقدير ، واصبح الجو عاطفياً اكثر مما يحتمل ، فتعانق الشقيقان ، وانتهت الزيارة في جو حار جداً جداً ..

* * *

بعد أن ودعت الشقيقة ومضت عاد ابورو كز الى المعمل. كان فياض يشتغل فلم يلتفت اليه .. فاقتعد كرسياً ، منتظراً ان يفاتحه فياض بتعليق ما على الزيارة ، ولما لم يجد منه اكتراثا قال له منرفزاً :

– ليش ساكت !؟

– اشتغل .

– دين الشغل ، اوقف الماكينة وتعال .

امتثل فياض لطلب المعلم ، فجاء وقرفص قربه ، وقدم اليه سيكارة حرص على اشعالها بنفسه ، ثم سأله :

– كيف شفت ؟

– مبروك .. تقدير رفيع وفي محله (قالها وتذكر شقيقة معلمه المتينة البنيان ، العامرة الصدر ، المثقلة بالحلي والاصباغ ، واضاف) صاحبة ذوق ..

– يسلم فمك .. حزرت الذي في قلبي ، صاحب الذوق لايموت .. شف « مرين » نزلت مرة وسألت ماذا اخترعت او ماذا اشتغلت ؟

– المفهوم الصناعي ضعيف عندنا بعد .. وخاصة عند النساء ..

– في هذه معك حق .. ولكن الذوق مسألة ثانية .. شف سركيس (ولم يقل : الحمار !) هذا رجل ايضاً ولا يهتم ..

وانقضت فترة صمت ، تلمظ ابو روكز خلالها فرحته وقال :

– لم افاتحها في ذهابك الى فنزويلا او البرازيل .. ملعون والد الغربة .. اذا ضمنا التمويل الكافي صار المعمل بحاجة الى

عشرات العمال .. وانت ، لاتقل ابو روكز بجلط ، انت بمثابة ولدي.. احببتك ، من الله احببتك، وستكون المشرف على المعمل، مديره ، قل انشاء الله .

وقال فياض وهو يداري ابتسامة ود وشك :

– انشاء الله .

– ١٤ –

تعالى النقر الخفيف على الباب ، فادرك فياض ان ام بشير هي الطارقة . وقد بـ... وهو يراها مقطبة على غير عادتها ، حزر ان خبراً سيئاً وراءها .

– طلبوك في بيت خليل .

لم يسألها: من ؟ عرف ان الملاحقة مستمرة .

– وماذا تنوي ان تفعل ؟

– لاشيء .. المهم الا يعرفني احد ، ولا يأتي لزيارتي احد (وبعد تفكير) هل اخبرت احداً بمكاني ؟

– انا !؟ معاذ الله .

نظر اليها مرتاباً، فتحاشت وقع نظراته «فعلتها ـ قال في نفسه» لم تقو على كتمان نبأ عثورها على مكانه ، فقالت للآخرين ، واوصتهم بالكتمان ، وبدورهم قالوا لغيرهم واوصوهم كما اوصتهم . قال فياض

– كان يجب الا تأتي الي .. لماذا اخبرتهم بمكاني ؟

ازداد تقطيب ام بشير .. ابداً لاتصدق ان الذين قالت

لم يفعلونها ، وفياض نفسه لا يصدق ، ومع ذلك فكل شيء جائز .. كما زل لسانها يمكن ان يزل لسانهم .. قالت في نفسها :

ـ ماذا فعلت ؟ أأكون السبب ؟ وخليل ؟ وابو خليل ؟ والمودات ؟ ونيشان الاضراب ؟ والدماء ؟

انها مستعدة للتفكير عن خطيئتها .. شهمة وباسلة، وذكرى الاضراب ذاك ، لا يمكن ان تنساها او تخونها ، ولئن وقع شيء لتنتقمن بشكل رهيب من الواشي .. لكنها لا تصدق ان شيئاً يقع ..

ـ ماذا افعل ؟ سألته بنبرة اسف .

ـ لا شيء في الوقت الحاضر .

ـ هل اشيع انك سافرت ؟

ـ لا ، ابلغي خليل انني بخير ، ولكن لا تقولي له اين انا .. اذا عرف مكاني جاء لرؤيتي ، وهذا سيء في الوقت الحاضر ، وخاصة بعد ان سألوه عني ، وقد يكون تحت المراقبة ، ومن الافضل ابعاده عن القضية ، فلا تدليه على مكاني .

ـ معاذ الله !

وابتسم ، فابتسمت ... واذ ادركت مغزى ابتسامته قالت : « اتكلم عن جد هذه المرة .. صدقني . »

وربت فياض على كتفها وقال :

ـ صدقت .. انا اثق بك تماما .. اذهبي بسلام وسلمي ..

ولما ذهبت دخل فراشه واطفأ الضوء ، محاولا ان يستجمع افكاره التي شتتها مباغتة الخبر .

قال لنفسه « لاداع للقلق ، فلأحاذر ان اثير شكوك ابي روكز ، ولأمض في حياتي كما هي ، وليكن بعد ذلك ماهو كائن . »

— ١٥ —

في صباح اليوم التالي كان الذي هو كائن ..

فيما فياض يعد كوبا من الشاي ، وقف ابوروكز في بابه ، وفي فمه كلام .. تعلقت انظاره في الكتب والاوراق الموضوعة على السرير ، تلك التي لم يضعها فياض تحت الفراش بعد ، وانتقلت منها الى سائر اركان الغرفة ، ثم استقرت على وجهه في محاولة لاستقراء العينين ، ولم تلبث النظرات ان ارتدت وسقطت على العتبة .

ابو روكز يداري حيرته : يتكلم ام لا ؟ ..

وفياض مطرق ، يحاذر ان تلتقي العيون فينفضح السر ، ويتظاهر باعداد الشاى وهو مشغول عنها بالكلمة التالية التي سينطق بها ابو روكز . قال له :

ـ تفضل .. ادخل ..

ـ عشت .. سأعود الى الفراش .. لم انم البارحة .. دق

قلبي بشكل مخيف ، حسبت ان الضوء لن يطلع علي .. وكنت مفكورا .

- خير ..

- سألني جماعة عنك .. عن اصلك وفصلك .

قال فياض في سره : «عرفوا مكاني !»، وتظاهر باللامبالاة.

- ماذا يريدون ؟

- لم يقولوا .. سألوا عن المستاجر الجديد وكنيته .. قلت لهم : اسمه سليمان ، اما كنيته فلا اعرفها .. ولم يصدقوا : «هل يعقل انك لاتعرف اسم المستاجر عندك ! ؟» حسمتها معهم : « لاأعرف .. » وفي الحقيقة لاأعرف ، وعدتهم بالمعلومات المطلوبة اليوم ، بعد ان قلت لهم انك غائب عن البيت امس .

انتهت اقامتك يافياض .. اسرع في مغادرة المكان بقدر ماتستطيع . ابو روكز صديق ، اخ كبير ، لبناني حقيقي ، يرعى حق الجار وحرمة الخبز والملح .. اشكره في قلبك وكفى .. لاتعطه المعلومات المطلوبة ، ولا تؤخره عندك ، فانت في سباق مع الزمن .. كل دقيقة لها قيمتها ، وكل كلمة لها معناها ، فتجنب الابطاء وكثرة الكلام .. ترشف الشاي .. تظاهر بأنك تتهيأ للعمل ، وانك نسيت الموضوع الذي جاء لاجله ..

قال ابو روكز :

- ماهي كنيتك ؟

ـ رفتول ..

ـ واين هويتك ؟

ـ في الحقيبة .

لم يصدق ابو روكز ، لكنه خجل أن يطلب الهوية . سأل :

ـ هل عندك اشياء ممنوعة ؟

ـ مثل اي شيء ؟

ـ كتب مثلا !

ـ ابدا ..

ـ اذا كانت موجودة يمكن اخفاؤها عندي .. لاأعرف بالضبط مايريدون منك ، ولكن قد يعودون .. وفي كل الاحوال انا هنا .. اعتمد علي ..

ـ شكرا ، ليس عندي ما اؤاخذ عليه ، وليس لي علاقة بأي شيء .

ـ اذن اعتبر المسألة منتهية .. لعله خطأ ... انا صاعد لانام .

ـ نوم الهناء ..

قالها فياض من جماع قلبه لانها الكلمة الاخيرة بينه وبين ابي روكز .. لن ينساه ابداً .. لن ينسى معروفه وطيبته وغيرته ، ولكنه ، في الآونة ، لايملك للوفاء حتى كلمة الشكر او الوداع .. ظروف !!

عينه ، من داخل الغرفة ، تابعت الرجل في انصرافه عن

المعمل ، ولما ايقن انه دخل بيته لينام ، وسمع باب الدار يغلق وراءه ، بادر الى كتبه واوراقه فوضعها في الحقيبة ، وبدل ثياب العمل ، ولملم اشياءه القليلة ، ثم استطلع ، من شق الباب ، الطريق الذاهبة الى الوادي ، فلم يجد احداً ، وعندئذ خرج حاملاً حقيبته ، واغلق الباب وراءه وذهب في مشية طبيعية .

انحدر الى قاع الوادي ، وسار باتجاه سن الفيل ، ومن هناك ركب اول تاكسي صادفه وقصد بيت جوزيف ، فنزل من السيارة قبله بجادتين ، وانعطف الى زقاق فرعي ، ومن هناك مشى هادئاً الى البيت الذي يعرفه ، والذي استقبلته هناء على عتبته صائحة :

— استاذ !

واستأذنها قائلا :

— يمكن ؟

فأفسحت له حتى دخل ، واذ ذاك سألها :

— هل من غريب عندكم ؟

— ابداً . .

— وجوزيف ؟

— في الشغل . .

— سانتظره حتى يعود، ولااريد ان يعرف احدبوجودي، فهل تسمحين ؟

— وكيف لا ؟ انت لاتعرف معزتك عندنا . . تعتبر

نفسك غريباً ، وتتصرف بحذر ، ولطف .. يارب !. كم زعـــل جوزيف على ذهابك ، وكم تحملت بسببه ..

- هاقد عدت .

- وهل ستذهب مرة اخرى ؟

- من يدري !؟

- كيف لاتدري ؟

فنظر اليها شاكراً حرارة استقبالها ولم يقل شيئاً .. «الانسان احياناً ، لايدري .. الظروف هي التي تدري » .

- ١٦ -

في سريره ، حيث يضرب القلب بعنف منذراً وهادماً ، كان ابو روكز لايعلم شيئاً مما جرى .. افلح فياض باقناعه انه انسان عادي ، معروف الاسم والكنية ، ولا بأس عليه من اي استفسار أو تفتيش . ظن ابو روكز ان هناك خطأ فقال في نفسه : « أمس لم أستطع الرد ، اما اليوم فلن اغفر لهم وقاحتهم . لقـــد رفضوا تصديقي بأني لا اعرف كنية المستأجر الجديد . قالو لي : « كيف تؤجر بيوتك اذن ؟ » وهذا بيت ؟ هيهاي ، تريدون ان اكتب عقداً لهذا الوكر ؟ »

- الا تعرف من يسكن عندك ؟

- لا يسكن عندي إلا كل طيب ..

ـ حسناً .. غداً نرى ..

ولسوف يرون اليوم ..

سيقول لهم : « اسم المستأجر سليمان رفّول ، وتفضلوا شاهدوه ، ومع السلامة .. » لن يأخذ ويعطي معهم .. صحته لاتساعده ، وقضية المعمل تشغل كل تفكيره ، فماذا بعد اعجاب شقيقته بما رأت ؟ وهل يؤثر عليها شقيقه صاحب المنشرة ؟ والتمويل المنتظر ، تفتح به اعتماداً أم تعطيه شيكات؟والمعمل ، بعدالتمويل ، ينقله الى منطقة اخرى ام يبقيه حيث هو ؟

هذا القلب ! استرح يا ابا روكز استرح !. نم .. دع التفكير بالاختراع والصناعة .. انت متعب ، وقد تموت اليوم او غداً ، ستموت وشيكاً ، فما الفائدة ؟ زمن الشباب ، يوم كنت « تعصر الحديد » مضى ولن يعود .. أبداً لن يعود .

« بلى سيعود .. لا أريد الشباب ، ولكن الصحة .. لو انصلح هذا القلب . لو هادن سنوات فقط .. الآن ، وقد بدأ الأمل يورق .. كيف يورق الأمل وتذوي الصحة ؟ والمشروع ، كيف التخلي عنه وفي ذلك تخلي عن الحياة ؟ » .

عرق بارد على الجبهة .. عرق بارد على الجبهة .. التسارع في القلب هو السبب ، والنوم يهرب .. النوم الهنيء ذكرى بعيدة .. ان يتمدد في الفراش ،ويستسلم للدفء والاحلام، ذلك من الماضي، ولا ضرورة للحسرة .. يجب ان يظل مستنداً بنصف جذعه على

السرير ، وان يرتضي النوم المقتطع ، ويوقف دماغه عن التفكير ..

لكن الدماغ لا يقف . . نداء يأتي من الاسفل .. من غرفة المعمل ، فالكائن الذي اوجده ، وخلع على برودته حرارة من حرارته ، لا يزال بحاجة اليه .. ولا يزال هو قادراً على مده بالحرارة .. قطع الحديد تلك ليست حديداً .. تتحرك الآن ، وتتكلم ، وتشهد بحياتها على انه معطيها الحياة .

بدا ، وهو ينحدر على خاصرة الوادي ، انساناً مدنفا ، يتحرك بفعل جاذب غير منظور . كان في ثياب النوم ، وقد ارتدى معطف البيت فوقها ، ونزل وفي نفسه امر .« سأقول لسليمان : اترك غرفتك وتعال اسكن احدى غرف البيت » .. سينزله من نفسه منزلة الولد ، شريطة ان ينزل هو الآلة من نفسه منزلة الابن .. فاذا جاءت سفينة الموت ، ترك على البر انسانا يعنى بمخلوقه ويضمن له البقاء والنمو .

ومخلوقه هامد .. لا تصدر عنه اية حركة .. حسب ان عطلا طرأ عليه . تحرك ، نشط ليعالج العطل . ولكن المعمل ساكن ، لا أثر لاحد فيه . تحول عنه الى غرفة فياض ، وقرع الباب ، ولما لم يأته جواب ، وكان المفتاح من الخارج ، اداره وفتح الباب ، فهبت عليه من الداخل لفحة باردة ، وطالعه خواء .

كان الخوان ، المستعمل سريرا ، كعهده به كل يوم ، بفراشه وغطائه.. و كذلك كان بابور الغازوابريق الشاي والفناجين. فياض وحده غير موجود ، اما الحقيبة التي كانت تحت الخوان فلم يلحظ ابو روكز اختفاءها .. ومع ان غيبة فياض ، بدون علمه ، لم تخف عليه ، ولم تخف صلتها بالسؤال عنه ، فقد توهم انه ذهب لمكان ما وسيعود .. ليأخذ اغراضه على الاقل !

« خدعني ؟ » تساءل .. واستعرض كيف جاء و كيف استأجر وعمل ، فلم يجد دليلا على الخداع . لم يكن يتكلم كثيرا، ولم يقل له سوى انه ينتظر اوراقه ليسافر الى البرازيل .. كان طيبـــا ونزيها لا تظهر عليه شكاة ولا موجدة .. ولولا بعض التماعات الذكاء ، لكان بسيطا ساذجا ، فهل كان ذلك كله تصنعا ؟

حدثته نفسه أن يدخل ويفتش الغرفة علّه يقع على السر ، بيد أنه طرد الفكرة فوراً وأحس بالخجل .. الشيء الوحيد الذي استغربه هو التكتم الذي لا موجب له . « هـل شك بي ؟ مخطىء والله ، ما كنت لأسلمه ولو سلمت نفسي . واذا لجئوا في طلبه كنت أرسله الى الضيعة ، وفي الضيعـــة لا يطال .. مت يا أبا روكز ؟ باطل ! لسوف أعاتبه علىهذا ، وأقول له، بالقلم العريض، رأيي فيه .. اذا كان مجرماً فلن أسامحه (وبعد قليل) لا .. هـذا غـير ممكن ، مستحيل .. لا مجرم ولا محتال .. سيامي !.» ونفخ

وشتم : « لعنة الله على السياسة !. ولد مثل الحبق ، كان له مستقبل في الصناعة ، تقتله السياسة ! ؟ » .

توقف في الباحـــة دون سبب . راح يحك ذقنه بعصبية ، ويتطلع في كل الاتجاهات : قلبه مريض ، ومعمله متوقف ، والشخص الوحيد الذي فهمه راح ، فماذا لو ان شقيقته قدمت له غداً المال اللازم ولم تجد لديه الاستعداد الكافي ؟ اللوحة التي رسمهـــا خياله للمستقبل كان فياض جزءاً منها ، وفقدان هذا الجزء فقدان للجانب المهم ، فهل يعيـــد رسم لوحته ؟ من المحـــال ان ينجح ، المزاج اللازم غير موجود ، الكلمة الطيبة ، التي لم يسمعها من احد ، سمعها من فياض .. سمعها بصدق ، بدون مداجاة ، فشكلت بالنسبة اليه انتعاشاً روحياً ملهماً بعث فيه الرغبة في الاختراع . قال في نفسه : « سليمان لم يكن عنصر عمل فقط .. هذا يمكن توفيره في غيره » .

ولكي يطرد شجونه ، كان لا بد له من مخلوق يقص عليه القصة ، وينفض عليه همومه ، ولما لم يكن ثمة غير « مرين » فقد احس بالاسف لانه لا يستطيع ان يقول لها شيئاً ، لانها لا تعرف ان تشاركه في شيء . وفي حنق قال : « بقرة عندي لا زوجة ! » ، ثم استدار وصعد الى غرفته ، وبدون كلمة دخل فراشه واراح جذعه على مسند السرير ... واخذ قلبه يخفق بسرعة وقطرات من العرق البارد تتشكل من جديد على جبينه المتقع .

* * *

عند العصر خيل اليه انه يسمع طرقات الآلة في المعمل .. غادر فراشه غير مبال بالمرض، وخرج الى الشرفة واطل: لاصوت! «اين هو يا ترى !؟ » .

تذكر لقاءهما الاول « فصيح ! ـ قلت له ساخراً ـ وسألته يوم استأجر الغرفة ، من اين تعلمت هذه الفصاحة ؟ فقال : والذي علمني فك الحرف . لا ، ليس فك الحرف وحده .. ولد متنوّر .. ومن يدريك انه خريج جامعة !.. وانت يابو روكز ، كنت تستخدمه كأجير ، ومرة اهنته ، يه ، يه ، يه كيف عاملته هذه المعاملة !؟و كيف صبر هو عليها ؟ المثل يقول : ايش صبّرك على المر؟ قال الذي امر منه ، والمسكين صبر لانه في ضيق ، لابد انه في ضيق .. اذا عاد الليلة سأعتذر اليه ، نعم سأعتذر اليه .. الولد ابن عائلة ، مؤكد ابن عائلة ، ياحرام على اولاد العوائل ، الله لايذل عزيز. .ولك كيف نفد مني؟اربط الشيطان بشعرةوربطني من ذقني .. تظاهر بأنه عامل.. تأمل! حط به الزمن فاشتغل في معمل.. وماذا في المعمل ؟ شرف ، ولا يشتغل فيه الا الشريف » .

تدثر ، ليلا ، بمعطفه السميك ، وجلس في المعمل يترصد الباب ، قال في نفسه : « سيعودَ لينام، او ليأخذ اغراضه ، وعندئذ ادخل وراءه . واتحدث معه وافهم منه.. هذه المرة لن يفلت مني، تمثيله لن يفيده ، انا الذي سأمثـــل .. سأقول له كنت اعرف من

انت .. ابو رو كز هو ابو رو كز !. دعنا نتفاهم ولك عندي الحب والكرامة .. ولكن بماذا اناديه ؟ سليمان ؟ لا ! يه،سليمان لم تعد تليق ، خواجه! وماذا فيها ؟ الخواجات احسن منه ؟ فشروا !» .

عند اشتداد الظلام فتح باب الدار فجأة .. تحفز ابو رو كز لمناداته .. لكنه قـــال في نفسه : « اتركه يدخل ، اعطه فرصة لاشعال الضوء والاستراحة حتى لايظن انك كنت تراقبه ، وبالمقابل لا تغفل عنه .. ما هذا ؟ نقر على الباب ؟ ليس هو اذن » .

خرج ابو رو كز من المعمل وسأل :

ــ من ؟

اجفل الطارق واجابه صوت انثوي :

ــ انا .

ــ من انت ؟

ــ ام بشير ..

فاشعل ابو رو كز الضوء وقال بلهجته الساخرة :

ــ تشرفنا !.. وماذا تريدين ؟

ــ المستاجر ..

ــ ما اسمه ؟

ــ وما دخلك أنت ؟

ــ يه .. أنا صاحب البيت ..

– والنعم ..

– وحضرتك ؟

– خالته ..

قال أبو روكز في نفسه : «عال! امسكنا طرف الخيط» وتقدم منها فحياها ، ثم اشعل ضوء الغرفة وقال لها :

– تفضلي ياست .. لي معك حديث ..

تفرست فيه في العتمة .. ثم دخلت وهو وراءها ، ولما أخبرها ان الذي تسأل عنه اختفى ، عضت على شفتها وسكتت .. كان واضحاً انها تشك فيه ، ولكي يجعلها تتكلم ، قال لها : «لا تخافي عليه ، سألوا عنه فأخبرته ، وعندئذ «شمّع الخيط» [1] .. ومن الصباح وأنا انتظر عودته ، لا بد ان يعود .. اقعدي .

قالت أم بشير :

– سأذهب ، غداً اعود فأراه .. قل له من فضلك ان يمر علي ، ويأخذ ثيابه للغسيل .

قال ابو روكز وهو يوقفها عن الذهاب :

– اسمعي ! مسألة غسيل الثياب هذه لم تخرط عقلي ..والله لا تذهبين حتى اعرف عنه شيئاً .. ابن اختك من صحيح ؟

صوب اليها نظرات محقق يرغب لفوره في كشف السر ،

(١) يعني هرب .

فأرعبها واغلق فمها بمفتاح..رجل هو لا شك ،لكنه، اذ يأتيها بهذا الاسلوب ، يجهل من هي .. ايظنها وقعت في الفخ؟ أم بشير لا تتكلم إلا حين تريد .. اللطف وحده يجعلها تتكلم ، اللطف وحده ، ولا شيء سواه يا ابو روكز .

رازها جيداً ، فالفاها هادئة ولا مبالية ، وفي عينيها شراسة لم تكن منذ هنيهة .. « تجهل من انا ولا تريد ان تتكلم .. ربما تخاف أو لا تريد » .

وبعد لحظة صمت أضاف : « ماذا يهمني ، تكلمت ام لا ؟ » .

كان الاجهاد قد نال منه ، فلوى عنقه ، في نوع من يأس ، وقال لها وهو يفتح الباب :

ـ مع السلامة .. ظني اني لن أراه بعد اليوم ، فاذا زارك سلمي عليه ، قولي له : ابو روكز افتقدك كثيراً ..

استودعته وخرجت .. كانت مستعدة بعد عبارته الاخيرة أن تبقى وتزيد التعارف . قالت لنفسها : «أخطأت يا أم بشير..ربما كان ابو روكز انساناً طيباً .. ومن يدري !؟ وربما كان له اولاد، ولعل في عائلته من يصلح للزواج ، وها انت ، بحماقة ، قطعت صلة نشأت بمحض الصدفة ، وليس هذا من اصول المهنة ، ولا في صالح ارملة قد يضحك لها الحظ !»

اطفأ ابو روكز الضوء . وقفل الباب ، وصعد وئيداً على

كتف الوادي ، وقال في نفسه يذكر ام بشير « نسينا ان نقول لها شيئاً عن المعمل ، فربما كانت تعرف من يقوم مقام « سليمان » .

وبعد ان زفر تعباً ، أصدر على نفسه هذا الحكم :

ـ عاطفي أنا .. بخلاف اصحاب المعامل !

— ١٧ —

شغل فياض نفس غرفته السابقة في بيت جوزيف . وقد وجد نفسه ، منذ دخلها صباحاً ، شبه غريب على الجو النظيف والجدران البيضاء المستقيمة ، وطاولة الكتابة ، وكرسي الخيزران ، والنافذة العريضة بستارة من مخمل احمر .. كل شيء ، في الغرفة وخارجها ، كما تركه ، الا الراديو ، فهو في التصليح على الارجح ، ولهذا لم يسمع صوت عبد الحليم في البيت .

كان عليه ، هنا ، ان يظل في ثياب تتناسب ومظهر البيت ، وقد تضايق ، وافتقد جو الحرية الذي ألفه هناك ، حيث كان عاملا عند ابي روكز ، وجاراً لسركيس ، ورقعة طبيعية في ذلك الثوب العتيق كله .

وعلى ذكر ابي روكز تساءل : « ماذا يفعل الآن ؟ انقضى النهار ولم اعد . لابد انه يئس من رجوعي ، اما سركيس فلن يسمع بهربي الا بعد ايام ، وسيجدني « بطلا » لاني ذهبت

وخلصت من البهدلة ، وسينساني سريعاً .. وغيرهما لن يذكرني احد .. كنت مقطوعاً هنـــاك .. وربما سألت عني ام بشير .. فيا للمفاجأة التي تنتظر ام بشير !

استلقى على سريره وراح يحملق في السقف كما كان يفعل في بيت ابي خليل : كيف كان عليه ان يتصرف؟ ام خليل تقول عنه مجنون ، فماذا يقول لها ؟ بل ماذا يقول المرء لمخاطبه اذا كان هـذا لايفهم أفضل مشاعره ؟ الخروج على المألوف ، لويفهم في وقته ، لما عد خروجاً .. لقد اعتاد الناس السير في الطريق المفتوحـــة ، وكل الذين شذوا ، اعتبروا في البـدء مجـانين ، ثم كانت طرق كثيرة ...

« خليل! ياخليل! في حينا ذاك كنت المجنون الأول . كانوا يقولون : هذا الولد يناطح الصخر ! قال سنديكا قال ! وقبلك ، كما روى والدي ، تصدت امرأة في جبل لبنان لجمال السفاح وقـذفته « بترموسة »تنور يابسة فأعدمت ، وقال والدي: «مجنونة .. ايش نابهـــا ؟» فانكمشت امي ذعراً وقالت « الله لايلوّع قلب ام » وتجرأت فتاة على تقصير فستانها ووضع الأحمر على شفتيها ، فلاكوا سمعتها حتى بقيت عانسا ، وقالت نساء الحي : « الله لا يدخلنا في التجارب !» واحبت صبية شاباً ضد ارادة اهلها وذهبت معه ، فقال الجيران : خاطئة! وذبحها اخوها ، ومارست امرأة حريتها ورفعت الحجـــاب ، فعلت الولاويـل وكوفحت كالطاعون ،

وشرب ابن عمي سيكارة امام والده، فضربه بالعصا حتى أدماه، لا لأنه يدخن، بل لأنه يدخن امامه، ورقص والدي - وكان ثملاً - رقصة خفيفة امام جمع من الكبار، فهددوه حتى كاد يموت، لأن الرقص يجب ان يكون فقط على «الوحدة ونص»!.. مجانين.. كل هؤلاء مجانين.. كانوا يسيرون في طرق غير مألوفة.. كانوا ضحايا للطرق التي صارت مألوفة، وصار الناس يسلكونها دون تماثيل على جانبيها للذين فتحوها..

« انت يافياض لاتفتح طريقاً، لكنك تسير في طريق وعرة.. انت حجر ككل الحجارة التي رفضها البناؤون وصارت رؤوس زوايا.. امض في طريقك امض.. بدون زاد، بدون مأوى، بدون حب.. دع دينيز تحـــلم بالفارس كما في الكتب، لأنها لو رأتك في معمل المسامير لصاحت: « رباه! انه انسان عادي! » دع والدتك في حنانها العاجز، فانما والدك في ضلاله اكثر جرأة على الحياة منها، واذ تستشعر الألم تذكر انك واحد من ملايين يتألمون مثلك، ومثلك يسيرون في الطرق الوعرة ليشقوا طرقاً جديدة ».

نهض وسار في غرفته مهتاجاً. قادر الآن ان يرتكب خطيئة ضد «الناموس» وجريمة ضد «المجتمع». النمل، كما في الاسطورة، ثقب الجبل، وفتح فيه طاقة. وانت قادر ان تثقب جبل الاخلاق والعادات والأفكار. وكل مايلزمك صبر النمل ودأبه.. اصبر..

خليل قال لك اصبر .. وآه ياخليل على الصبر .. ارشدني من أي نبـع اغترفته ، من اي عطار ابتعته ، من اي ..»

نقر الباب ،فجلس فياض وقال : تفضل ! فدخلت هناء تسأله ما إذا كان بحاجة الى شيء ، فشكرها ، وعندها قالت :

ـ اسمع يا استاذ ! في المرة الماضية لم تكن صريحاً معي .. سألتك : مرتاح ؟ قلت : نعم ، وبعد ايام تركت البيت..جوزيف ضحك علي .. قال لي : انت غبية . لو كان مرتاحاً ماترك البيت.. انت السبب ، فهل هذا صحيح ؟

ـ ابداً .. ذهابي لاعلاقة له بك .

ـ انت لطيف يا استاذ ، لطيف جداً ، ولكني ازعجتك في المرة الماضية ، فقل لي الآن ، ماهي الاشيـاء التي تزعجك لأتجنبها ؟

ـ لايزعجني شيء ، صدقيني .

ـ يارب ! ازعجتك .. اعرف انني ازعجتك ، ولا اريد ان يتكرر الازعاج .

ـ اذا وقع ازعاج لفت نظرك اليه .

ـ ولماذا لاتلفت نظري اليه حتى لايقع .

سكت .. وجد افضل شيء ان يسكت ، ولكي لاتفطن الى ضجره ، ابتسم لها بعذوبة ، وحاول تغيير الحديث ، لكنهـا عادت تقول :

- اسمع يا استاذ ! جوزيف لايحتمل هـــذه الايام . يتفلسف .. يقول انني غليظة .

- مخطيء ..

- ويقول انني بشعة ..

- مخطيء ايضاً .

- قلت له هذا فضرب الطاولة وقال : وغبية !

- استغفر الله .

- وما رأيك انت .؟

- انت تعرفين رأيي .

صر المفتاح في القفل ، فصاحت هناء : جاء جوزيف !
وهرعت اليه تريد ان تثبت وجودها : احزر من عندنا ؟ ولما لم يجبها اضافت: الاستاذ ! فاندفع جوزيف الى غرفة فياض وعانقه .. قال كلاماً متقطعاً لشدة فرحه ، وبدا مهتاجاً لايدري مايفعل .

وبعد ان اوصى هنـاء على فنجانين من القهوة ، ذهب الى المكتبة وعاد يحمل جريدة وقال :

- هذه ، بين قصصك الـ Chef - d'oeuvre .. لاتسأل عن مدى اعجابي . بحثت عنك طويلا دون جدوى .. هل ابتلعتك الأرض ؟ اسمع ، لكي تكتب لنا قصة مثلها ، ينبغي ان نترك لك البيت .. سارسل هناء والصغيرتين الى الضيعة ، واعود انا كل مساء فأعد لك الطعام .. تستطيع ان تضع برنامجك بكل راحة

ولمدة طويلة .. اوقاتك كلها لك ماعدا هـــذه الليلة ، ساصنع لك « كبّة نيّة » لم تأكل مثلهـــا في حياتك .. هناء !. ياهناء ! حضري الجرن .

وقالت هناء وهي تقف على الباب حاملة القهوة :

- شف ياجوزيف .. الآن عاد الاستاذ ونستطيع ان نسأله ..

فقاطعها :

- لانسأله ولا يسألنا .. بدأنا ؟ غرفته منطقة حرام .. مفهوم ؟ الاستاذ بحاجة الى الراحة والهدوء .. يه !

فقال فياض متوجهاً الى جوزيف :

- لاتعقد الأمور الى هذه الدرجة .. دع العائلة تأخـــذ حريتها ، وقبل جرن الكبة ارجوك ان توصل لي هذه الورقة .

وبعد ان كتب ورقة صغيرة وغلفها ، حملها جوزيف بنفس الخطورة التي يحمل بها مظروفاً فائق الاهمية .

* * *

في منتصف الليل جاء صديق فياض .. ذاك الذي اوصله الى هذا البيت اول مرة . كانت كلمته الاولى : هيا !

فتدخل جوزيف معترضاً :

- الى اين ؟

- يجب ان يغادر هذه المنطقة .

- بهذه السرعة ؟

- بقاؤه غير مأمون .

- ونهض فياض دون ان يقول شيئاً .. لم يكن يقدر انه سيخرج من بيت جوزيف في نفس اليوم الذي دخله ، ولكنه ، الى هذا ، لم يكن يقدر انه سيمكث طويلًا .. اما التنقل فقد اعتاده ، واما معمل المسامير فقد صار ، كالمطعم ، كورشة البناء ، كنافذة دينيز : ذكرى !

مجرد ذكرى !

القسم الخامس

— ١ —

بعد سنة من هذا التاريخ ، نشرت الصحف تفاصيل مثيرة لمطبعة سرية عثر عليها في أحد الاقبية ومعها منشورات ثورية ورجل ذو شعر طويل ولحية سوداء كثة من خارج لبنان . قالت الصحف ان العمليـــة تمت في الصباح الباكر : داهمت مفرزة من رجـال الجمارك القبو (بعض الصحف قالت : الوكر) الذي يقع تحت أحد الابنية ويُدخل اليه من باب على انخفاض عشر درجات ، ومن باب خلفي يفضي الى حديقة تستعمل كمنشرة ، وصادرته . توسعت صحيفة في التفاصيل فنشرت تحقيقاً يقول ان الباب الخلفي يفضي الى مقبرة تلي المنشرة ، وان الوصول اليه كان يجري عن طريق نفق فوهته احدى الخشخاشات[1] . مجلة واسعة الانتشار ذكرت انها ارسلت بعثـــة صحفية صورت القبو والمنشرة والمقبرة والنفق (المليء بالجثث وعظام الموتى) وحصلت على معلومات خطيرة من مصادرها الخاصة ، وهي

(١) الخشخاشة هي القبر ذو البنـاء الكبير الذي يتخذ للعائلات الثرية .

اقوال العاملين في المنشرة وحارس المقبرة . احد العاملين في المنشرة أفاد انه كان يسمع في الليالي هديراً مكبوتاً نبه اليه زملاءه فضحكوا منه واتهموه بالجبن . حارس المقبرة قال انه كان يرى اشباحاً بين القبور ، وانه لحق بشبح منها فاختفى في الارض ، وانه قص الخبر على الكاهن فعذّره[٢] ونصحه بان يتلو « اؤمن باله واحد » من اولها حتى عبارة « نجنا من الشرير » سبع مرات كل ليلة لطرد الوساوس والشياطين . عجوز ذكرت انها سهرت ليلة ، ففتحت النافذة المطلة على المقبرة ورأت في ضوء القمر رجلاً (ترجح انه بثياب بيض) يجتاز المقبرة ، ثم اختفى ، فقصت الخبر على جاراتها ، وأشيع ان « مار الياس » ظهر لأم مخايل وصار الناس يتبركون بها .

اسبوع والرواية ثابتة ، غير ان التفاصيل ظلت تتنوع وتتمدد حتى غطت على أنباء سبق الخيل وجريمة « الدكوينة » وقتلى الخلافات الانتخابية في زغرتا . وفي نهاية الأسبوع نشرت « صحيفة ذات نفوذ » ، وعنها أخذت بقية الصحف ، صورة الرجل الذي ضبط مع المطبعة والمنشورات ، بشعره الطويل ، ولحيته السوداء ، ويديه المقيدتين بالحديد ، وأعادت نشر صور القبو والمنشرة والمقبرة ، وزادت عليها صورة المطبعة والمنشورات ، وبعضها نشر عناوين المنشورات بالزنكوغراف ، مع تفاصيل جديدة ، غاية في الاثارة ، واكتفى ، لسلامة التحقيق ، بذكر اسم المعتقل (فياض ..)

---

(٢) عذره : وبخه عند العامة .

وهو من خـــارج لبنان ، يقود النشاط ، ولا يقوى على النظر الى الشمس ، لطول ماعاش تحت الارض! وله اظافر طويلة، كالمخالب، ونظرات راسبوتينية ، ساحرة ، مخيفة !.

* * *

جلس خليل على حجر كبير من احجار النحت وراح ينظر في الصورة ويبتسم : « هذا أنت إذن يا فياض ! » قبل سنين طويلة جداً صوروه هو أيضـاً ولم ينشروا صورته في الصحف ، لم تكن في ذلك الوقت صحف كثيرة ، كانت تقتصر على الاعـــلانات والأخبار الرسمية، وكان الفرنسيون يمنعون نشر اخبار الذين يطالبون «بالسنديكات» ويعلقون « البنديرات » الحمر في اول ايار . كانت له لحية سوداء ايضاً ، ولكنها ليست بهذا الطول ، وشعره لم يكن مسترسلا على رقبته بهذا الشكل ، وقد تكون الصورة محفوظـة في السجلات ، وربمـا اتلفت ، فالصور اصبحت كثيرة ، لا تسعهـا السجلات . ويومها نسجت حوله اساطير. تحدثوا في الحي عن اعتقاله في المغـارة ، مع « البنديرات » والكراسات ، وقالوا ان المغـارة كانت طويلة ، تتصل بنفق فوهته في الطرف الثاني للجبل ، وان فيها افعى مؤلفة [1] ، هاجمته ليلاً ، فنبهه الكلب الذي كان يعيش معه ، وقتلها بعد معركة دامت حتى الصباح . وتفننوا في وصف المغـارة وما يجري فيها ، وتوصلوا الى ان خليل وجماعته يحملون تعويذات ،

(١) عمرها تجاوز الالف عام .

وان الرصاص لا يؤثر فيهم ، وان خليل كان ينزل نهاراً الى المدينة متنكراً بثياب فلاح او غجري ، وان فتاة من بلاد « جوّا » تقرأ وتكتب ، وأبوها موظف في الحكومة ، هي التي تحمل الكراريس اليهم ، ولأن وجود انثى مع ذكور ـ وهذا ما دهش له الجميع ـ ، لا بد أن يحدث احتكاك ، ـ حسب تعبير عجوز مجرب منهم ـ فان العشق قد وقع لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فان المعشوق هو خليل ، لأنهم لا يعرفون سواه . وقال والد فياض يومها وهو يرطب شفته السمراء بلسانه : « اذا كان خليل خيّال هذه الفرس فسيغتني الى ولد ولده » وقالت امرأة : « لا بد أن تكون شقراء وجميلة ، اذا كان أبوها في الحكومة » . وقالت امرأة اخرى في مجلس نساء : « ولا بد أن يكون « كيلوتها » قصير بمطاط » فقالت أم بشير : « هذا اسهل بالنسبة لابن اختي ، لأن مروال المرأة الطويل بتكة لا يطاق في الصيف ويسبب مشاكل » وروت لهم ان زوجها أتاها يوما في الظلام وعلى النصت ـ لأن الغرفة كانت مثل جوف الرمانة ـ وأرادت فك التكة فانعقدت ، وشد الزوج بها حتى تقطع خصرها ولم تنقطع ، وعندئذ ضغطت على رأسه لينزل ويقرضها باسنانه ، ونزل « الفالح » ـ كما كانت تسميه ـ وأخذ يقرض التكة ، ولأنها كانت « بريما » قويا ، أو لأن أسنانه كانت ضعيفة ، فقد عجز عن فكها أو قرضها ، ولذلك سحبت رجلها بهدوء ، وبكل ما فيها من قوة ، لبطته لبطة ألقته على الفراش المجاور ، وصاح مذعوراً : آخ ! واستيقظ النائمون

في الغرفة ، فزعم لهم انه كان يحلم ، بينما كانت هي تطمر رأسها في الفراش وتضحك !

وعاد خليل يبتسم : « هذا انت اذن يافياض !؟ » وقال في نفسه : « هذا هو أبني الحبيب الذي به سروت» الآن سيكتب بشكل أفضل .. اجتاز التجربة .. » ثم تساءل : « كيف اكتشفوا القبو والمطبعة؟وشاية؟خيانة؟وما هي علاقة رجال الجمارك؟ » . طوى الجريدة واعادها الى صاحبها معتزماً اخفاء النبأ عن اهله ، وقام يسأل عن المهندس الذي وعد بتشغيله ولا زال يماطله منذ شهر . حصل على تعويض التسريح وصرفه كله . سدد بعض ديونه واستمهل الباقين . رجلاه تخلعتا من النزول والصعود على طريق البرج ، والاطفال في البيت يلوبون كدود القز حين ينقطع عنه ورق التوت . لولا والده لكانت الكارثة . والده اشتغل صيفاً في حمام البحر ، وشتاء بواباً في بناية ، وكف عن ان يكون لاهوتيـــاً على حسابه . وام خليل مرضت حتى اشرفت على الموت ، فجاءها جوزيف بالطبيب وام بشير بالدواء .. توقف النق والكلام على فياض و « المجامع » والنار التي يحرق بها خليل نفسه . الحريق وقع وانتهى الأمر . الحريق في العيون والحركات والمطبخ الفارغ والثياب الممزقة على جسوم الأطفال . وام بشير ذهبت الى دينيز وبكت . قالت لها ، بصفتها جارة ، ان حالة بيت اختها اصبحت لاتطـاق بعد تسريح خليل من الهاتف الآلي . ولم تفهم دينيز لماذا سرح خليل ،

سمعت مايقال عنه في الحي ، وأمها شتمته يوماً ، وهي لاترغب في مناقشة شؤون الآخرين ، ولكن ذكرى الوجه ذاك .. ذكرى « الانسان الذي يسبح ضد التيار » . الزيارة فجت رمادها بعد طول خبو . وكما في الكتب ، حين تقوم البطلة النبيلة بعمل يضعها في صف الشهيدات او القديسات، قامت دينيز بعمل أحست معه انها أقرب الى الحقيقة والحياة . اوجدت سبباً لزيارة العائلة ، ولاطفت الصغار بشكل جعل الكنة ترتبك وهي تنظر اليها خفية وبكثير من الاعتبار ، واصعدت الصغيرة معها الى غرفتها ، وفي رجوعها زودتها بالسكاكر والبسكويت ، وفي الزيارة الثانية دست شيئاً تحت وسادة أم خليل ، واغتنمت ارتباك الكنة الدائم لتلقي نظرة على الغرفة الداخلية ، وتتصور كيف كان فياض يقف خلفها ...

وقع ذلك كله كان متبايناً على الاسرة . قدّره خليل بصدق ، واعتبرت ام بشير ان مشاريعها للزواج كحبة القمح ، ترقد في التربة ولاتموت ، وتذكر ابوخليل كتفيها العاريين ولم يتذكر الوصايا العشر ، وزاد جوزيف من تردده على بيت أبي خليل ، وقارن ، من المقابلة الأولى ، بين دينيز وفتاة الدير وامرأة المصعد ، وهز برأسه أسفاً حين انتهى الى هناء ، واورد المرة الاولى بعض الكلمات الفرنسية في حديثه ، فرفعت ام خليل حاجبيها عجباً ، ولاحت الابتسامة الحيية على شفتي الكنة الصموت ، وتساءلت دينيز : من يكون اذن ؟ يتكلم الفرنسية ! وفي هذا البيت ؟ Comme bans les livres exactement .

وخليل يسير عائداً الى البيت . الظهر ولم يأت المهندس . مهندسك لن يأتي ياخليل ، ومن العبث الانتظار على هـذه الحجارة وفي هـذا الحر والغبار ، وكذلك سدى أن تذهب وتجيء .. ولكن خليل يبحث عن عمل ، واذا كذب واحد فلن يكذب الجميع ، هو يؤمن ان واحداً سيصدق ، ثقته بالناس لم تتبرر ، ولكنه يثق ولا فائدة من مناقشته . شهور مضت وهو يمارس رياضة المشي . جسمه منخور كالخشبة المنخخة في سقف هرم ، وهذا الجسم يحمل سقف العائلة كله . الأيام فعلت فعلها فيه ، وكذلك السجون والملاحقات والبطالة ، ومع ذلك يعد خليل نفسه بأيام جميلة ، ويحلم على طريقته « وهذا أنت اذن يافياض !» ويبسم .. « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت » الآن يمكن ان يعترف به .. « ولكن لا .. لاتستعجل — قال في نفسه » .

* * *

في البيت كانت أمه تعصب رأسها . استنتج وهو يراها من الشارع جالسة الى خوانها ان مصيبة ما قد نزلت بالبيت . وقال في نفسه « ولكن زوجتي غير حامل » . العصبة وضعت قبل الآن في مناسبات كثيرة ، ابرزها عند ولادة بناته : الثالثة ، والرابعة والخامسة . حين ولدت بنته البكر قالت ام خليل لكنتها « عروس جابت عروس » ، وعندما جاءت البنت الثانية قالت لها :

« لاتزعلي .. التي جابت البنت تجيب الصبي » ولكنها عند البنت الثالثه عصبت رأسها .

وقالت الكنة ان ولادتها في البيت مشؤم ، واصرت على الولادة في المستشفى في البطن الرابعة ، واخرجت لذلك « ورقة فقر حال » وصباح الولادة جاءت البشارة : صبي ! فزغردت ام خليل وابعدت عصبة الرأس التي كانت قد اعدتها سلفاً ، لكن ام بشير التي جاءت من المستشفى بعد الظهر حملت خبراً مفجعاً لأختها «الكنة جابت بنتاً ! » وصاحت ام خليل: «هاتوا العصبة !» ولم تنفع احتجاجات خليل وتوسلات الكنة امام ادارة المستشفى ،لأن الممرضة قالت ان هناك خطأ، وانها ولدت بنتاً لا صبياً ، وقال خليل : «بدلوه» وخرجت الام وطفلتها من المستشفى لتجد العصبة السوداء على رأس الحماة ، ورفضت هذه قبول الوليدة في البيت ، وحدثت مشادة في ذلك اليوم ، انتصر فيها حزم خليل ، وادخلت الصغيرة بين الشد والنتر وهي تبكي ، وامها تبكي ، واخواتها الصغيرات يبكين !

العصبة – اياها ! – استمرت حتى مجيء الصبي بعد البنت الخامسة ، وها هي اليوم ، على الرأس ، كالراية السوداء على بيت ميت ، وام خليل تلطم خديها وتبكي ، وام بشير تضحك عليها ، والكنة تراقب المشهد بصمت ، وابو خليل استعاد منطقه اللاهوتي فهو يردد « اذ كرنا يافياض اذا جئنا في ملكوتك » فتسأل ام خليل:

«تقول يصلبونه ؟» ويجيبها: « لا .. عادة الصلب بطلت .. الشنق أسهل ! » فتضرب على ركبتيها وتبكي ، وتقول من بين دموعها : « الله يصبر قلبك يانزهة ! » .

وصاحت بخليل وهو يدخل البيت :

– سمعت ؟.. شفت الجريدة .. احترقت وحرقته .. ياضياع شبابك يافياض !

البارود في الصخر . اشعل الفتيل فقط ويحدث الانفجار . الصمت !.. هذا أجدى . لاتقل شيئاً . كالجسر تحمل ضغط الاثقال . خشبة منخورة أنت ، ولكنك عمود البيت . العاصفة تمر ، والشجرة الراسخة تبقى . دع العاصفة تمر ، والسماء تمطر ، ثم يكون صحو كثير .

* * *

والسماء ، في بيت دينيز ، امطرت أسى أيضاً . هذا هو الفتى . هي وهو . وجه ووجه . صورة في جريدة وصورة حية ، ونظرات متقابلة ، وكلام ولا كلام في النظرات المتقابلة . ام بشير حملت اليها الجريدة ، واشارت الى الصورة قائلة : «تعرفينه !؟ » في البدء لم تعرفه .. الشعر ، واللحية ، والقيود في اليدين ، والقميص المفتوح ، المدعوك كأنه لم يعرف الكي .. لاشيء سوى العينين علامة مميزة . هذا هو .. « أنا اسبح ضد التيار .. لاتستطيعين

ان تأتي الي » .وكانت تحسبه مبالغاً . قبو ، ونفق ، ومقبرة ، ومطبعة ، وكل التفصيلات التي نشرتها الصحف . .«وهذا انت اذن؟ رباه ! لماذا ؟ لماذا ؟ »

* * *

والف لمــــاذا تظل ترتسم والجواب بسيط : لأن ذلك كذلك . وهنــــاء لاتفهم بدورها . لاتصدق ان فياض ، اللطيف كنسمة ، الذي يخشى ان يزعج الارض اذا سار عليها، يمكن ان يدخل المقبرة ليلاً ، وينزل الخشخاشة ، ويعبر النفق المليء بالجثث والعظام ، ويصل القبو ليطبع الكراريس والنشرات . وجوزيف المثار ، المعجب ، المؤيد ، المستزيد ، يقطع الصالون جيئة وذهوبا ويقول : لا تستغربي ، الاشياء كذلك دائماً . وللتأكيد ردد بالفرنسية Les Choses sont toujours commeça فسألته ببراءة : «وأنت؟مررت بالمقابر مثله ؟ » فأجاب : «قد أمر بماهو أصعب . » « وهل تجرؤ على النزول في الخشخاشة ؟ » التفت اليها بانعطاف مفاجىء ، ولأمر ما شعر بالاهانة، ووجد سبباً للانفجار فصاح بهـا : « يابنت الافاعي ! نسيت انني من كسروان ؟ » وكسلحفاة واجهت خطراً ، بلعت نفسها وسكتت ، بينا أكمل هو خطواته الى نهاية الصالون واستأنف تقريعه : « تحسبيني مثـــل مغنيك ! ؟ » ودخلت السلحفاة صدفتها تماماً ، فعاد اليها يقول : « لو قرأت قصة زوريا ! » ونظرت

اليه متساءلة وقد ضاعف الذعر بلادتها الذهنية ، فأشاح عنها استخفافاً وقال « انما انت جاهلة .. لاتعرفين شيئاً عن حياة المناضلين ! » ودار حولها وقال : « المناضلون هم الـ (combatants) يامدام ، ماذا علموك في المدرسة ؟ » وأجاب عنها « لاشيء ! » وتركها ومضى الى البراد ، اخرج زجاجة العرق ، وصب كأساً وكرعه ، ثم صب كأساً آخر ، ووضع مرفقيه على الطاولة والجريدة مبسوطة امامه ، وبدأت ، في الارض غير المقدسة ، تحترق العوسجة البرية.

وفجاءة ، كأنما هبط عليه الوحي ، او كأن عارضاً مسه ، اهوى بقبضته على الطاولة بعنف ، فدوى الخشب ، وأزّت الزجاجة والصحون ، واهتز الكأس ، وتناول الجريدة ومضى عبر الباب الخارجي الذي اصطفق وراءه بعنف أيضاً .

* * *

على طول الطريق ، من بيته الى بيت خليل ، كانت نار بيضاء لعوسجة متحركة تشتعل بتأرث . أما هناء ، التي عادت فخرجت من صدفتها دون ان تشعر بشيء غير عادي ، فانها لم تستطع ان تنسى فياض ، ولا ان تتصور ان ذلك حقيقة . ودونَ تحفظ اخذتها الشفقة على جوزيف ، وعجبت « لان ذلك كذلك » ، ولأن الدنيا لاتصير كما يريدون !

ودخل جوزيف بيت أبي خليل بوجه مكفهر يحمل طابع

المأساة ! وكالمعزي في ميت جلس دون ان يتكلم ، فالتفتت اليه ام خليل وسألته بصوت واجف :

- تقول يشنقونه ؟

وعندئذ خرج عن لباقته المعتادة وقال بغضب :

- يقطعون بيضه !

وللحال ، اعتذر من النساء ، وافاض في الكلام عن الحادثة وخليل ساكت ، ووالده يتدبر جملة لاهوتية ، والكنة مقعية في ركن الغرفة ، ترقع ثياب الصغار ، وشيء مبهظ ، رصاصي يتمدد في الجو . قالت ام خليل :

- من كان يصدق ان فياض يطلع منه كل هذا ؟ كيف لم يخف وهو يدخل الخشخاشة . ؟ كيف لم يجن ؟ الله يصبر قلبك يانزهة !

قال جوزيف :

- الاحياء لايخيفون الاموات يا ام خليل .. وصاحب المبدأ لايخاف الاموات ولا الاحياء .. غوركي نام في المقبرة .

فقال ابو خليل :

- وخليل نام في المغارة .. كلنا ننام في مغارة .. والمخفي أعظم !

قال جوزيف :

- اذا لم يخف الانسان الموت اصبح كل شيء سهلاً عليه ..

جوريس قال : « اذا كنت لاتخاف القبر.. » فناحت ام خليل :

- لاتذكروا القبور (وملتفتة الى كنتها) قومي اشعلي البخور ..

ووجد خليل ان الصمت لم يعد يجدي فقال :

- اتركوا هـذا العلاك .. يضحكون عليكم وانتم تصدقون . . اي مقبرة واي خشخاشة هذه ؟ يصنعون من الحبة قبة لزرع الخوف وتبرير الارهاب .

- ولكن الصحف نشرت الصور . قال جوزيف .

- وماذا يعني ؟ تلفيق ! المطبعة في قبو ، والقبو له باب ، وفياض كان يسكن هناك .. وحتى لو كان يعمل ، ولو كان يطبع كما يقولون ، تظل القضية عادية .. حين لايسمحون للناس بالكلام علناً يتكلمون سراً ، وحين لا يسمحون لهم بالنشر في صحفهم ومطابعهم ، يضطرون الى النشر في الصحف والمطابع السرية.. مئة مرة كشفوا هذه المطابع ، واحدثوا هذا الضجيج ، ومع ذلك بقيت المطابع ، وبقي الناس يطبعون ، لماذا هذه المناحة ؟

فقال ابو خليل ساخراً :

- قم حول الماء الى خمر لنعمل عرس قانا يا محترم!

- لا عرس ولامناحة.. غداً تصير المحاكمة وتعرف الامور .

- وفياض ؟ سألت العجوز بنبرة رجاء .

- ينهي محكوميته ويطلع ..

فهزت يدها مضمومة في وجهه وصاحت :
ـ آه من قلبك القاسي .. كأنك لاتعرفه .
وقال زوجها :
ـ ابنك لايعرف نفسه .. افرطي لنا هذه المسألة .

— ٢ —

ذات صباح ، بعد ستة اشهر تقريباً ، خرج فياض من سجن الرمل ، لم يكن شعره طويلًا ، ولا ذقنه نابتة ، وفقط بياض خفيف في الفودين ، وغضون على الجبين .

كانت امرأة تنتظر . نفس المرآة التي كانت تحمل له الطعام الى السجن . هو لايعرفها وهذا لايهم . أقرب اليه من كل من عرف . وابتسمت له بود وقالت : « تعال ! » وعلى جانب كانت تقف سيارة ، وفي جوفها جلسا ، فوضعت راحتها على يده بحنان ، كأنما تريد ان تعبر باللمس عن الاعجاب .

لم تتكلم ، الكلمات أعجز ، والسائق لايتكلم ، الكلمات اعجز ، وهو لايتكلم ، الكلمات أعجز ! في القبو كان ، في القبو نام ، في القبو عاش ، ومصادفة ، دورية جمرك ، تبحث عن تهريب ، عثرت على القبو .. وفي صدره حطوا بنادقهم ، وفي يديه حطوا سلاسلهم ، وفي جسمه زرعوا مشارطهم ، ولم يفتح فمه بشيء : «لا اعرف !» اليوم تموت ، وغداً تموت ، وبعد الف تموت ، والخوف يموت ، ثم لاشيء .

والكف ، رخصة ، حلوة ، تضغط : شكراً ! والقلب

مسرور يخفق: شكراً! والعين تلمع: شكراً ، والطريق ، من وراء ، يطول ، يطول .. وصحراء بيضاء ، ورجل حافي القدمين يسير ، أثلام من وقع قدميه، دماء على وقع قدميه، ومنعرجات وخطوط.. والدرب يطول .. وأمامه سبعة بحور .. والدرب يطول ، والعزم يطول .

وقالت له المرأة : هنا !..

ودخلا ..

وعانقه الموجودون ..

شكراً ، شكراً ، شكراً .

* * *

في اوائل الشتاء غادر بيروت الى الجبل. عاش فترة مختبئاً. كانوا يبحثون عنه ، منذ غادر السجن وهم يبحثون عنه ، وجرت تحقيقات في كيفية المغادرة . وأوقف اشخاص ، لكنه ، هو ، كان قد أفلت . وفي بيروت عاش وعمل . كان يخرج ليلاً . ويخرج أحياناً نهاراً ، ثم اشتدت الملاحقة ، وضاقت الحلقة ، فلجأ الى قرية نائية في جبل لبنان ، وسكن غرفة في بيت كبير خال .

الثلج وقتئذ لم يكن قد تساقط، وها هو ، في كانون الاول، يغمر، لا قمم الجبال وحدها ، بل حقول القرية وطرقاتها ايضاً .. وحتى الاشجار بدت مدثرة بعباءات بيضاء تكاد تنحني من ثقلها .

هنا يعيش مقطوعاً تماماً .. يعيش بين كتبه واوراقه ،

ويقتات ذكرياته ، ويجاهد نفسه على تحمل الحرمان الكامل ويتمنى لو يجد من يبادله الحديث .

كانت ، في البيت المجاور ، مدخنة ، وكان دخانها ، في الأماسي ، يتصاعد منبئاً بوجود حياة، ثم انقطع الدخان مع اشتداد البرد ، فأدرك ان سكان البيت نزلوا الى بيروت ، وان يعودوا إلا عند اشتداد الحر . الشيوخ والاطفال وحدهم بقوا في القرية ، وهم لا يخرجون من بيوتهم إلا لزيارة أو غرض ، وهو لايخرج من غرفته إلا نادراً ، ولا يشاكل القرويين .

جارته العجوز هي التي تذهب وتجيء ، فتشتري له متطلباته من السوق ، وتطهو طعامه، ثم تغيب أكثر النهار .. وحتى او بقيت في البيت فهي لا تتكلم .. جارته من النوع الذي لا يتكلم ، كأنها لم تعرف الحديث يوماً ، أو نسيت عادته .. وإذا ما فاتحها بامر ، أجابت باختصار ، وأدت ما طلب منها بهدوء ، وذهبت الى حيث لا يدري ، أو ارتكنت غرفتها كأنها قطعة من أثاثها ، فلا يبقى له سوى الصمت ، أو المطالعة أو اجترار ذكرياته الملعونة .

في هذا الجو الهادىء والكئيب ، انهى قصته الطويلة .. ثم فشل في أن يبدأ قصة جديدة .. وحين حاول أن يرسم خطوطاً أولية للذين عرفهم في غربته ، وجد انه عاجز عن تصويرهم بصدق .. كان ينقصه شيء ما لا يعرف ما هو .

كانت الحياة قد باعدت بينه وبينهم .. وقد التقى ، قبل مجيئه الى هنا ، بخليل .. كان لقاء قصيراً حاراً .. ولم يشأ خليل أن يقول شيئاً عن وضعه ، ولم يظهر تذمراً او شكاة ، وكل ما عرف منه انه وجد عملا ، وان العائلة بخير ، والجميع يتذكرونه .. وينتظرون عودته ..

ورداً على ما قص عليه فياض ، قال خليل ، بنفس لهجته الوادعة ، ولكن بالجدية الصارمة لآرائه العملية :

– أنت الذي اخترت هذا الطريق ، وما عليك إلا أن تواصل السير .

فوافق فياض بتصميم ، وانتهى اللقاء .. لم ير جوزيف ولا أبا روكز أو ام بشير .. ودينيز لم يسمع شيئاً عنها .. وفي تنقلاته .. مر يوماً بمعمل المسامير فوجده مغلقاً .. قدر ان الرأسمال الفنزويلي كان سراباً .. كذلك مر ببعض ورشات البناء ، فتذكر زميله العامل الذي يأكل «الخبز الناشف» وبعده يتفرج على «الفاكهة» في ساحة البرج .

هذا كل ما عرفه من أمر اصحابه في « كرم الزيتون » .. دنياه تلك ، كم بدت قاسية ، مقيتة في وقتها .؟ كم لاب بين الجدران ، وحبس انفاسه عند وجود الزوار ، وقبع ساكناً هامداً ساعات وساعات ؟ ثم كم تنقل بعد ذلك ؟ كم بدل غرفاً ورأى وجوهاً وقطع

طرقاً ؟ « إيه يا أم خليل ، أمـا يزال مجلسك كما كان ؟ وايه يا أبا خليل ، يا حارساً أميناً مؤتمنـاً ! وأنت يا خليل ، يا زيتونة مباركة بين الاشجار ، كم عصفت بك الرياح وكم صمدت للرياح ! وأنت يا أم بشير ، يا عاملة جريئة ضاحكة للحيـــاة !. ويا جوزيف ! ويا هناء ! ويا ابا روكز ، أيها المخترع ، الصانع الحياة من جمـاد ! وأنت يا دينيز ، يا قمراً أشرق وغاب ، يا أحبائي ، يا شهودي عنـد نفسي ، سلاماً ! »

* * *

حوالي رأس السنة عادت المدخنة في البيت المجـــاور الى العمل .

كان الثلج قد ارتفع امتاراً على القمم القريبـة ، والبساط الابيض غدا سميكاً ، والبرد يلسع فلا يجرؤ الناس على مد رؤوسهم ، والجو الضبابي الكثيف يبعث شعوراً بالضجر وبالحاجة الى الهرب .

وكان الحرمان قد اشتد .. غدت غرائزه الجائعة ذئاباً في غابة ثلجية . وقد عجب كيف تحمل الحرمان طوال غربتـــه ، وارتعش وهو يفكر كيف سيتحمله أيضاً . وقال في نفسه : « أي بشر هؤلاء الذين يقضون حياتهم في حرمان متصل ؟ الموت ، على أنه الحرمان الاكبر ، ليس رهيباً .. انه ذروته وباب الخلاص منه ، أما الرهيب فهو هذا الحرمان اليومي المتصل » .

وذات صباح ، فيما هو الى النافذة ، شاهد وجهها في البيت المجاور .. كان وجها لطيفاً لفتاة صبية .. وكانت تحملق فيه بامعان، وقد ارتسم التساؤل على محياها .. ولعل هيئته الغريبة ، باللحية النابتة ، والشعر الطويل ، قد أثارت دهشتها ، فقال في نفسه : « يا للغرابة ! نافذة اخرى وطيف آخر !.»

وواصل الثلج تساقطه ، فازدانت الأشجار به ، وتهيأت لاستقبال الميلاد .. كانت مثله وحيدة ومهجورة ، ومن المشكوك فيه أن يحفل بها أحد ، أو يعلق عليها هدية لحبيب . فقال وهو يتأملها :

– مسكينة أشجار الحديقة ومسكين أنا .. كلانا يستقبل العيد ولا يدري ما يصنع به .

ثم صاح دون أن يتكلم :

– أيتها الاشجار . يا أشجار الحديقة ، ياعزيزتي .. لن يلبث هذا الثلج أن يذوب ، أتسمعين ؟ ستشرق الشمس ،ويذوب الثلج ، وينبت العشب ، وترعى الخراف .. سيعودون اليك في الصيف ، وسأعود أنا الى بلدي ذات صيف ، أتعرفين ؟ سأذكرك، واحب كل الأشجار لاجلك ، كي لاتبقى شجرة بدون حب ، ولا قلب بدون دفء .

وقال في نفسه :

– لسوف أجن اذا بقيت وحيداً .. الى جهنم هذه الحال.. لماذا لاتظهر جارتي ، طيفي ، في النافذة ! ؟

وراح يعدخطاه .. وكانت جارته ، في جو القرية الفارغ ، مستوحشة مثله ، ومثله تتعذب وتبحث ، وقد قالت في نفسها :

– هل هو معتوه جاري ؟

وأغلقت النافذة .. ثم راحت ، في غرفتها ، تعد خطاها.. كانت تعد على نحو مغاير ، ولكنها كانت تعد على أية حال .. فلما أدركها الملل فتحت النافذة كرة اخرى . واذ شاهدها قال في نفسه :

– أنا لا أطمع فيك يا عزيزتي .. لست في وضع يسمح لي بالاتصال بك ، ولا آمل في حبك ولا مكان له في قلبي ، أنا أبحث عن عزاء .. عن عاطفة .. عن نسمة دائمة .. أما أنت فشيء آخر .. أنت بغير حاجة الى هذا ، ولذا فان اطلالتك علي ، كرم يفوق كل كرم !

وقالت هي ، من وراء نافذتها ، وفي ذات نفسها ايضاً :

– اني لاأرجو منك شيئاً .. حي هناك ، في مكان بعيد .. وأنا انثى وحيدة كما ترى .. وفي الوحدة يستوحش القلب ، فاذا نظرت اليك ، فبصفتك وجها بشرياً .. وجهاً هو أنت ولست أنت .. أنا لن احبك في يوم من الأيام .. لن احبك أبداً ، ولكنني

احتاجك الآن .. احتاج أن انظر الى وجهك .. بل الى ايما وجه من جنسك ، ولو كان معتوها .. فيا صاحبي ، أيها الواقف وراء تلك النافذة ، شكرا !

وتساءل هو :

– ترى .. بماذا تفكر تلك الفتاة ؟

وتساءلت هي :

– ترى .. بماذا يفكر ذلك الفتى ؟

وقال أخيراً :

– سيان .. لتفكر بما تشاء .. ليكن قلبها حيث يكون، يكفي انها انسانة .

وقالت أخيراً :

– سيان .. ليفكر بما يشاء .. ليكن قلبه حيث يكون .. يكفي انه انسان .

انسان وانسان .. والحياة ليست سيئة بعد . . في البدء كان آدم وكانت حواء والأفعى .. وهنا آدم وحواء ولا أفعى .. شبح آدم وشبح حواء .. لا بأس ، حتى هذا ، حين لايكون في المستطاع غيره ، يبدو مقبولاً . الاطياف ، في الاحلام ، مقبولة أيضاً ، ودينيز بعيدة .. كانت بعيدة دائماً ، وهذه الحقيقة لاتغير من واقع حبه شيئاً ، بل لعلها ان تزيده ، فالقمر لم يقترب من

الأرض ابداً ، ظل بعيداً وظل محبوباً ، فماذا لو وصل الناس غداً اليه ؟ ينسونه ؟ . »

– لو وصلت الى قمري لنسيته ايضاً . . ننسى الشيء في الشيء .. انسى دينيز في دينيز ، أيمكن هذا ؟ وفيم سعي المحبين الى اللقاء إذن ؟.

وقال في نفسه وهو يرسل آهة شوق :

– لعل الناس يسعون الى النسيان في سعيهم الى اللقاء . . يتعبون من الأحلام .. أجسادهم تمل ألم العفاف كما مل جسدي ألم عفافي ، فيهرعون الى الوصال، الى الدواء المسكن ، اللذيذ، الشافي.

قالها وأغمض عينيه، وسمح لعواطفه أن تعذبه ...تصورها كما رآها في النافذة ذات مساء ، بدت اجمل الآن ، أجمل من كل جمال ، وليس أجمل فقط ، بل اعز وألزم . هي وحدها الداء والدواء والمرض والشفاء ، وهو قادر أن يتجاهل ذلك ، أن يضع حبه جانباً، وربما ، في المستقبل ، أن يبرأ منه ، ولكنه ، في الوقت الحاضر ، مضطر أن يعترف به ..سيعترف به ويستريح، سيقول لجارته : « أنا أحب يا جارة ، وانت ، بالنسبة لي ، سلبية الصورة لا الصورة ذاتها، خدعة الدواء لا الدواء نفسه ، وقد أكون انا ايضاً خدعة دوائك لا دوائك نفسه ، وهكذا فنحن ، هنا ، ضروريان لبعضنا ، ضروريان جداً لو تعلمين ، فداومي ، داومي على الظهور ياعزيزتي، يا دوائي ، يا مؤنسة وحشتي القاتلة ! »

وداومت الفتاة على اطلالها كل يوم ، في الصباح وبعد الظهر . كانا يقفان جامدين ، يخطف كل منهما نظرة عابرة من الآخر .. ثم استطالت النظرة فغدت تحديقاً ، ثم التقت العيون فقالت الفتاة دون أن تتكلم :

– يخيل إلي ان هذا الفتى ليس معتوهاً .

وقال فياض دون ان يتكلم :

– يخيل إلي ان هذه الفتاة ليست قبيحة .

ولكي يفصح كل منهما عما دار في خاطره ابتسما .. واهتزت الاغصان في الحديقة بفعل نسمة عابرة ، فتساقط ثلج ، وخفق بجناحيه عصفور ، وانتشر دفء ، وفتح كلاهما نافذته ، وتبادلا التحية على استحياء ، كما يفعل جاران مهذبان ، وعبثا بالثلج كما يفعل سائر الناس ، ثم راحا يجمعانه من حوالي النوافذ واغصان الاشجار ، ويتراشقان به .. يقذفانه في الهواء دون أن يصل الى أي منهما .

وقال فياض :

– يا إلهي ! الثلج ليس بارداً . لم يعد بارداً ، انه يدخل من النافذة .. الثلج يأتي من النافذة .. واني لاحب الثلج حين يأتي من النافذة !

وقالت الفتاة :

– من كان يظن اني سأجد انساناً هنا .. اكرهني والدي

على المجيء معها في العيد ،فقلت في نفسي : « وماذا في العيدهناك ؟ لسوف أموت عشر مرات ضجراً في اليوم .. » وها أنا لاأموت . . نار صغيرة وسط ثلج كبير . . وماذا يهم ؟ يكفي انها نار .. مشروع نار ، لا نار كاملة !

وفي النافذتين ، بشكل غير منظور ، كانت ايد أربعة تمتد متعاكسة ، كل اثنتين تصطلي ناراً في الطرف الآخر ، وفي الاعماق تزهر احاسيس كاد يقتلها الصقيع .

* * *

استمرت الحال كذلك اسبوعين .. وقد كانا استثناءين بين الاسابيع .. الزمن تقاصر فيها وخف، كان زمناً لايحس ، لايرى ، لايمسك .. كان ، باختصار ، زمناً حلواً ، حلق فيه فياض ذقنه ، وأرتدىافضل ثيابه ، وعلق في نافذته عرقاً اخضر ..

– يادينيزي !. ياحبيبتي ! ياقمري البعيد ! يا اخوتي الذين يؤمنون بكلماتي ، يا امي الصغيرة الطيبة ! يامخلوقاتي !. انا بحال طيبة .

وقال نفسه :

– لاشتغلن شغلاً مثمراً بعد العيد .

* * *

وبعد العيد توقفت المدخنة من جديد . . بعد رأس السنة لم يعد يرى دخاناً ولا ضوءاً ولا وجهاً . . كل شيء عاد كما كان . . عادت الوحدة ، والفراغ ، والرتابة والبرد .. وعاد هو الى ما كان عليه ، بعد الخطى . ويكلم نفسه .

انطفأت النار عبر الحديقة .. انطفأ النور .. لا نار ولا نور ولا مسرح ولا جمهور .. كل شيء منه واليه . . « انا هو العالم . والعالم انا » والدنيا ، من حوله ، صمت ، والثلج وحده يأتي من النافذة .

وصاح مدهوشاً :

ـ كيف نسيت أن أغلق النافذة ! ؟

واذ تذكر انها كانت مفتوحة ، امس وقبله وقبله ، ابتسم كطفل يداري خطأه وقال :

ـ البرد ليس من الثلج !

واستدار عن النافذة وهو يؤكد لنفسه :

ـ البرد ليس من الثلج !

وقال للمرة الثالثة :

ـ البرد ليس من الثلج !

وظل واقفاً وسط الغرفة وهو يردد بنوع من التحدي :

ـ البرد ليس من الثلج !

وراحت الغرفة ، بكل مافيها ، تصرخ في وجهه :

ـ البرد يا فياض ليس من الثلج !.. البرد يا فياض ليس من الثلج !.. البرد يافياض ليس من الثلج !

* * *

البرد كان من الغربة ، والتجربة تمت في الغربة ، والآن وداعاً للغربة !

* * *

بين الصخور ، على الجبل الفاصل بين حدودين ، راح شبح يتسلل . نفس الطريق، قبل عامين، وانما بالعكس . سلاماً ياارضي ! وانحنى فقبل التراب . سلاماً يا ارضي ! وانحنى فقبل التراب . . وقف فاستقبل دمشق بوجهه : يامدينتنا التي لا أحلى ، يا أمي التي هناك ، يا نافذتي التي خلفت ، يا احبائي الذين فارقت ، ويارفقتي التي سألقى !

اغمض عينيه على هناءة الراحة بعد تعب . في مدينته سيعيش ، وفي مدينته سيكتب ، وفيها سيكافح ... وشعر بسعادة غامرة ، بسعادة من يستقبل الدنيا بصدره ، واعداءه بصدره، واصدقاءه بصدره أيضاً ، وهتف كأنه يقسم :

ـ أبداً لن اهرب بعدالآن ! ابداً لن اهرب بعد الآن .

ـ انتهت ـ